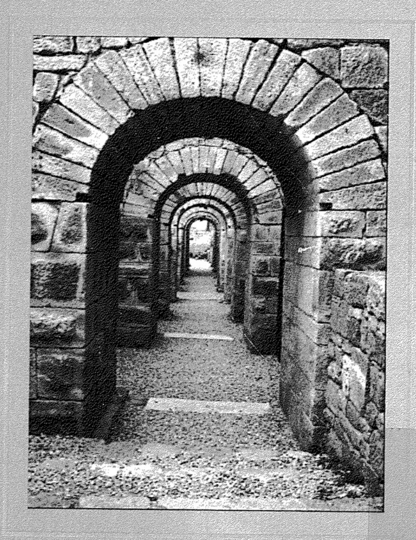
تاريخ

الحضارة الإسلامية

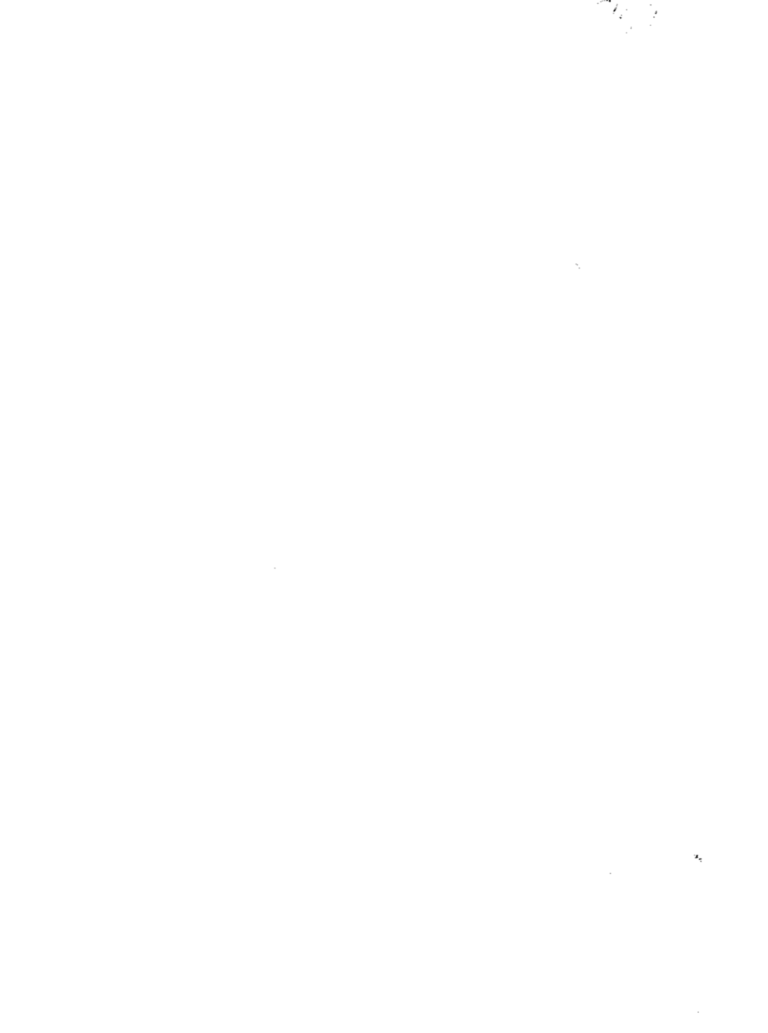


اشراف : محمد عبد القادر خريسات

تأليف

د. سلامة النعيمات — د. غيداء خزنة كاتبي
د. نوفان حمود السوارية — د. عصام مصطفى هزايمة
د. محمد عبد الكريم محافظة — د. يوسف أحمد بني ياسين





تاريخ الحضارة الاسلامية

محمد عبد القادر خريسات و د. سلامة النعيمات و د. غيداء خزنه كاتبي و

د. نوفان حمود السوارية و د. عصام مصطفى هزايمة و د. محمد عبد الكريم محافظة و

د. يوسف احمد بني ياسين

تاريخ الحضارة الاسلامية

الطبعة الاولى

2000

الناشر

مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع

ص .ب ١٢٨٤ الرمز البريدي ٢١١١٠

تلفاكس ٩٦٢-٢-٧٢٧٠١٠٠

اربد - الاردن

تصميم الغلاف: الفنان علي الحموري

رقم الايداع لدى دائرة المطبوعات والنشر: (٢٠٠٠/٩/١٣٩٨)

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠٠٠/٩/٢٦٩٢)

رقـم التصنيـف: ٩٥٦

المؤلف ومن هو في حكمه: د سلامة النعيمات وآخرون

عنوان الكتاب: تاريخ الحضارة الاسلامية

الموضوع الرئيسي: ١- التاريخ الاسلامي

بيانات النشر: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع

تاريخ الحضارة الاسلامية

اشراف

محمد عبد القادر خريسات

تأليف

د. سلامة النعيمات

د. نوفان حمود السوارية

د. محمد عبد الكريم محافظة

د. غيداء خزنه كاتبي

د. عصام مصطفى هزايمة

د. يوسف احمد بني ياسين

المحتويات

الوحدة الثالثة

التنظيمات المالية

الوحدة الرابعة

الحياة الاقتصادية في الحضارة العربية الإسلامية

الوحدة الخامسة

الحياة الاجتماعية

الوحدة السادسة

الحياة العلمية

الوحدة السابعة

الحياة العمرانية والفنية

المقدمة:

إن الاهتمام بتاريخ أي أمة من الأمم ودراسة حضارتها ومساهمتها في الحضارة العالمية أمر يفرضه الوعي الوطني والقومي على أفراد الأمة. ومن هنا أخذت الدول في العالم تولي تاريخ الحضارة الخاص بها أهمية كبيرة حتى يستطيع النشء التعرف على حضارته وإعادة قراءة الماضي وكتابته وفق نظرة جديدة يتطلبها واقع الأمة والرؤية المستقبلية لها.

وقد ساهمت مجموعة من العوامل في إدراك العالم لأهمية التاريخ قراءة وكتابة وتفسيراً. وهو اهتمام تولد من احساس عام بضرورة إدراك جذور الظواهر العامة في حياة الأمة إدراكاً سليماً.

ومن هذا المنطلق أدركت الجامعة الأردنية أن دراسة مظاهر الحضارة الإسلامية ضرورة لا بد منها لطلبتها من أجل الإطلاع على ماضي الأمة ومقارنته بحاضرها، ومعرفة مدى مساهمة العرب والمسلمين في التطور العالمي عبر العصور، وفي بناء هرم الحضارة العالمية.

لقد جاء هذا الكتاب ليتسق مع الخطة الموضوعية لهذا المساق ولم يرد منه أن يكون سرداً للمعلومات بمقدار ما هو بمثابة اشارات قومية تثير في الطالب التساؤلات والتحليلات حتى يخرج الطالب بحصيلة معرفية حول تاريخه وحضارة أمته فالمدلولات التاريخية ليست فقط استكشافات عقلية بل أنها تدرك بالحواس والتجربة والاطلاع والتحليل.

وفي هذا المجال فإننا لا ندعي الكمال، فالكمال لله وحده، ولكل شرعة ومنهاجاً ومن هنا فإننا نرحب بكل نقد بناء أو إضافة معلومات أو حذف بعضها من أجل اخراج هذا الكتاب بطبعات قادمة بصورة أفضل.

والله ولي التوفيق.

عمان في ١٠/٩/٢٠٠٠

الوحدة الأولى

الحضارة العربية قبل الإسلام

التمهيد: مفهوم الحضارة[1]

الحضارة:

كلمة الحضارة تعني في العربية الإقامة في الحضر. أي في المدن والقرى، بخلاف البداوة وهي الإقامة المتنقلة في البوادي. وفي لسان العرب "الحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي، والحضارة الإقامة في الحضر". فأصل المعنى إذن هو الاستقرار، والاستقرار الذي ينشأ عن زراعة الأرض هو السبيل الذي تتاح فيه لأبناء المجتمع مجالات التطور.

أما معنى الحضارة عند ابن خلدون كما جاء في مقدمته فهي: "طور طبيعي أو جيل من أجيال طبيعية في حياة المجتمعات المختلفة، وكذلك البداوة، ولكن البداوة أقدم، والبدو أصل للحضر و "الحضارة غاية للبداوة". ذلك أن نحلة البدو من المعاش تقتصر على الضروري منه فيكون "حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصّل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك". أما ول ديورانت مؤلف كتاب "قصة الحضارة" فيعرف الحضارة بأنها: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي".

إن المجتمع لا يتخذ سمة الحضارة، ولا ينخرط في سلك المجتمعات المتحضرة إلا إذا حقق بعض الشروط الأساسية، أولها أن يكون قد أصاب حداً أدنى من السيطرة على طبيعة محيطه، وعلى طبيعته البشرية،

---

(١) قام بإعداد هذه الوحدة الدكتور سلامة نعيمات.

والاستقرار من أهم شروط الحضارة، ولذا هدف ابن خلدون في حصر هذه الصفة بالمجتمعات المستقرة، واعتبار الحضارة مناقضة للبداوة المتنقلة.

والحضارة تتطلب التعاون الاجتماعي؛ فالجهود التي انبثقت منها الحضارة التاريخية الأولى؛ المصرية والبابلية والفنيقية وأمثالها، كإنشاء السدود وحفر الأقنية والإفادة من الموقع الجغرافي، وغيرها تقتضي قدراً من التعاون، وكلما ارتفع مستوى هذا التعاون زادت قدرة المجتمع على تحقيق شروط الحضارة. والتعاون يقتضي وسائل لتيسير الاتصال. ومن هنا كانت أهمية الكتابة، فالكتابة أداة فعالة في تعزيز الاتصال بين أفراد المجتمع من جهة، وبينه وبين المجتمعات الأخرى من جهة ثانية.

والتعاون الاجتماعي الذي تتطلبه الحضارة يفرض نوعاً من الحكم المنظم، بحيث تكون له، سلطته وتأثيره في تنسيق فاعليات الأفراد وحمايتهم وتدبير شؤونهم العامة، وعلاقاتهم بالمجتمعات والدول الأخرى.

وبناء على ما تقدم يمكن تعريف الحضارة بأنها: "مجموعة المظاهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية لأمة من الأمم يتناقلها أبناؤها جيلاً بعد جيل".

الحضارة والمدنية والثقافة

المدنية مشتقة من المدينة وهي تجمع بيوت يزيد عددها على عدد بيوت القرية، ومَدَنَ فلانٌ مدوناً أتى المدينة وبناها، وتمدّن تخلق بأخلاق أهل

المدن، فالمدنية تدل على مرتبة سامية وتطور راق، حيث تتجمع ظواهر وخصائص وكفاءات في المدن قل أن توجد في حياة الحضر وفي القرية، وفي المدينة تبدو مظاهر التقدم العلمي والفني والفكري والأدبي والتقني والآلي وغيرها.

أما الثقافة فهي من كلمة ثقف فلان صار حاذقاً فطناً، والثقافة تعني العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها.

وتشمل الحضارة كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشري، وغالباً ما يحددها سلوك الإنسان وطريقة معيشته وتفاعله مع بيئته. وتختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة سواء أكانت قديمة أم حديثة مظاهر مميزة، فالحضارة تشمل كل ما يتعلق بالنظم الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية، فهي تضم جميع نواحي الحياة من مظاهر البداوة إلى حياة القرية والمدينة، وتطور هذه الحياة ونموها وازدهارها.

العروبة والمدلول التاريخي لكلمة عرب

أصل كلمة عرب غير معروف بالتحديد، والتفاسير الحديثة تحاول إرجاع كلمة عرب إلى فرضيات لغوية قديمة أكدية، أشورية، عبرية، بمعنى أهل الغرب أو أبناء الجنوب، أو أهل البادية وأن سكان بلاد ما بين النهرين كانوا أول من أطلقها على الأقوام التي تسكن غربي منطقة نهر الفرات.

وأقدم الإشارات المكتوبة عن العرب تقع في نقوش آشورية بين القرن التاسع ق.م ٨٥٣ ق.م. ونهاية القرن السابع ق.م. وتطلق هذه النقوش

على الجماعات القاطنة في بادية الشام وشمال غرب الجزيرة الأسماء (عروبي) (وعرب) (وعربو وعربا). وتسمى أراضيهم بلاد العرب وعربايا.

وفي كتابات نبونيل الملك البابلي في القرن السادس ق.م (-٥٣٩ ٥٥٦ ق.م) يشير الى استيلائه على تيماء واتخاذها عاصمة لعشر سنوات وبسط نفوذه على ديدان (العلا) وفدك وخيبر وهي قرى عربية.

وفي كتابات اليونان والرومان ابتداء بهيرودوتس، يطلق لفظ آرابيا ليشمل الجزيرة العربية وسكانها كافة. وترد كلمة عرب وعربن في الكتابات العربية الجنوبية (السبأية) وهي تشير إلى الأعراب "البدو" كأعداء للكيان السياسي، أو كمقاتلين في الجيش.

أما أول إشارة عربية إلى العرب فترد في نقش النمارة ٣٢٨م على قبر امرىء القيس. وبالكتابة الآرامية النبطية، يدعو امرؤ القيس ملك العرب كلها وهناك إشارة لدى شاعر جاهلي من خزاعة هو قيس بن الحدادية، يمدح قبيلة خزاعة بمناسبة الحرب بينها وبين قيس عيلان (القرن الخامس الميلادي) إذ يقول:

هم المانعو البيت والذائدون عن الحرمات جميع العرب

ويظهر أن كلمة عرب كانت مألوفة بمعناها العام في مكة عند ظهور الإسلام، وترد كلمة عربي في القرآن الكريم نسبة إلى اللغة العربية في آيات عدة، وكلمة عربي مقابل أعجمي للناطق بها. كما ترد إشارات إلى الأعراب (البدو) مقابل المستقرين.

الإسلام

الإسلام كما يرد في القرآن الكريم، هو الدين الذي أنزل على جميع الأنبياء، فقد دان به إبراهيم وإسماعيل، قال تعالى: "رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنَ لَكَ" (البقرة: ١٢٨)، وكذلك هو دين يعقوب الذي أوصى به أبناءه، قال تعالى على لسان يعقوب: "إنَّ اللَّهَ اصطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسلمُونَ" (البقرة: ١٣٢)، وكذلك هو دين الحواريين: "ءَامَنَّا باللَّه واشهَد بأَنَّا مُسلمُونَ" (آل عمران: ٥٢)، وهو الدين الذي دعا محمد - ﷺ- أهل الكتاب لاتباعه، قال تعالى: "قُلْ يا أهلَ الكتَاب تَعَالَوا إلى كَلمَة سَوَاء بَينَنَا وبَينَكُم أَلاَّ نَعبُدَ إلاَّ اللَّهَ ولاَ نُشرِكَ به شَيئاً ولاَ يَتَّخذَ بَعضُنَا بَعضاً أربَاباً من دُون اللَّه فَإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشهَدُوا بأَنَّا مُسلمُونَ" (آل عمران: ٦٤).

وهو الدين الذي دان به نوح، حيث قال تعالى على لسان نوح: "وأُمرتُ أن أكُونَ منَ المُسلمينَ" (يونس: ٧٢)، وكذلك دان به موسى حيث قال تعالى على لسان موسى: "فَعَلَيه تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّسلمينَ" (يونس: ٨٤).

وقد دخلت بعض الشوائب وصور من التشويه المقصود من الأعداء في فهم الناس للإسلام بمعناه الشامل، ولا بد من فهم الإسلام كما فهمه المسلمون الأوائل من الصحابة. ومن الأمثلة على ذلك. قول ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس في معركة القادسية قبل بدء المعركة، وبعد محاولة الفرس إغراءهم بالمال، حيث قال: "ما لهذا جئنا، إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى

سعتها" .

والمصدران الأساسيان للإسلام بنظامه الشامل هما القرآن والسنة، حيث يمكن تقسيم الإسلام إلى : العقيدة وهي نظرة الإسلام العامة إلى الوجود، والعبادة وهي الترجمة العملية للإيمان، والأخلاق وهي ركائز السلوك في الحياة، والتشريع أو النظام الاجتماعي وهو بناء اجتماعي كامل محدد.

لقد جاء الإسلام لتقويض الأنظمة الاجتماعية الجائرة، وإقامة نظام اجتماعي عادل يشمل أحكام الإسلام في التشريع المالي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتهذيب أخلاق الإنسان والرقي به عن الأهداف المادية ذات الإطار الضيق.

التراث

تركز معظم الشعوب على المحافظة على أصالتها وإحياء تراثها وعدم إهماله، بل قراءته قراءة واعية واستخراج النافع بعد إبعاد الخرافات والأساطير، إلاّ أن المجتمع العربي لم يتمسك بثقافته الماضية وتراثه بالقدر الذي ينبغي حتى الآن، فلا يزال قسم من هذا التراث مشتتاً في أرجاء المعمورة في صورة مخطوطات لم تنشر. ويعد التراث العربي الإسلامي من أغنى تراث العالم.

ويجب التمييز بين الوحي والتراث، فالعلوم والصناعات والقيم التي عاشها العرب المسلمون هي منجزات تاريخية لفترة معينة لشعب من

الشعوب، فالتراث هو إنجاز إنساني تاريخي بحت. أما الوحي فهو إلهي ومجاوز للتاريخ.

ويجب القيام بعملية الجمع بين التراث والواقع الحالي للمجتمع وما يصطفى من مواقف ومفاهيم تراثية تصلح للإسهام في تدبير الحياة والأمور، وجعلها نمطاً سلوكياً أو ذهنياً في التفكير والفعل، حيث يمكن استلهام المواقف العقلانية السائدة من المعتزلة والمتفلسفة المسلمين، أو مفهوم العدالة كما جسده بعض الخلفاء، أو جملة الفضائل الخلقية التي صاغها فلاسفة الأخلاق وبعض المتصوفة، أو قيمة الحرية التي تعلقت بها بعض الحركات الثائرة على استبداد بعض العصور والأنظمة، أو قمة الديمقراطية التي تمثلت في الشورى الإسلامية، أو المساواة التي أقرها الدين وانعكست في سياسة الحكام.

الأصالة

الأصالة مشتقة من "أصل"، والأصل هو ما يقوم على أساسه الشيء، فالأصل هو أساس الشيء، والأصل هو الحسب.

ومفهوم الأصالة للحضارة العربية الإسلامية، يعني ذلك التراث العربي الإسلامي الضخم الذي خلفته الأمة العربية الإسلامية في القرون الوسطى، والذي أصبح عنوان مجدها ورمز مدنيتها، ودليلاً على مبادئها ورقيها وتطورها، وحجة قوية أن الأمة العربية لم توجد من العدم.

وكانت أصالة الحضارة العربية الإسلامية قد منحتها القوة والمنعة،

وساعدت على بقائها واستمرارها، واستطاعت أن توازن بين ما تحتاج إلى نقله عن غيرها من الأمم دون زيادة أو نقص، فكانت تأخذ من الحضارات الأخرى بالقدر اللازم لها بحيث لا يطغى ذلك على شخصيتها وتمتاز الثقافة العربية الإسلامية بقدرتها على الإبداع والابتكار، والاتصال بالثقافات الأخرى، تؤثر فيها وتنقل عنها ما يناسب حاجتها.

الممالك العربية قبل الإسلام

مَعين

قامت دولة معين في شمال اليمن في المنطقة بين نجران وحضرموت، وكانت عاصمتها قرناو التي أطلق عليها فيما بعد اسم معين، وإلى الجنوب من معين كانت دولة سبأ، بينما كانت قتبان في الزاوية الجنوبية من سبأ.

اشتغل سكان معين بالزراعة والتجارة، حيث أدى موقع قرنا التجاري في طريق القوافل الممتدة نحو الشمال دوراً في ازدهار المدينة، حيث امتد نفوذ معين التجاري حتى شمال الحجاز ومعان والبحر المتوسط وإيران، وتفيد النقوش المكتشفة أن المعينيين وصلوا مصر وبعض الجزر اليونانية، وعملوا بتجارة الطيب والبخور. حكم الدولة المعينية ٦٢ ملكاً، وتثبت الأسماء الواردة في النقوش عروبة معين مثل: أب كريب يثع، وال يفع يثع، وحفن ريام، وصدقي وغيرهم. عرفت المدن في فترة الدولة المعينية نظام الحكم المحلي، حيث كان رؤساء القبائل يجتمعون في دار تسمى المزود أو المزواد. ذكرت المصادر مدناً يمنية من الفترة المعينية مثل: معين

وبراقش والبيضاء والسوداء وهرم وكمنا وغيرها.

سبأ:

جاء في النصوص الآشورية من أيام الملك سرجون الثاني (٧٠٥-٧٢١ ق.م) أن الملك السبئي (يثعمر) كان من بين الذين يدفعون الجزية للملك الآشوري.

وتحدث سفر التكوين في التوراة عن العلاقة بين بلقيس ملكة سبأ والملك سليمان، وذكرت سبأ في القرآن الكريم في سورة باسمها، ووصفها القرآن بالجنات، ثم تحدث عن سبب خرابها، قامت دولة سبأ في اليمن، وقد وصلت حدودها إلى حضرموت، وتمكنت من السيطرة على معين وقتبان، ويعتقد أن بلقيس كانت ملكة لإحدى الممالك المتاخمة التابعة لسبأ اليمن.

استمرت دولة سبأ (٩٥٠-١١٥ ق.م)، ويقسم تاريخها -كما يستفاد من الألقاب التي اتخذها رؤساؤها- إلى أربعة أدوار. وقد حمل حكام سبأ في الدور الأول لقب "مكرب". وهي كلمة تعني مقدس، مما يشير إلى الحكم الديني في هذه المرحلة، وفي الدور الثاني اتخذوا لقب "ملك سبأ"، وفي المرحلة الثالثة (سنة ١١٣ ق.م تقريباً) التي تعد بداية للتاريخ الحميري حملوا لقب "ملك سبأ وذو ريدان"، وفي المرحلة الرابعة والأخيرة توسع اللقب فصار "ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها في الجبال وفي التهائم".

توسع نشاط السبئيين فشملت بلادهم قسماً من ساحل البحر الأحمر، وقسماً من الساحل الجنوبي يمتد إلى الحد الداخلي لبلاد قتبان جميعها؛ أي إلى منطقة عدن الحالية.

دب الضعف في دولة سبأ بسبب التنافس التجاري من قبل قتبان وحضرموت وأوسان، وبسبب تمرد القبائل الكبرى عليها مثل: خولان وهمدان وسمعي وشامر وغيرها. وقد نقل السبأيون عاصمتهم إلى مأرب بعد بناء السد المشهور فيها، حيث كانت عاصمتهم الأولى مدينة صراوح.

حمير:

كانت الزراعة مزدهرة في مملكة حمير، واعتمدت على ري الآبار والسدود والأحواض. وما أن انتهى القرن الثاني الميلادي حتى كان الحميريون قد استولوا نهائياً على كل سبأ التي صارت تابعة لهم.

وفي عهد الدولة الحميرية الأولى حدثت الحملة الرومانية بقيادة إيليوس غالوس (سنة ٢٤ق.م) والي مصر الروماني، على اليمن، غير أن هذه الحملة على الرغم من وصولها إلى اليمن لم تنجح بسبب مشاق الطريق، ومقاومة القبائل العربية على طول الطريق إلى اليمن، مما أدى إلى فشل الحملة.

اضطهد ملوك اليمن الذين تهودوا النصارى؛ لأنهم عدّوا النصرانية امتداداً للنفوذ الأجنبي؛ أي الأحباش الذين واصلوا حملاتهم على اليمن.

خضعت اليمن للأحباش، وقد حاول أبرهة الحبشي (سنة ٥٧٠م

تقريباً) احتلال مكة والقضاء على الكعبة، ولكن هذه الحملة فشلت فشلاً ذريعاً، وسببت للأحباش كارثة أشار إليها القرآن الكريم في سورة الفيل بقوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ(٥)" (الفيل: ١-٥).

إلا أن سيف بن ذي يزن استنجد بالفرس الذين طردوا الأحباش، غير أنهم فرضوا سيطرتهم على البلاد منذ عام ٥٧٥ وعرفت فترة الحكم الفرس لليمن (بالابناء) إلى أن دخل اليمن في الإسلام.

الأنباط:

قامت دولة الأنباط في وادي موسى جنوبي الأردن في الموقع المعروف باسم البتراء، ويستدل على عروبة الأنباط من لغتهم العربية القريبة من لغة أهل الحجاز، ومن أسمائهم العربية الواضحة مثل: حارثة، ومعد، وتيم الله، ومالك.

تحولت القبائل البدوية إلى الحضارة والاستقرار، فازدادت ثروة البتراء واتسع نفوذها، واتخذت لها مراكز تجارية في الحجاز مثل (العلا) وفي جنوب فلسطين، وفي شمال الأردن الحالي مثل (أم الجمال) وغيرها.

استطاع الملك عبادة الأول (٨٨-٩٥ ق.م) أن يستولي على جنوب شرقي سوريا بما فيها حوران وجبل الدروز. وفي عهد الملك الحارث الثالث (٦٢-٨٧ ق.م) امتد نفوذ الأنباط إلى الشمال، حيث سيطروا على دمشق،

كما وسعوا نفوذهم باتجاه شمال غرب الجزيرة العربية في عهد ملكهم الحارث الرابع (٤٠م-٩ق.م).

أصبحت بلاد الأنباط جزءاً من المقاطعة العربية (Provincia Arabia) التي أقامها الرومان في سوريا لتحميهم من غارات البدو، وجعلوا عاصمتها بصرى، وذلك في عام ١٠٦م.

تدمر:

تحولت تدمر إلى محطة تجارية على طريق القوافل بين العراق والشام، بسبب توفر المياه فيها.

ذكرت تدمر في التوراه باسم "تمار" أو "تمارا" بمعنى النخيل.

كان نظام الحكم في تدمر ملكياً وراثياً، حيث تناط الحكومة بمجلس الشيوخ ومجلس العشائر، وقد تمتع التدمريون في الفترة الهدريانية بالاستقلال الداخلي، وكان مجلس الشيوخ يقرر الضرائب، كما كان لمدينة تدمر رئيس يتولى إدارة المدينة يساعده عدد من الموظفين، وهناك قائد للجيش وقائد للحامية العسكرية.

اشتهر من ملوك تدمر في القرن الثالث الميلادي (أذينة الثاني). وكان سابور الساساني قد احتل تدمر من الرومان فتمكن أذينة من استرداد تدمر، وامتد سلطانه إلى جميع سوريا فأصبح سيد الشرق الروماني، ولقبه الرومان (ملك الملوك).

خلف أذينة في الحكم ابنه وهب اللات الذي كان صبياً صغيراً،

فتولت الوصاية عليه أمه المشهورة "زنوبيا" التي أدت دوراً بارزاً في تاريخ الشرق الأوسط القديم. وحققت زنوبيا (الزباء) نجاحات عسكرية واسعة بفضل جيشها القوي وقادته الأكفاء. وسعت زنوبيا حدودها حتى شملت مصر، كما يظهر من عملة تدمرية ضربت في الإسكندرية سنة ٢٧٠م.

الغساسنة:

يسمى الغساسنة أزد غسان، حيث تعود أصولهم إلى قبائل الأزد اليمنية كما يستدل من قول شاعرهم حسان بن ثابت:

إما سألت عنا فإنا معشر نجب   الأزد نسبتنا والماء غسان

سيطر الغساسنة على منطقة جنوب سوريا والأردن وفلسطين وعلى المنطقة الواقعة ما بين الجولان واليرموك. سمي الغساسنة بهذا الاسم بسبب نزولهم على ماء اسمه غسان في أرض اليمن وذلك بعد خراب سد مأرب ثم جاؤوا إلى بلاد الشام من اليمن على أثر حادثة سيل العرم. كما تسمى الغساسنة بآل جفنة نسبة إلى أول ملوكهم "جفنة بن عمرو" حسب الروايات العربية.

ساعد الغساسنة بشكل فاعل الرومان في حروبهم ضد الفرس واتباعهم المناذرة، فمنحوا أمراءهم ألقاباً رسمية عالية، واعترفوا لهم ببعض السيادة في المناطق التي يقيمون فيها، والتي طردوا منها قبائل الضجاعمة.

ويبدو أن البيزنطيين نقلوا اعترافهم بالسلطة على بلاد الشام من قبائل الضجاعمة (السليحيين) بعد أن أثبت الغساسنة أنهم الأقوى في حروبهم مع

الضجاعمة.

أما أشهر ملوك الغساسنة فهو الحارث بن جبلة الذي حارب المناذرة في الفترة ما بين ٥٤٤ و ٥٥٤ حيث جرت معركة قرب قنسرين انتصر فيها على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وقتله، وهي الحرب المعروفة باسم يوم حليمة سنة ٥٥٤م.

جاء بعد الحارث ابنه المنذر، وبدأ عهده بالهجوم على المناذرة، وانتصر عليهم في معركة عين أباغ التي تبعد ٣ مراحل عن الحيرة. حقد رجال الدين على المنذر، لأنه كان يؤيد أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، خلافاً لمذهب الدولة الأرثوذكسي.

تمكن حاكم الروم في سوريا (ماغنوس magnus) من القبض على المنذر بحيلة، وأرسله إلى القسطنطينية مع ابنين له، وإحدى نسائه، ثم نفي بعد ذلك إلى صقلية، حيث قضى بقية حياته.

والراجح أن جبلة هو آخر أمراء الغساسنة، وهو الذي أسلم وارتد عن دينه خوفاً من العار، بعد أن لطم الأعرابي الذي وطأ إزاره في أثناء الطواف حول الكعبة.

المناذرة

" اللخميون والتنوخيون " اسم أطلق على مجموعة من القبائل العربية هاجرت من الجنوب نحو الشمال، إلا أنها اتخذت الطريق شرق الربع الخالي، واستقرت في البحرين (تتوخت) لفترة، ثم استمرت في حركتها

نحو الشمال الشرقي، حيث استقرت في منطقة الحيرة والأنبار، كما سموا بالمناذرة.

اتخذ التنوخيون الحيرة عاصمة لهم وهي مدينة قديمة، أما معنى كلمة الحيرة فهي ربما مشتقة من اللفظة السريانية "حرث Hartta" بمعنى المخيم أو المعكسر.

يضرب العرب المثل بحسن هواء الحيرة فقالوا: "لبيتة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربة).

قسم الإخباريون أهل الحيرة العرب إلى ثلاثة أقسام:

١- تنوخ: وكانوا يعملون بالزراعة.

٢- العباد: وهم أهل الحضر والمدن وكانوا نصارى يعبدون الله فسموا بالعباد.

٣- الأحلاف: وقد اشتهرت مدينة الأنبار الذي يذكر الطبري أنها سميت بذلك، لأنه كانت فيها أنابير الطعام التي كانت تسمى بالأهراء، حيث كان كسرى يرزق أصحابه رزقهم منها.

يذكر المؤرخون العرب من ملوكهم الأول مالك بن فهم، ثم عمرو بن فهم، وجذيمة الأبرش (الوضاح) وهو من أشهر ملوك الحيرة، حيث استفاد من سقوط مملكة الحضر وتوسع في المنطقة معتمداً على تحالفه مع الساسانيين، وسيطر على أكثر أرض العراق وامتد إلى خارجها، ويوصف بأنه من أفضل ملوك العرب رأياً وأبعدهم حضارة وأشدهم نكاية، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق وضم إليه العرب وغزا بالجيوش، وتذكر

بعض الروايات أنه قتل على يد الزباء ملكة تدمر انتقاماً لمقتل أبيها، في حين تذكر رواية أخرى أن إحدى بنات الزباء هي التي قتلته غيلة.

انتقل الملك على الحيرة إلى ابن أخت جذيمة وهو عمرو بن عدي الذي تحالف مع الفرس، ومد نفوذه إلى القبائل المجاورة، وقد حكم الحيرة ٥٥ سنة.

تولى الحكم بعد عمرو بن عدي عدد من أبنائه وأحفاده، منهم امرؤ القيس الأول الذي كان أول من تنصر من ملوك الحيرة، وفي عهده كانت الحرب بين الفرس والروم التي اشترك فيها المناذرة. وقد توسع ملكه ليضم جزءاً واسعاً من شمال شرق الجزيرة العربية وبادية الشام.

ومن ملوك اللخميين النعمان الأول الذي يصفه المؤرخون بأنه كان محارباً قوياً ورجلاً حازماً، ينسب إليه بناء قصر الخورنق المشهور الذي بناه سنمار، وبناء قصر الدير، الوارد ذكرهما في كتب الشعر والأدب.

ومن ملوك الحيرة المنذر الأول الذي قوضه يزدجرد، وقد حكم جميع أرض العرب. ومن ملوك الحيرة المنذر بن ماء السماء، وفي زمنه اتبعت الدولة الفارسية المزدكية على يد كسرى قباذ الذي حاول إجبار المنذر بإتباع المزدكية، إلا أنه رفض فعزله قباذ والتجأ إلى القبائل العربية ليعود ملكاً على الحيرة بعد القضاء على قباذ، واشتهر المنذر بن ماء السماء بيوميه: يوم بؤسه، ويوم نعيمه، حيث كان يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه، ويحسن في يوم نعيمه إلى كل من يلقى من الناس ويخلع عليهم.

وجاء بعد المنذر ابنه عمرو بن هند الذي اشتهر عند الشعراء الجاهليين،

حيث كانت مجالسه حافلة بأخبار المناقشات الشعرية، وكانت نهايته على يد الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي الذي قتله وذكر سبب قتله في معلقته، وذلك بسبب إهانة وجهت إلى أمه وهي في ضيافة عمرو بن هند.

ومن ملوك الحيرة النعمان بن المنذر خليفة عمرو بن هند وهو الذي عاش النابغة الذبياني معظم أيامه في كنفه، وقد ساءت العلاقة بينه وبين الفرس، حيث قبض عليه كسرى وسجنه وعين مكانه إياس بن قبيصة الطائي، وفي زمن إياس وقعت معركة ذي قار بين العرب والفرس بسبب عيال النعمان بن المنذر وأمواله التي أودعها عند هانيء بن مسعود أحد زعماء بكر بن وائل، ولما طالب قبيصة بأموال النعمان رفض هانيء تسليم الأمانة، فتدخل كسرى وهدد بني بكر فاختاروا الحرب وعدم الاستسلام، حيث تجمعت بعض القبائل العربية وفي مقدمتها بكر ووقعت معركة ذي قار التي انتصر فيها العرب رغم قلة إمكانياتهم وهزم الفرس وقال عنها الرسول: "هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم"، وكان لنتائجها أثر بالغ في تعزيز ثقة العرب بأنفسهم.

حكم الفرس الحيرة بعد ذلك بشكل مباشر، وظل الأمر كذلك حتى افتتحها المسلمون على يد خالد بن الوليد سنة ٢١هـ.

كندة:

كانت جبال اليمن من جهة حضرموت هي مواطن كندة الأصلية، أما أصلهم فيعود إلى عرب الجنوب، أما تسميتها كندة فهناك من يرى أن ثور بن

عقير الذي ينتسب إلى كهلان بن سبأ، وتنتسب إليه قبيلة كندة وكان يلقب (كندة الملوك)، وهناك من يرى أن كندة موضع سكنوه في حضرموت فنسبوا إليه.

وترى بعض المصادر أن أمهات الأسرة الكندية أميرات من حمير. وذكر ابن الأثير أن ملوك حمير كان يخدمهم أبناء الأشراف، وأن عمرو بن حجر الكندي -سيد كندة- كان يخدم التبع حسان.

كان حجر الملقب آكل المرار أول ملوك كندة، وأول زعيم من زعمائها استطاع توحيد صفوفها بعد تغلبها على قبائل أخرى وتوسيع رقعة أراضيها حتى بلغت حدود مملكة لخم. وقد توفي حجر في بداية القرن السادس الميلادي، وتولى الملك بعده ابنه عمرو الملقب بالمقصور الذي سمي بذلك لأن ملكه قصر عن ملك أبيه. وقد ثارت عليه ربيعة التي أرادت التخلص من حكم كندة لها، وبعد فترة حكم قصيرة لعمرو انتقل الحكم إلى ابنه الحارث، حيث ملك أولاده الأربعة على قبائل معد، إلا أن أبناءه لم يحسنوا معاملة القبائل بل أثقلوها بالأتاوات مما سبب انقضاض هذه القبائل عليهم، فمنهم من قتل ومنهم من هرب إلى بلاده حضرموت.

وفي عهد الحارث بن عمرو وصلت مملكة كندة إلى ذروة مجدها حيث أصبحت اليمامة وأرض بكر بن وائل تابعة لهم، كما تمكن من السيطرة على الحيرة عاصمة اللخميين. وذلك عندما ظهرت المزدكية، وأراد ملك الفرس قباذ فرضها على اللخميين، مما أدى إلى سوء العلاقة بين المنذر بن ماء السماء وقباذ الذي عزل المنذر وعهد إلى الحارث بتولي أمر الحيرة، حتى تولى كسرى أنو شروان الحكم فعاد المنذر إلى مملكته.

ومن ملوك كندة أيضاً حجر بن الحارث بن عمر الذي ثارت عليه قبائل كنانة وقيس وأسد وقتلوه طعناً، حيث أوصى لأبنائه أن يأخذوا بثأره، فأحجموا عن ذلك سوى أصغر أولاده امرىء القيس بن حجر، حيث وجده رسول حجر مع نديم له يشرب الخمر ويلعب بالنرد فأخبره بمقتل أبيه، وكان امرؤ القيس شاعراً طرده أبوه لأنه كان ماجناً فطاف بأحياء العرب مع أصدقائه يشرب الخمر وتغني له القيان، وعندما قتل أبوه كان في أرض اليمن وعندما سمع عن ذلك قال: (ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غداً اليوم خمر وغدا أمر)، وأقسم ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن حتى يثأر لأبيه.

سار امرؤ القيس مع جماعة من تغلب وبكر إلى ديار بني أسد لينتقم منهم، واستطاع أن يثأر منهم إلا أن بني أسد رحلوا فرفض جماعة امرىء القيس ملاحقتهم، ولما يئس منهم رحل إلى قبائل اليمن يطلب المساعدة، فاستعان بالسموأل الذي أكرمه وحماه وتوسط لدى ملك الغساسنة ليكون وسيلته إلى الإمبراطور البيزنطي جستنيان ليساعده بثأره، وصل امرؤ القيس إلى بيزنطة، إلا أن الإمبراطور لم يساعده بل يروى أنه دس له السم بلباس أهداه إياه، حيث سقط جلده وتقرح وتوفي في أنقرة وهو عائد إلى بلاده ودفن هناك.

لقد نبغ في صدر الإسلام عدد من أبناء كندة، منهم الزعيم الحضرمي الأشعث بن قيس الذي اشتهر في أحداث صفين وفتوح الشام والعراق، وكذلك الفيلسوف الذائع الصيت يعقوب بن إسحق الكندي.

مدن الحجاز

مكة:

هناك روايات عدة عن سبب تسمية مكة بهذا الاسم، فرواية تذكر أن السبب لأنها تمك الجبابرة أي تذهب نخوتهم، وهناك رواية لازدحام الناس فيها، ورواية لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في مكان منخفض مثل المكوك، ورواية لأنها تجذب الناس إليها من جميع الأطراف لوجود البيت العتيق، ورواية لأن الناس عندما يحجون إلى الكعبة كانوا يقومون بالتصفير وهم يطوفون، حيث كانوا يعتقدون أن حجهم لا يتم إلا بالمك أي التصفير، وتذكر المصادر أسماء عدة لمكة مثل "بكة" الواردة في القرآن الكريم، و"البيت العتيق" أو "الباسة".

يرتبط بناء مكة بإبراهيم الخليل عليه السلام، وابنه إسماعيل، حيث أودع إبراهيم ولده إسماعيل وأمه هاجر وادي مكة، كما هو واضح في قوله تعالى على لسان إبراهيم: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بوَادٍ غَيرِ ذي زَرعٍ عندَ بَيتكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقيمُوا الصَّلاةَ فَاجعل أَفئدَةً مِنَ النَّاسِ تَهوِى إِلَيهِم وَارزُقهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشكُرُونَ" (إبراهيم: ٣٧).

وجاء في القرآن أيضاً على لسان إبراهيم: "رَبِّ اجعل هَذَا بَلَداً ءَامناً وَارزق أهلَهُ منَ الثَّمَرات" (البقرة: ١٢٦)، وقال تعالى: "وَإِذ يَرفَعُ إِبرَاهِيمُ القَوَاعدَ مِنَ البَيتِ وإسمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ" (البقرة: ١٢٧).

كانت مكة موضعاً للنزاع بين القبائل، فبعد أن كانت جرهم هي

المسيطرة على مكة سيطرت عليها خزاعة، ثم تمكنت قريش من طرد خزاعة بقيادة قصي بن كلاب لتسيطر عليها وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، تولى قصي شؤون مكة ونظم شؤونها، حيث أخذ القرشيون يمارسون التجارة بشكل نشط، مما أدى إلى ازدهار مكة. وكان في مكة سوق داخلي، وكانت هذه الأسواق تعقد مدة لا تقل عن شهرين من شوال وحتى بداية الحج، وقد أدت هذه الأسواق إلى ازدهار مكة وزيارة الناس لها، كان السوق موسماً للبيع والشراء، وإنشاء القصائد، والتمتع بالجواري، وشرب الخمر والدعاية والتبشير وحل الخصومات وإقامة التحالفات، كما أدت هذه الأسواق إلى سيطرة مكة على شمال الجزيرة العربية وتوحيد لغتها. وأصبح العرب ينظرون إلى قريش بعين الاحترام والطاعة، فأطلقوا عليهم "حراس البيت"، و"أهل الله"، إلى غير ذلك من عبارات القداسة والشرف.

وقد امتدت تجارة مكة نحو القبائل والدول الأخرى وعقدت تحالفات معها سميت بالإيلاف حيث وجدت رحلتا الشتاء والصيف، وكانت القوافل المكية ضخمة، وتمثل مكة كلها، ويقودها أكثر أهل مكة مالاً وبضاعة وشجاعة ومكانة، وقد عاد الإيلاف على القبائل بالفوائد. فنشطت التجارة، وازداد مردودها، ويتضح ذلك في سورة قريش في قوله تعالى: "لإِيلَافِ قُرَيْشٍ(١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ(٤)".

علق الجاحظ على نتائج الإيلاف بقوله: "فكان المقيم رابحاً، والمسافر محفوظاً"

وهكذا نجد أن عوالم السيادة تجمعت لقريش قبيل الإسلام، وكان هذا إرهاصاً لتهيئة الأسباب لنجاح الدعوة الإسلامية التي حمل لواءها ابتداء القادة من قريش.

أسس قصي بن كلاب وظائف عدة في مكة وهي:

السقاية والرفادة واللواء والحجابة، والندوة.

وبعد وفاة قصي تنازع أبناؤه على هذه الوظائف، حيث تولى ابنه عبد الدار شؤون مكة، إلا أن عبد مناف نازعه السيادة فانقسمت قريش إلى قسمين: آل عبد الدار الذين ألفوا حلف الأحلاف، وآل عبد مناف بزعامة عبد شمس الذي ألفوا حلف المطيبين، وتقاسم الحلفان السيادة في مكة، بأن اقتسموا الوظائف فأعطيت السقاية والرفادة لبني عبد مناف، والحجابة واللواء لبني عبد الدار.

ثم تزايدت هذه الوظائف لتعم جميع البطون القرشية داخل مكة.

وقد أدى ازدياد نفوذ آل عبد شمس على القبائل إلى ظهور حلف جديد يسمى "حلف الفضول" الذي حضره الرسول ﷺ، وكان لهذا الحلف أثر في نفسه حتى قال الرسول فيه: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أنَّ لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت".

يثرب (المدينة):

كانت يثرب محطة لقوافل التجار، وكانت مشتهرة بالزراعة حيث الماء الوفير والمزارع الواسعة والأرض الرحبة، وكانت واحة حقيقية ذات تربة

صالحة لزراعة النخيل. وبالنظر إلى عدم تجانس السكان واختلاف مصالحهم، وتنافسهم على امتلاك الأراضي الزراعية، فقد ساد يثرب جو من الاختلاف والاقتتال.

كان عرب يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج.

أما سبب تسمية يثرب بهذا الاسم فتذكر الروايات أن أول من سكنها يثرب بن قانية بن مهلائيل بن سام بن نوح.

وكانت بيوت يثرب مبنية بالآجر أو اللبن، وتكثر فيها الآبار التي تخزن فيها المياه لحاجة السكان، ومن أشهر آبارها (بئر رومة) التي كانت لرجل يهودي أمر الرسول بشرائها بعد الهجرة، فاشتراها عثمان بن عفان لتكون لمنافع المسلمين.

يعد رئيس الأسرة هو صاحب السلطان في الأطم، كما كان يعد زعيماً من زعماء القبائل. كان زعماء اليهود يجتمعون في الأطم للبحث والمشاورة ويبرمون فيها العقود والمواثيق. تكلم اليهود العربية وكان لهم شعراؤهم فيها، وإن استعملوا بعض الكلمات العبرية أحياناً.

تفيد المصادر أن اليهود كانوا يرجعون في شؤونهم الدينية والدنيوية إلى رؤساء الدين، كما هو واضح في قوله تعالى: "لَولاَ يَنهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحبَارُ عَن قَولِهِمُ الإِثمَ وَأَكلِهِمُ السُّحتَ لَبِئسَ مَاكَانوا يَصنَعُونَ" (المائدة: ٦٣).

ومع أن اليهود كانوا يدعون العلم والمعرفة، وأنهم أصحاب الكتاب الأول، إلا أنهم وصفوا في القرآن بالبخل والجشع والأنانية، وكذلك عرفوا

في الأوساط العربية.

سكن الأوس والخزرج المدينة، وهم من القبائل الأزدية في اليمن، وسكن اليهود إلى جانبهم، حيث سيطروا على اقتصادها عن طريق الربا، كما سيطروا على بعض مزارع المدينة.

وقع خلاف بين الأوس والخزرج نتيجة لمكائد اليهود، حيث أججوا الخلافات بين القبيلتين، لذلك نجد أحد زعماء الأوس يقول في خضم الاقتتال مع الخزرج: "إن جيرة هؤلاء خير من جوار الثعالب؛ أي اليهود".

الطائف:

تقع الطائف قرب مكة، وترتفع عن سطح البحر نحو ٥٠٠٠ قدم.

والطائف مدينة طيبة الهواء خصبة قريبة من البحر الأحمر ومناخها معتدل، وثمارها لا تختلف عن ثمار الشام، حتى قيل إنها كانت قرية بالشام نقلت إلى الحجاز. زارها بركهارت الرحالة السويسري سنة ١٨١٤ قادماً من جدة، وقال عنها: "لم ير مثلها منذ غادر لبنان".

تمتاز الطائف على مدن الحجاز بأهميتها الزراعية، حيث كانت تزرع فيها أشجار الكرمة وتنتج الأعناب والرمان والموز والبقول وأصنافاً متعددة من الفاكهة والعسل والبطيخ واللوز والتين والزيتون والسفرجل، وكانت الطائف تمد مكة بما تحتاج إليه من المنتجات الزراعية.

واشتهرت الطائف بالكرمة، فقد روي أن سليمان بن عبد الملك لما حج مر بالطائف، فرأى بيادر الزبيب، فقال: ما هذه الحرار؟ فقالوا: ليست

حراراً، ولكنها يبادر الزبيب. ضرب العرب المثل بمناعة الطائف فقال أبو طالب بن عبد المطلب:

منعنا أرضنا من كل حي   كما امتنعت بطائفها ثقيف

أتاهم معشر كي يسلبوهم   فحالت دون ذلكم السيوف

وقد زاد موقع الطائف الطبيعي على طريق القوافل الممتد من جنوب بلاد الحجر من أهميتها كمركز تجاري، فضلاً عن كونها مدينة صناعية، يقول الهمداني: "الطائف مدينة قديمة جاهلية، وهي بلد الدباغ يدفع بها الأهب الطائفية المعروكة".

أما خمر الطائف فقد على الرغم من كثرة الطلب عليه أقل ثمناً من خمور الشام والعراق. وقيل أن المراد بالقريتين في قوله تعالى: "وَقَالُوا لَولاَ نُزِّلَ هَذَا القُرءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَريَتَينِ عَظِيمٍ" (الزخرف: ٣١)، أنهما مكة والطائف.

كانت الطائف من مدن الحجاز القديمة حتى قرنت بمكة، فأصبحت تدانيها في القوة والأهمية، وروي عن الرسول ﷺ قوله: "أول من أشفع له يوم القيامة أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف".

كان يسكن الطائف بنو ثقيف وجماعة من حمير وقريش واليهود وقبائل هوازن، وكان في الطائف بيت يسترونه بالثياب ويهدون له الهدي ويطوفون حوله يسمونه الربة ويعظمونه كتعظيم أهل مكة للكعبة، حيث كان معبد يحجون إليه، وكان به صخرة مربعة تسمى اللات، وكان يقوم على سدانتها جماعة من ثقيف.

افتتح المسلمون الطائف صلحاً، واشترط الرسول على ثقيف الإسلام وأقرهم على ما في أيديهم من أموال وركاز.

الحياة الدينية والاجتماعية والإقتصادية والثقافية للعرب قبل الإسلام

الحياة الدينية

يرجع علمنا بأديان العرب قبل الإسلام إلى موردين:

الأول: مورد إسلامي، وقد جمع ونقد وصنّف في الإسلام.

والثاني: مورد يعود عهده إلى ما قبل الإسلام وأهم مصدر فيه هو الكتابات أو ما يعرف بالنقوش (Inscriptions) العربية الجنوبية.

ظهر عند العرب قبل الإسلام حركة تدعو إلى التوحيد، ونبذ المعتقدات القائمة على عبادة الأصنام والأوثان والتخلص من العادات السيئة، وتزعمها جماعة من العرب منهم أمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة.

الوثنية:

كانت الديانة الغالبة عند العرب قبل الإسلام هي الديانة الوثنية، حيث كانوا يعبدون الأصنام والأوثان، وقد وجد المسلمون حول الكعبة عند فتح مكة ٣٦٠ صنماً، وكان لبني حنيفة صنم من ميس (تمر مخلوط بلبن) يقومون بعبادته.

ذكر القرآن الكريم عدداً من الأصنام والأوثان التي يعبدها العرب

منها: اللات والعزى ومناة وود وسواع وغيرها.

وتشير الروايات إلى أن أول من نشر عبادة الأوثان بين العرب هو عمرو ابن لحي بن حارثة الخزاعي، وأنه جلب الأصنام من الشام.

كان لصنم القبيلة أو مجموعة القبائل سدنة، فمثلاً كان سدنة العزى من بني شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم.

أما عن الكعبة التي صارت أعظم بيوت الأصنام في بلاد العرب، فكان أعظم الآلهة التي في جوفها "هبل". وكان صنم هبل على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى.

لقد نافست بعض القبائل قريشاً التي ارتفع شأنها بين العرب لوجود الكعبة، وبنت لنفسها بيوتاً مقدسة أطلقت عليها اسم الكعبة أحياناً، مثل كعبة سنداد، وبيت رئام وذي الكعبات الذي كانت تقدسه ربيعة في الجاهلية.

اليهودية:

انتشرت اليهودية في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية، ولكن تركز وجودها بشكل واضح في الحجاز (يثرب، خيبر، تيماء) وفي اليمن. غير أن الديانة اليهودية عندما دخلت بلاد العرب لم تأخذ تلك الصورة التي أخذتها الديانة المسيحية في تلك البلاد، فإن الأحبار اليهود لهم يأخذوا على عاتقهم نشر الديانة اليهودية بين العرب، كما فعل المبشرون المسيحيون.

ظهرت الديانة اليهودية في اليمن، ويدعي يهود اليمن أن أجدادهم

جاءوا إلى اليمن منذ عهد سليمان الحكيم .

أما عن كيفية ظهور اليهودية في بلاد الحجاز ، فيبدو أن جموعاً كثيرة من اليهود في القرن الأول والثاني الميلادي أخذت تهاجر إلى منطقة الحجاز ، ويرجح بعض المؤرخين أن هذه الهجرة جاءت بعد دخول الرومان إلى فلسطين ، وطردهم اليهود منها عام ٧٠م .

حاول اليهود نشر تعاليم التوراة في المناطق التي نزلوها من جزيرة العرب ، وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان وجنة ونار ، وقد استطاع اليهود أن يؤثروا في بعض العرب ويهودهم ، فقد قيل أنه تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريضة والنضير .

كما دانت بعض القبائل باليهودية ، ومنها : بنو نمير ، وبنو كنانة ، ومع ذلك لم تستطع اليهودية أن تتغلب على الوثنية في بلاد العرب .

النصرانية:

استطاعت المسيحية أن تنتشر في بلاد العرب على نطاق واسع ، وأخذ المبشرون يجوبون بلاد العرب للتبشير بهذا الدين ، وقد عزز نشاطهم التبشيري هذا النفوذ السياسي للدولتين المسيحيتين المجاورتين لبلاد العرب وهما : مملكة الحبشة في الجنوب ، والامبراطورية الرومانية في الشمال ، وهناك شواهد ثابتة نقلها مؤرخو العرب تؤكد على أن المبشرين المسيحيين لم يحجموا عن الدعوة لدينهم في الحجاز ، فذكر ابن خلدون في تاريخه بعثة

برثلماوس إلى أرض الحجاز والعرب.

ويذكر لويس شيخو أن عدداً من الكهنة والأساقفة والرهبان كانوا يفرون من الاضطهادات التي واجهوها في عهد القياصرة الوثنيين، إذ يتوجهون إلى بلاد العرب، حيث يصعب على القياصرة ملاحقتهم.

وقد كان للمبشرين المسيحيين نشاط واضح من أجل نشر ديانتهم، وبخاصة في أسواق العرب قبل الإسلام.

أما في اليمن فقد كانت نجران مركز النصرانية فيها، وقد تم بناء الكنائس في كل من صنعاء ومأرب ونجران وبعض المدن اليمنية الأخرى، وتشير المصادر التاريخية إلى قيام الملك الحميري (ذو نواس) بارتكاب المذبحة المشهورة باسم مذبحة نجران ضد النصارى فيها، وقد جاء ذكر هذه المذبحة في القرآن الكريم -كما يعتقد بعض المفسرين- قال تعالى: "قُتِلَ أَصحَابُ الأُخدُودِ(٤) النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ(٥) إِذ هُم عَلَيهَا قُعُودٌ" (البروج: ٤-٦).

الحياة الاجتماعية:

كان العرب ينقسمون إلى قسمين: بدو وحضر، أو أهل وبر وأهل مدر، وكان أهل المدن يعيشون في الحواضر والقرى، ويعيشون على الزرع والنخل وتربية الماشية والتجارة، أما أهل الوبر فقد كانوا يعيشون في الصحارى أو على أطرافها على تربية الإبل ليشربوا ألبانها ويأكلوا لحومها وأحياناً يربون الأغنام، وينتقلون بقطعانهم من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلأ، فيقيمون حيث الخصب والرعي، فإذا قل الكلأ ارتحلوا إلى مكان آخر

يكثر فيه العشب والماء.

أما أعراب الضواحي والحواضر فقد كانت ظروفهم تختلف عن هؤلاء، ومجال تفكيرهم أوسع من مجال تفكير الأعراب (سكان الصحراء) بسبب تنوع المعيشة المختلف المتصل بالأرض والقريب من الحضر.

وفي الحواضر نجد أن فكرة الملكية (الامتلاك) الجماعية معروفة بين أفراد الأسرة الواحدة أو مجموعة الأسر؛ أي إننا نشاهد أثر المشاريع الاقتصادية في التماسك الأسري وفق تنظيمات معينة قريبة من تنظيمات الجمعيات الزراعية.

وتعد القبيلة في المجتمعات البدوية الوحدة الاجتماعية والسياسية معاً، والقبيلة جماعة من الناس ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون إلى أصل واحد مشترك، ويرحلون ويقيمون معاً وتربطهم رابطة عصبية الدم.

ولكن هذا لا يعني أن وحدة القبيلة، وعدم اختلاف بطونها أمر دائم، فالاختلاف يحصل بين أبناء القبيلة على موارد العيش وعلى الزعامة، وتقع بينهم الحروب والأيام.

عرف العرب قبل الإسلام التبني، كما يتضح ذلك من قوله تعالى: "ادعُوهُم لِآبَائهم هُوَ أَقْسَطُ عندَ اللّه فإِن لَّم تَعلَمُواْ ءَاباءَهُم فَإِخوَانُكُم فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ" (الأحزاب: ٥).

وكذلك فقد عرف العرب الولاء، والمولى هو العبد المملوك مَنّ عليه صاحبه بأن يفك عبوديته فيعتقه ويصير بذلك مولى لعاتقه، وكانت مكانة الموالي أقل من مكانة الأحرار، وبعد الإسلام سمى العرب من يدخل

الإسلام من غير العرب بالموالي على اعتبار أنهم منوا عليهم بالعتق من الأسر بعد الفتح، وقد دعا الإسلام إلى المساواة، كما يتضح من قول الرسول في خطبة الوداع: "أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى".

وكان لكل قبيلة سيد يعترف الناس بسيادته، وكان لا بد أن يتحلى بالصفات الحميدة: أن يكون شريفاً في أفعاله، حليماً كريماً، بغض النظر عن أعمال الحمقى الجهلة، وأن يتجاهل السفهاء الجاهلين، فلا يغضب ولا يثور، وأن يكظم غيظه كما يقول المثل العربي: احلم تسد.

كان النسب يبدأ بالأب غالباً وأحياناً الأم، حيث يقول الفرد أنه ابن فلان أو من بيت فلان تعبيراً عن الانتساب إلى رئيس ذلك البيت، وقد عرف النسب في اللغة أنه القرابة. والنسب هو أن تذكر الرجل فتقول: هو ابن فلان، وقد يكون من قبل الأم والأب.

وللنسب درجات، فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكنانة، والبطن مثل عبد مناف وبني مخزوم وبني هاشم وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس.

ومن صفات سيد القبيلة أن يحترم الناس مهما كانت منازلهم، وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم وأن يكون ملاذهم، ويجعل بيته بيتاً للجميع ومضيفاً لكل من يفد إليه من كبير أو حقير أو صغير وأن يفتح قلبه للجميع.

كان المجتمع العربي قبل الإسلام ينقسم إلى ثلاث طبقات وهي: الأحرار الصرحاء وهم أبناء القبيلة من نسبها الصريح، وكان لهم كل الحقوق كالحرية وحق إجازة الغير، والموالي، والعبيد.

ومن قضايا الأنساب قضية القحطانيين والعدنانيين، وهذا التقسيم للعرب لا يعتمد على علم الأجناس؛ إذ إن العربي القحطاني الجنوبي يختلف عن القحطاني الشمالي مثل اختلافه عن العدناني، فالشمالي القحطاني أقرب إلى العدناني، وهذا يدل على عدم صحة نظرية النسابين في أصل القبائل العربية، فالنسب القحطاني أو العدناني رمز لصراع قديم أو أحلاف قديمة تحول إلى جدين بجماعتين.

فالنسب هو ارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبصلب جد واحد أعلى، يعتقد أفراد القبيلة أنهم انحدروا من صلبه، لهذا يرجع النسابون نسب كل قبيلة إلى جد أعلى ثم يرجعون أنساب الجدود أي أجداد أقدم حتى يصلوا إلى جدي العرب قحطان وعدنان.

ولا يخرج النسب العربي الأصيل عن أحد الأصول الأربعة: ربيعة، ومضر، ويمن، وقضاعة، ولكن هناك تقسيمات أخرى وردت عند بعض النسابين، فقد أرجع الخليفة العباسي المأمون أصول العرب إلى قيس ويمن وربيعة ومضر، ويمن كناية عن العرب الجنوبيين من همدان وحمير وكندة، وأما قيس وربيعة ومضر فكناية عن تكتلات وتجمعات العرب من غير اليمن، وهناك آراء أخرى في تقسيم العرب إلى أركان وكتل، وهي آراء عربية لم تستمد من التقسيم المألوف للعرب من قحطانيين وعدنانيين، فالحياة في بلاد العرب حياة تكتل، وكان لا بد للقبائل من عقد أحلاف بينها للمحافظة على

نفسها ضد القبائل الكبيرة التي تتطلع إلى استذلالها وأخذ ممتلكاتها، وبهذه الأحلاف حافظت القبائل الضعيفة على حياتها، وحدّت من طمع القبائل الضخمة، وصار يمكن السيطرة على الأمن وتقليل غزو القبائل لبعضها بعضا.

وقد حرص العرب على حفظ أنسابهم، وكان الرجل يلحق بأبيه في نسبه وأحياناً يلحق بأمه، والبيت هو بيت الأب. وكان للأب السلطة العليا في البيت وهو المسؤول عن الأسرة، فالنسب الصريح يكون للأب (فلان بن فلان)، وقد قسم العرب أنفسهم من حيث النسب إلى: صرحاء: وهم المنحدرون من صلب جد واحد. وحلفاء وجيران وموالي وشركاء يلتحقون بالنسب، وقد يلحقون بنسب الصرحاء إذا طالت إقامتهم في القبيلة التي ألحقوا بها فينسون نسبهم ليلتحقوا بنسب من أجاروهم.

ولا يتوارث منصب شيخ القبيلة إلا إذا كان الخلف قد حاز صفات السلف، وقد أجاب قيس بن عاصم لما سئل كيف سودك قومك؟ فقال: "ببذل الندى، وكف الأذى، ونصرة المولى، وتعجيل القرى".

ويفتخر عامر بن الطفيل الذي اختير سيداً بعد وفاة أبيه، ويرد ما يمكن أن يتهم به من الوصول إلى السيادة بالوراثة، إذ يقول:

فإني وإن كنت ابن سيد عامر ... وفارسها المندوب في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكنني أحمي حماها وأتقي ... أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وللشيخ حقوق خاصة في أموال الغنائم ذكرها الشاعر في قوله:

لك المرباع منهـا والصـفـايا وحكمك والنشيطة والفضـول

كانت بعض القبائل تعد المرأة مجلبة للعار، فمنهم من يحرمها من الإرث، ومنهم من كان يقتلها خشية العار والجوع، كما قال تعالى: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨) يَتَوَارَى مِنَ القَومِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَم يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحكُمُونَ" (النحل: ٥٨-٥٩).

وكان الزواج عند العرب قبل الإسلام أنواعاً عدة، فهناك زواج البعولة والذي ينشأ بالخطبة والمهر والعقد وقد سمي بعد الإسلام الزواج الشرعي.

وهناك زواج: المخادنة وهي المصاحبة والخدن هو الصديق أوالصاحب، وزواج الاستبضاع، وزواج وراثة النكاح أو نكاح الضيزن، ونكاح الشغار، ونكاح المسيبات والمتطوقات، وزواج المتع أو الزواج المؤقت.

فزواج المتعة أو الزواج المؤقت هو الذي يعقد لمدة محدودة فيكون موقوتاً وتحل عقدته بإنتهاء المدة المتفق عليها بين الزوج والزوجة، وكان يعقد غالباً بين رجال مسافرين للتجارة ونساء من تلك البلاد. وسمي زواج المتعة لأن القصد به الاستمتاع بالمرأة مدة من الزمن، وكان الأولاد الناتجون من هذا الزواج ينتمون غالباً إلى أمهاتهم أو إلى عشيرتها.

وهناك عادة خطف النساء، ولم تقتصر هذه العادة على العرب بل عرفها اليونان والرومان، حيث تستغيث الفتاة بأهلها فيتظاهرون بالدفاع عنها، وكانت موجودة كذلك عند القبائل الجرمانية والسلافية والقوفاز في

روسيا الصغرى.

وأما الاستبضاع فهو أن تختار الزوجة برضى زوجها رجلاً اشتهر بصفات الفروسية أو التكاثر أو الجمال فتذهب لتستبضع منه فإذا باضعها ذلك الرجل اعتزلها زوجها حتى بيان حملها، وقد كان زواج الاستبضاع موجوداً عند شعوب الترك وفي أسبارطة القديمة وبعض سكان أمريكا الشمالية القدماء.

أمّا ما لحق بالمرأة في الجاهلية من تشويه فمرده إلى أن المجتمع القبلي يفضل الذكر على الأنثى، لأن مجتمع القبيلة يعتمد على المحاربين، وقد يلحق به العار من جهة المرأة في حالة الأسر أو الخروج على رأي الأسرة في الزواج، ولعل جزءاً من هذه الصورة المشوهة للمرأة، إنما هو آت من أولئك النسوة اللواتي يباشرن الزواج بالأسلوب القديم، أي من بنات الهوى أو البغايا والمومسات، وهن في الأغلب من غير العرب.

كان الوأد محصوراً في بعض القبائل، وفي حالات خاصة ذمها القرآن الكريم: "وَإِذَا المؤُدة سُئِلَت(٨) بِأيِّ ذَنب قُتِلَت" (التكوير: ٨-٩).

وحسبنا أن نتذكر مكانة السيدة خديجة زوجة النبي، وجليلة بنت المهلهل التي كان لها غنم يرعاها أخوها زيد الخيل.

وكان الفرسان يفتخرون بالمرأة، وتزداد قيمة المرأة إذا كان إنجابها من الذكور أو من أولادها الفرسان أو الشعراء.

الحياة الاقتصادية:

من منتجات الجزيرة العربية التي كانت تباع في الأسواق الداخلية أو في خارج الجزيرة: السيوف اليمانية التي كانت تصنع في اليمن، وكذلك الدروع السلوقية التي تصنع أيضاً في اليمن، وكانت اليمن تنتج المنسوجات مثل الثياب النجرانية، وكذلك هناك البرود اليمانية والعدنية، وكان قطر تنتج ثيابا حمر وقد لبس الرسول منها.

كان لوقوع اليمن على الطرق التجارية دور في نشوء الممالك فيها وازدهار أوضاعها الاقتصادية، كما أن تغير هذه الطرق أدى إلى سقوط هذه الممالك مما يدل على أهمية التجارة لهذه الدول، وكذلك ساعد الموقع التجاري على نشوء بعض المدن العربية مثل: مكة والبتراء وتدمر. وكانت التجارة تقسم إلى داخلية وخارجية، وكانت بعضها مستوردة وبعضها محلية الإنتاج، أما أهم المستوردات العربية فكانت السيوف المشرفية والأرميية والدمشقية من بلاد الشام، كما استورد العرب الرماح الحلقية من سواحل خليج البصرة.

الحياة الثقافية:

وردت عند العرب قبل الإسلام آراء فلسفية في الأخلاق، حيث يرى طرفة بن العبد أن الغاية من الحياة هي اللذة المادية العاجلة، ولا يلقي بالاً إلى موقف الناس منه في ذلك ما دام يتحمل نتائج سلوكه وحده.

وهناك الحكم العامة الواردة في الشعر الجاهلي، فالحارث بن حلزة

اليشكري يفتخر بأنه يحدس في كل الأمور التي تتطلب المعرفة عن طريق الحواس كما في قوله:

فحبست فيها الركب أحدس في كل الأمـور وكنت ذا حـدسِ

وقد امتاز العرب قبل الإسلام بالفصاحة والخطابة، وقد وصف الجاحظ خطباء الجاهلية بالفصاحة والبلاغة والبيان، إلا أن عدد من يتقنون القراءة والكتابة كان قليلاً. كما امتازوا بتطور تفكيرهم تطوراً إيجابياً سليماً، وعدوّا القيم المعنوية أعلى ما يجاهد للوصول إلى تحقيقها.

واهتم العرب بعلم الأنساب الذي لم يقتصر على البشر، وإنما اهتموا أيضاً بأنساب الخيل والإبل والطيور، حيث تفوقوا على غيرهم من الأمم في هذا المجال. وعرف العرب وسائل الكتابة وهي الأدم والجلود التي يحصلون عليها من الأغنام والحمير والدواب الأخرى، وكتبوا أيضاً على جريد النخل وعلى اللحاف وفي الحجارة البيض الرقاق، وبعضهم كان يدون الوثائق والنصوص على شواهد القبور أو جدران المعابد والسدود.

عرف العرب في اليمن الكتابة، وعرف خطهم باسم المسند، غير أن نفراً قليلاً كان يجيد الكتابة، أما في الشمال فقد تطور الخط النبطي عن الآرامي وانتقل إلى الأنبار ومنها إلى الحيرة ومنها إلى مكة وبه كتبت قريش.

أما بادية العرب فلم تعرف القراءة والكتابة، لذلك وصفت أمة العرب بالأمية، وكذلك سماها القرآن الكريم، قال تعالى: "هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيينَ رَسُولاً مِّنهُم" (الجمعة: ٢). كان العرب من أحفظ الأمَم، حتى أَن واحدهم ليروي عشرات القصائد ومئات الأبيات على أيسر وجه. وكان

العرب يعقدون المجالس لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والمسامرة، أو البحث في الشؤون العامة، وكانوا يسمون المجالس الأندية، ومنها نادي قريش -دار الندوة- الذي أقيم بجوار الكعبة. ومن علوم العرب علم النجوم، وعلم الأنواء والرياح، وكانوا يتوارثونها أباً عن جد.

وأهم علوم العرب هو الشعر، قال رسول الله ﷺ: "إن من الشعر لحكمة"، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر، يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم، مع ما للشعر من عظيم وشرف الأبية، وعز الأنفة وسلطان القدرة".

وكان للعرب معرفة بالطب الإنساني، وكان لهم في الجاهلية أطباء وممن اشتهر منهم: الحرث بن كلدة الثقفي المخضرم، وابنه النضر بن الحارث، وابن خديم الذي ضرب به المثل فقيل: "أطب من خديم".

وصفت العرب الكثير من أمراض الخيل والإبل.

وأطلق اسم المنجم على الذي يضرب بالحصى، ويقرأ بالغيب اعتماداً على حركات النجوم. وللعرب في معرفة الأثر أعاجيب، فهم يعتمدون على ذلك في إظهار الجنايات وفاعليها، وقلما يخطئون. وللعرب شغف وهيام كبيران بجمال اللغة، سواء رأوها مكتوبة أو سمعوها بآذانهم.

المصادر التي تم الاعتماد في انجاز الوحدة الأولى

١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

٢- ابن بطوطة، تحفة الأنظار في عجائب الأمصار.

٣- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب.

٤- ابن سعيد، الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب.

٥- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول.

٦- ابن قتيبة، المعارف.

٧- ابن قتيبة، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني.

٨- ابن الكلبي، الأصنام.

٩- ابن منظور، لسان العرب.

١٠- ابن هشام، السيرة النبوية.

١١- أبو البقاء، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية.

١٢- أبو يوسف، الخراج.

١٣- أحمد، مصطفى، دراسات في تاريخ العرب.

١٤- الأزرقي، أخبار مكة.

١٥- الأصبهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء.

١٦- الآلوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب.

١٧- أحمد، أمين، فجر الإسلام.

١٨- أولندر، جونار، ملوك كندة من بين آكل المرار.

١٩- بافقية، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم.

٢٠- البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.

٢١- البكر، منذر، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، تاريخ الدول الجنوبية في اليمن.

٢٢- البلاذري، فتوح البلدان.

٢٣- البني، عدنان، الفن التدمري.

٢٤- ترمانيني، عبد السلام، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام.

٢٥- الجاحظ، البيان والتبيين.

٢٦- جاد المولى، محمد، أيام العرب في الجاهلة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٢٧- الجارم، محمد نعمان، أديان الغرب في الجاهلية.

٢٨- الجرو أسمهان سعيد، موجز في التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية.

٢٩- حتي، فيليب وزميله، تاريخ العرب (مطول).

٣٠- حسان بن ثابت، الديوان.

٣١- حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.

٣٢- حسن، علي إبراهيم، التاريخ الإسلامي العام، الجاهلية -الدولة العربية- الدولة العباسية.

٣٣- الحموي، معجم البلدان.

٣٤- الخضري، محمد، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية.

٣٥- درادكة، صالح موسى، بحوث في تاريخ العرب قبل الإسلام.

٣٦- درادكة، صالح موسى، العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين.

٣٧- الزبيدي، تاج العروس.

٣٨- زيدان، جرجي، العرب قبل الإسلام.

٣٩- سالم، سيد عبد العزيز، تاريخ العرب في العصر الجاهلي.

٤٠- سالم، عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام.

٤١- الشريف، أحمد إبراهيم، دراسات في الحضارة الإسلامية.

٤٢- الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول.

٤٣- شلبي، أبو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي.

٤٤- الطبري، تاريخ الرسل والملوك.

٤٥- الطويل، توفيق، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية دراسة مقارنة.

٤٦- عاقل، نبيه، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول.

٤٧- عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي، (٦٠٠-٦٦١).

٤٨- عباس، إحسان، تاريخ دولة الأنباط.

٤٩- عبد الحميد، سعد زغلول، في تاريخ العرب قبل الإسلام.

٥٠- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

٥١- علي، جواد، أديان العرب قبل الإسلام.

٥٢- العلي، صالح أحمد، محاضرات في تاريخ العرب.

٥٣- غنيمة، يوسف، نزهة المشتاق في تاريخ بدو العراق.

٥٤- فروخ، عمر، تاريخ الفكر العربي.

٥٥- القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب.

٥٦- كريزول. ك، الآثار الإسلامية الأولى.

٥٧- معروف، ناجي، أصالة الحضارة العربية.

الوحدة الثانية

الإدارة العربية الإسلامية

نظام الحكم[1]

سنحاول في هذا الفصل تناول المظهر السياسي والإداري للدولة الإسلامية عبر عصورها، مركزين بشكل كبير على العصور الأولى (القرون الثلاثة الأولى) لأنها فترة التأسيس، ومعظم الاسبقيات التي وضعت فيها أصبحت أسساً لجميع المظاهر في الدولة الإسلامية، محاولين خلالها التعريف بالاصول اللغوية لتلك المظاهر، ثم توضيح مدلولاتها الاصطلاحية، وتاريخية ظهور المصطلح وتطوره، ثم تناول التطبيقات التاريخية، وتجربة الأمة لكل مظهر، ثم التعرض أخيراً للنظريات الفقهية حول كل مظهر، ونحن في تأخيرنا لمثل تلك النظريات إنما نعمل ذلك لأن معظم النظريات الفقهية اعتمدت في تصورها على التجربة التاريخية للأمة، ولأنها استقرت وتقعدت في عصر لاحق لظهور المظهر نفسه.

وقبل الولوج في هذا البحث لا بد من تقرير أمر هام، وهو أن العديد من الباحثين -وخاصة الأوروبيين- حاولوا نسبة الكثير من المظاهر السياسية والإدارية الإسلامية إلى فترات سابقة للمسلمين، مستندين في ذلك إلى أن العرب لم يعرفوا مثل تلك المظاهر في تاريخهم السابق للإسلام، متناسين أن تاريخ العرب السابق للإسلام فُقدَ معظمه الان، ولكنه كان معروفاً للعرب الأوائل، إضافة إلى أن الأمة استحدثت مظاهرها الإدارية ومؤسساتها من خلال تجربتها احتياجتها وتطورها دون التأثر بغيرها من الأمم السابقة لها. فكلما استجدت الحاجة بفعل تطور المجتمع توجد الأمة مظهراً إدارياً يتناسب مع الحاجة الجديدة، ويتطور هذا المظهر بتطور حاجات المجتمع أو يضمر

---

(١) أعد هذه الوحدة، د. عصام هزايمة.

وينتهي بسبب استغناء الأمة عنه.

١- تنظيم الأمة في المدينة

واجهت الدعوة الإسلامية منذ انطلاقها في مكة، مقاومة عنيفة من قبل أهلها، واتخذت المقاومة القرشية للدعوة الإسلامية اشكالاً وأساليب مختلفة، يمكن اجمالها في مسارين هما:

١- ضرب الدعوة الإسلامية في صميمها، عبر ترويج الافتراءات والادعاءات ضد الإسلام، بتصويره لا يحمل أي مضمون عقائدي، وضرب شخصية حامل الرسالة بالادعاء باختلاقه لرسالته، أو جنونه، أو كهانته، أو حتى قوله الشعر.

٢- تنظيم حملة عنيفة من الاضطهاد ضد معتنقي الإسلام، لحملهم على الارتداد، والحد من انتشاره بين الآخرين عبر تعريفهم بمصير معتنقيه منهم.

وكانت شدة حملة الاضطهاد دافعاً للرسول ﷺ ليأذن لاصحابه بالبحث عن ملجأ آمن لهم، حرصاً عليهم من جهة، وخوفاً على سير الدعوة من جهة أخرى، فكانت الهجرة للحبشة غير ان الهجرة للحبشة لم تقدم للإسلام -كدعوة تهدف إلى اقامة كيان سياسي يضمن لها الحماية ويساعدها على الانتشار- المكان الذي يمكن اتخاذه منطلقاً لها، خاصة ان الاسلام كان في تلك المرحلة موجهاً للعرب، مما يقتضي اقامة مثل هذا الكيان داخل الأرض العربية، الأمر الذي قد يفسر احجام الرسول ﷺعن الهجرة إلى الحبشة. في

ذات الوقت الذي بدا واضحاً فيه لحامل الرسالة استحالة اقامة مثل هذا الكيان في مكة، خاصة بعد اشتداد حملة الاضطهاد حتى أصبحت تمس شخصه، خاصة بعد وفاة عمه أبي طالب، فبدأ الرسول ﷺ يفكر جدياً في نقل الدعوة إلى أحد اجزاء الجزيرة العربية، فقصد الطائف، إلا أنه جوبه بمقاومة عنيفة، فعمل على استغلال قدسية مكة، وتوافد القبائل العربية عليها سنوياً في موسم الحج، ليبلغها رسالة الإسلام، ويتفق معها على اتخاذ أرضها مركزاً لانطلاق الدعوة، فيما عرف بالمصادر الإسلامية بعرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل.

يبدو أن بعض القبائل لمحت ما يمكن أن تستفيده من هجرة الرسول وأصحابه إليها، غير أنها طرحت ومنذ بداية مفاوضاتها معه مسألة وراثته، إذا اشترطت عليه أن تؤول السلطة بعده إلى أفرادها، الأمر الذي رفضه الرسول ﷺ بشدة، ويبدو أن قريشاً شعرت بالخطر الذي يتهددها بنجاح الرسول ﷺ في اتصالاته هذه مع القبائل العربية، فنظمت مجموعة من زعمائها (عرفوا بالمقتسمين) هدفهم إحباط مساعي الرسول ﷺ، وأخضع الرسول إلى مراقبة شديدة، الأمر الذي دفعه لاتخاذ السريّة طابعاً لاتصالاته مع القبائل المتوافدة إلى مكة، وهو ما بدا واضحاً في اتصالاته مع أهل يثرب (المدينة المنورة).

كللت مساعي الرسول ﷺ بالنجاح عندما اتصل ببعض رجالات يثرب، وبدأ الأمر يسير لمصلحة الطرفين معاً، فأهل المدينة -الذين تفتك بهم الحروب القبلية بين الأوس والخزرج، وحلف كل منهما مع اليهود- ينشدون الاستقرار، واحلال الأمن والسلام في ربوع يثرب، وعدم تفرد احدى

قبائلها بالسيادة فيها، وإن كان هناك توجه لتنصيب عبد الله بن أبي زعيماً لها، غير ان ذلك التوجه لم تتحدد معالمه بعد، في حين وجد الرسول ﷺ فيها المركز المنشود لبناء الدولة، وفي أهلها الأنصار الذين يمكن من خلالهم تحقيق هدف الدعوة بالانتشار.

وتم في بيعة العقبة الثانية وضع الأسس الرئيسة في العلاقة المستقبلية بين الرسول ﷺ والمهاجرين من جهة، وبين الأنصار من جهة أخرى، إذ تعهد الأنصار بحماية الرسول ﷺ والمهاجرين من كل خطر، وطاعة الرسول ﷺ المطلقة، وقطع الاحلاف بينهم وبين اليهود، فيما تعهد لهم الرسول ﷺ بأن لا يتركهم إذا أظهره الله، وان لا يعود إلى قومه، ويلاحظ أن الانصار لم يشترطوا تولي الزعامة بعد الرسول ﷺ، إن لم يكونوا قد اعترفوا ضمنياً بحق المهاجرين فيها، إذ كان من الشروط التي التزموا بها: "الا ننازع الأمر أهله" [سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٣].

فتحت بيعة العقبة المجال امام المسلمين في مكة للهجرة إلى المدينة، وبدأ الرسول ﷺ يجهز اموره للحاق بهم، ويبدو ان قريشاً شعرت بذلك فأرادوا قتله، إلا ان الرسول ﷺ مضى إلى المدينة، ولم تتمكن حملة المطاردة التي اعدتها قريش من منعه من ذلك.

وصل الرسول ﷺ إلى المدينة ليباشر بوضع الأسس الأولى للدولة الإسلامية، فقد كانت الدعوة في مكة تركز على الجانب العقائدي الأخلاقي، ولم تتح لها الفرصة لوضع ترتيب سياسي أو إداري، ومع تأكيد الرسول ﷺ فور وصوله إلى المدينة على الجانب العقائدي الديني في الإسلام، إلا انه شرع في وضع أسس التنظيم السياسي والإداري في المدينة،

فكان أول عمل قام به الشروع في بناء المسجد، الذي مَثّل إلى جانب كونه مركزاً للعبادة، مركز إدارة الرسول ﷺ في المدينة، ومحل مشاورات المسلمين واجتماعهم، وكانت المسائل الأساسية التي تنتظر منه البت فيها وضع المهاجرين في المدينة، وتنظيم أمور الجماعة الإسلامية الوليدة، وتنظيم العلاقة بين المسلمين وبين أهالي المدينة، اليهود على وجه الخصوص. إضافة إلى وضع الأسس الأولى للدور الجديد المرتقب للمدينة كونها مركز الدولة الناشئة ومنطلق الدعوة.

كان وضع المهاجرين في المدينة يستدعي علاجاً فورياً، إذ كانوا في جلهم ممن خرج مهاجراً بنفسه إلى المدينة، مخلفاً كل ما يملك في مكة، ولم يكن لاغلبهم قدرة على التملك في المدينة، عدا عن الاملاك أصلاً، وكان الفقر السمة الغالبة على معظمهم، وفاقم من مشكلة المهاجرين انهم كانوا في اغلبهم من محترفي التجارة، فلم يكن لهم دراية بالزراعة والصناعة، عصبا الاقتصاد في المدينة، كما كان معظم المهاجرين حتى قدوم الرسول ﷺ قد نزلوا في قباء، ولم يسكن المدينة إلا من كانت تربطه علاقات النسب او الصداقة مع البيوتات الانصارية. وكانت مسألة توطين المهاجرين ودمجهم في مجتمع المدينة مسألة بالغة الاهمية، رغم ان أعدادهم لم تكن كبيرة في البداية، الا انها تشكل الأساس لكل من يهاجر إلى المدينة ممن يعتنق الإسلام من العرب، إذ كانت الهجرة إلى المدينة حتى فتح مكة مسألة واجبة على المؤمن الجديد، كما أن أي اجراء يتخذ بحق المهاجرين يمثل في نظر الكثيرين من غير المسلمين دلالة قوية على صدق توجهات الإسلام نحو تحقيق المجتمع المتكامل الذي يسوده الوئام والتعاون، والذي كان ينادي به. أضف إلى ذلك

أن أي اجراء يتخذه الرسول ﷺ إزاء المهاجرين، هو بمثابة اختبار حقيقي لمدى سلطته وزعامته على المسلمين من أهل المدينة، الأمر الذي سيترتب عليه أسس العلاقة المستقبلية في المدينة بين الطرفين.

كان نظام "الحلف" النموذج السائد بين القبائل العربية الذي تنتظم على أساسه العلاقة بين أفراد قبيلة أو قبائل لاجئين إلى قبيلة أخرى، والذي تَضْمَنُ بموجبه القبيلة المحالفة أمن وحماية الحليف، غير أن الحليف، في العادة، يكون أقل درجة في التنظيم القبلي من المحالف، كما أنه لا يحق له، في الغالب، الترأس على مجتمعه الجديد، ويصبح الحليف سائراً في فلك المحالف، ويلتزم بسياساته مع الآخرين، دون أن يملك حق توجيه سياسة المحالف، كما ان الحلف يخلو عادة من أي تبعات اقتصادية على المحالف تجاه الحليف.

لم يكن الرسول ﷺ يرغب بتطبيق هذا النموذج في العلاقة بين المهاجرين وأهل المدينة، كونه لا يحقق أهداف المجتمع الإسلامي المزمع تشكيله، من ظهور "للطبقيّة" فيه، كما انه لا يقدم دليلاً لصدق توجهات الإسلام نحو المساواة والتكافل والتعاون، إضافة إلى انه كان عازماً على السير بالمجتمع الجديد ضمن سياسة جديدة تهدف إلى نشر الإسلام، واقامة دولته، مع عدم تجريد المهاجرين من حقهم بالسلطة بعده، وبالتالي على الأنصار دعمه ومساندته في ذلك، إضافة إلى حاجته إلى مشاركة الأنصار له في اعباء توطين واعالة المهاجرين.

ولتلافي كل هذه العيوب في نظام الحلف، استحدث الرسول ﷺ نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، الذي تم بموجبه المؤاخاة بين كل مهاجري

وأحد الأنصار، وبموجب هذا التآخي أصبح المهاجري مسؤولية الانصاري، فشاركه مسكنه، ومورد رزقه، بل أن نظام المؤاخاة أصبح مقدماً على رابطة الدم، إذ كان المتآخين يرثان بعضهما دون أولي ارحامهما[1]، إضافة إلى ان الانصاري سيكفل أمن المهاجري في المدينة في بداية انخراطه في المجتمع الجديد.

حقق نظام التآخي ما هدف إليه الرسول ﷺ، إذا أصبح المهاجرون والانصار اخوة في العقيدة، اخوّة مقدمة على اخوّة الدم، الأمر الذي قدم نموذجاً راقياً للمجتمع الإسلامي للعلاقة المتميزة بالتساوي التام بين افراده، سواء اكان ذلك في الحقوق أو الواجبات، فليس هناك من هو ارفع درجة من الآخر في مجتمع المدينة الإسلامية. لا المهاجري ولا الانصاري. وقدم الإسلام بذلك دليلاً قوياً على توجهه لاحلال رابطة العقيدة محل رابطة الدم في علاقات معتنقيه. وإضافة إلى تحقيق المهاجرين لأمنهم الشخصي عند أول انخراطهم في المدينة، فإن الرسول ﷺ ضمن عدم انقاص مكانتهم لصالح الانصار في مسألة تولي السلطة في المدينة بعد وفاته.

ولم يقم الانصار بقبول اخوانهم الجدد "المهاجرين" وتقديم كل عون مادي لهم فحسب، بل انهم قاموا باعطاء الرسول ﷺ حق التصرف باراضي المدينة التي لم يستعملوها، الأمر الذي مكنه من منح بعض أراضيها لبعض المهاجرين، وجعل تحت يده أرضاً قادرةً على استيعاب وتوطين المهاجرين الجدد، وبذل الانصار كل ما في وسعهم لتوطين واعالة المهاجرين بانكار

---

(١) استمر هذا الأمر حتى نزلت الآية القرآنية [وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله] [الأنفال: ٧٥].

عجيب للنفس، مدحه الله تعالى بقوله: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة). [الحشر: ٩].

كما كان للمؤاخاة جانب نفسي، إذ يسرت للمهاجرين صلة قوية بأهل المدينة، وخففت من عزلتهم وشعورهم بالغربة، ومهدت السبيل لانشاء علاقات وثيقة مع أهل المدينة بيسر وسهولة.

وبعد أن حل الرسول ﷺ وضع المهاجرين الصعب، اتجه لتنظيم علاقة المجتمع الإسلامي الجديد بعضه ببعض، وعلاقة المسلمين باليهود في المدينة. وقد جاء هذا التنظيم فيما عرف باسم "الصحيفة"، وكانت الصحيفة خطوة مفصلية في توجهات الرسول ﷺ في رسم أطر العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين في المدينة، وخطوة في بسط سيطرته على المدينة، لتوجيهها بعد ذلك من اجل تحقيق مصلحة الإسلام في النمو والانتشار[1].

وترتب على الصحيفة عدة أمور بالغة الأهمية، نجملها فيما يلي:

١- اعتبار الرسول ﷺ زعيم المدينة الاوحد، على المسلمين واليهود على حد سواء.

٢- اعتبار المسلمين امة واحدة متميزة عن غيرها من الأمم والجماعات، تربط العقيدة بين أفرادها رابطة اقوى من رابطة الدم، وهم متساوون في الحقوق والواجبات.

٣- اعتبار الأمة أمة قابلة للنمو والتوسع، بالجهاد واعتناق غير المسلمين للإسلام، مع الإشارة إلى ان حقوق وواجبات الجدد كالسابقين تماماً.

---

(١) انظر بنود الصحيفة في نهاية هذه الوحدة.

٤- إلغاء القبليّة لصالح الدولة، واعتبار القبيلة وحدة اجتماعية في المجتمع تقدم التكافل الاجتماعي لأفرادها، فيما تولت الدولة السلطة التي تكفل حماية الأفراد، وتحقيق الأمن والنظام، واعادة الحقوق إلى اصحابها، وحرية التعبد.

٥- تطبيق الشريعة الإسلامية على أفراد الأمة، وغيرهم من سكانها، واستبعاد أي عرف قبلي يتخذ طابع القانون.

٦- ضمان الأمن الداخلي للمدينة، وربط اليهود بمعاهدة تفرض عليهم تقديم العون للمسلمين، وعدم التحالف مع اعدائهم.

٧- تهيئة الأمة الجديدة للاضطلاع بمسؤولياتها في حماية العقيدة، والعمل على نشرها.

٨- السيادة في المجتمع الإسلامي لله وحده، عبر تطبيق شرعه، والالتزام بنواهيه، وممارسة مباحاته.

الخلافة

الخلافة مؤسسة إسلامية خالصة، تتميز بخصائص إسلامية مستمدة من الشريعة الإسلامية، وهي أعلى سلطة في الدولة الإسلامية، لمتوليها صلاحيات كبيرة سواء أكانت تلك الصلاحيات دينية أم دنيوية. وقد نمت تلك المؤسسة نمواً تدريجياً حسب الظروف التي مرت بها عبر مختلف العصور الإسلامية، وخلال تلك العصور كان للخلافة جانبان تطبيقي عملي، ونظري يتمثل في نظريات الفقهاء التي وضعت بعد تأسيس الدولة

الإسلامية وبعد تطور نظام الخلافة، وكانت النظريات متأثرة بشكل واضح بما جرى تطبيقه على أرض الواقع، فكانت في كثير من جوانبها انعكاساً لذلك الواقع.

الخلافة لغة:

الخلافة في الأصل مصدر خلف، يقال: خلفه في قومه يخلفه خلافة فهو خليفة، ومنه قوله تعالى: (وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي) [الاعراف ١٤٢] وخلفته أي جئت بعده. والخليفة: الذي يستخلف ممن قبله، والجمع خلائف وخلفاء.

الخلافة اصطلاحاً:

إمارة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعرفها ابن خلدون بقوله: إنها حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به.

ظهور منصب الخلافة:

عرف العرب القبليون منصب الزعامة في تاريخهم قبل الإسلام، وكانت لهم مجموعة من التقاليد السياسية فحواها أن القبيلة هي أساس النظام، وكان لكل قبيلة مجلس شورى يتكون من المتنفذين ومن رؤساء العوائل فيها، وكان لمجلسها حق انتخاب شيخ القبيلة الذي يجب ان تتوفر فيه بعض الشروط كما أن له بعض الحقوق أيضاً، ولعل أهم الشروط:

السن، فيجب أن يراعى في اختيار شيخ القبيلة تقدم السن، وكذلك يجب أن تتوفر في الشيخ الشجاعة والكرم، والحلم، والحنكة والتجربة، ولم يكن للوراثة دور في المشيخة لأن الظروف المحيطة بالقبائل تحتم عليها أن يتولى زعامتها أقدر أفرادها وأكثرهم حنكة وتجربة. لهذا كان انتقال الزعامة من الشيخ إلى ابنه مسألة نادرة في ذلك المجتمع، ولعل أوضح الأدلة عليها قول عامر بن الطفيل:

فما سودتني عامر عن وراثة | أبى الله أن أسمو بأمٍ ولا أب

وتمثلت الشروط الواجب توافرها في الشيخ في قصيدة لقيط بن يعمر الإيادي، ومنها:

وقلدوا أمركم لله دركم | رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده | ولا إذا هم مكروه به خشعا
مُسَهَّد النوم إلاَّ ريث يبعثه | هم يكاد حشاه يقطع الضلعا
فليس يشغله مال يثمره | عنكم ولا ولد يبقى له الرفعا
حتى استمرت على شزر مريرته | مستحكم السن لاقحماً ولا ضرعا.

أما مكة فكان بها نوع من التنظيم السياسي الواضح المعالم، فالسلطة كانت بيد الملأ وهو مجلس يتكون من زعماء الأفخاذ التي تنقسم إليها قبيلة قريش، بالإضافة لأصحاب القوة المالية من التجار، وكان ذلك الملأ يتكون من كبار السن فقط، فلا يدخله إلاَّ من بلغ الأربعين، وخصص لاجتماع الملأ دار الندوة التي أسسها قصي، وكان للملأ سلطات نافذة في مكة.

هذا، ومع ظهور الإسلام كان واضحاً أن الرسول ﷺ زعيم الأمة سواء في مكة أو المدينة إلاَّ أنه في مكة كان زعيم فئة منها وهم المؤمنون، أما في المدينة، فهو زعيم المدينة كلها من الناحية الدينية والسياسية على المسلمين منهم وغير المسلمين، ورسخ تلك الزعامة من خلال الصحيفة، فقد تضمنت الصحيفة النقاط التالية: "إنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد".

وهكذا أصبح محمد ﷺ زعيم الأمة الذي لا يخالف قوله، لقوله تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) [النساء: ٦٥].

نشأة الخلافة(١):

لم يقر الرسول ﷺ شكلاً معيناً لنظام الحكم من بعده، ولكنه أدخل بعض المبادىء العامة منها: أنه فرض الولاء للأمة محل الولاء للقبيلة، وجعل رابطة الإيمان أساس النظام الاجتماعي (إنما المؤمنين أخوة) وأكد على حرية الفرد وعلى المساواة وعلى الشورى. وقد نتج عن هذه المبادىء وعن حاجة المسلمين نظام الخلافة [ناجي معروف، عبد العزيز الدوري، موجز تاريخ الحضارة، ص١٤]، فالخلافة مؤسسة سياسية إسلامية عليا، نشأت بشكل تلقائي بعد وفاة الرسول ﷺ، لملء الفراغ السياسي والإداري الذي دحث بعد وفاته. فهي حكم رئاسي للدولة الإسلامية مقيداً بالشرع، أو كما

(١) أعد هذا العنوان حتى نهاية الخلافة الراشدة د. غيداء خزنة كاتبي.

يقول الماوردي، صاحب كتاب الأحكام السلطانية "لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا" [الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٥]. وقد تمت الخلافة بصورة طبيعية في الظروف التي وجدت فيها.

طرق اختيار الخليفة في أيام الراشدين:

١. الاختيار القرشي كما حدث بالنسبة للخليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة.

بعد انتشار خبر وفاة الرسول ﷺ برز خطان للتنافس، الأول قرشي قبلي والثاني قرشي/ قرشي، وقد تمثل الخط الأول بمبادرة الأنصار وعلى رأسهم سعد بن عبادة (رئيس الخزرج) إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة، معلنين عن حقهم في الخلافة، لأنهم هم الذين حموا الرسول ﷺ وأصحابه، وأعزوا دينه، ودانت بأسيافهم له العرب [الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ٢١٨، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، م١ ص١٢٧-١٢٨].

وبرز في الخط الثاني فئتان من المهاجرين، الفئة الأولى وهم أقرباء الرسول ﷺ من بني هاشم ومن أيدهم، والفئة الثانية وتمثل سائر المهاجرين.

وأجمعت الفئة الأولى على ترشيح علي بن أبي طالب، ويرون أن تصير الرئاسة التي كانت للنبي ﷺ في بيته [البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، ص٥٨٣، وانظر ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص ٢٤٦، ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، م١، ص ٥٣]. أمّا سائر المهاجرين وعلى رأسهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فقد اتجهوا إلى سقيفة بني

ساعدة [اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ١٢٣، ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، ج١، ص٥]، وهناك دارت مناقشات بين الطرفين (المهاجرين والأنصار) حول من يصلح للخلافة وولاية شؤون المسلمين.

وأخذ أبوبكر زمام المبادرة، فأثنى على الأنصار "لقد علمتم أن رسول الله قال: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادي الأنصار" [الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢٠٣].

وأكّد فضل المهاجرين "... فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والايمان به، والمؤاساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم... فهم أول من عَبَدَ الله في الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك إلاّ ظالم" [المصدر نفسه، ج٣، ص ٢١٩-٢٢٠، الجاحظ، البيان، ج٣، ص ٢٩٧-٢٩٨]. ثم نوّه بمنزلة قريش بين القبائل، موضحاً أن الأمر لايستقيم إلاّ بها، فقال: "وإن العرب لاتعرف هذا الأمر إلاّ لهذا الحي من قريش، وهم أوسط العرب داراً ونسباً" [الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢٠٥-٢٠٦].

ونوّه عمر بدوره بمكان قريش بين العرب لقربها من الرسول، فقال: والله لاترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيرهم ولكن العرب لاتمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورهم منهم..." [المصدر نفسه، ج٣، ص٢٢٠].

واختلف موقف الأنصار، فانقسموا إلى فئتين معارضة للمهاجرين وأخرى مؤيدة لهم. أما الفئة المعارضة، فقد دعت الأنصار إلى المبادرة بتولي زمام الأور، "لأنهم أهل العز والثروة" وأولوا العدد والمنعة

والتجربة" . كما دعت إلى توحيد الرأي لضمان حق الأنصار في الحكم [المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٢٠].

أمّا الفئة المؤيدة للمهاجرين، فكانت على قناعة تامة بحق المهاجرين في الخلافة [المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٢١]، ويبدو أن هذا الموقف ساعد على تسارع الأحداث لصالح المهاجرين. فاقترح أبوبكر ترشيح عمر أو أبي عبيدة لولاية شؤون المسلمين، فأبيا ذلك، وقدما أبا بكر لأنه "أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين . . . " ثم قالا: "فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك، ابسط يدك نبايعك" [الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٢٢١، وانظر: النسائي، سنن، ج٢، ص ٧٥]، فبايعه من حضر من المهاجرين والأنصار في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول سنة ١١هـ/ ٦٣٢م [ابن إسحاق، السيرة، ج٤، ص ٦٥٢-٦٥٣، الطبري، تاريخ، ج٣، ص ٥٥] وتدعى بيعة السقيفة لأبي بكر البيعة الخاصة، والبيعة في المسجد "البيعة العامة" فصار وجود البيعتين الخاصة والعامة من تقاليد الخلافة [ناجي معروف، عبد العزيز الدوري، موجز تاريخ الحضارة، ص ١٦]. وتسمى أبو بكر "بخليفة رسول الله" أي يسير على سنة الرسول ﷺ في الحكم.

وأوضح في أول خطاب له بعد البيعة سياسته في الحكم، فبين أنه مسؤول أمام المسلمين، وأن أساس حكمه العدل، والمساواة بين المسلمين أمام القضاء، وأن الجهاد في سبيل الإسلام ركن الدولة. وأن دستور المسلمين هو كلام الله وسنة رسوله، وطلب إلى الأمة أن تعينه بالمشورة

والتأييد [البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، ص ٥٩١].

٢- العهد إلى عمر بن الخطاب:

عهد أبو بكر إلى عمر بن لخطاب من بعده خوفاً من وقوع الفتنة بعد وفاته. ويتماشى العهد مع العرف العربي القديم الذي يجيز للحاكم إذا حضره الموت أن يعين خلفاً له. إلاّ أن أبا بكر خرج عن إطار المفاهيم القبلية الضيّقة إلى مفاهيم المبادىء الإسلامية الواسعة فلم يول ذا قرابة إكراماً لقرابته، أو إرضاءً لعشيرة ينتمي إليها [جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص ١٩٤]، بل جعل الأهلية هي المعيار في هذا الاختيار، لتجنيب الأمة مخاطر الفتنة والانقسام، فقال أبو بكر "اللهم إني لم أرد بذلك إلاّ صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به . . . " [ابن سعد الطبقات، ج٣، ص ٢٠٠٠، ابن الجوزي، مناقب امير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص ٥٥].

وشاور أبو بكر بعض الصحابة، فجاءت ردود فعلهم مختلفة بين مؤيد لهذا الاختيار أو معارض له. وانحصرت المعارضة بعدد من المهاجرين والأنصار، وركزت معارضتها على جنب واحد من شخصية عمر وهو الشدة [البلاذري، أنساب الأشراف، الشيخان، ص ١٦٤، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، م١، ص ٥٥]. ولكن يظهر أن قناعة أبي بكر بعمر كانت ثابتة، إذ جاء في كتاب العهد لعمر "إني أستخلفت عليكم بعدي عمر ابن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرىء ما

اكتسب من الإثم، والخير أردت ولا أعلم الغيب . . . " [ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص ٢٠٠٠، ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص١٤-١٥]. ثم أمر أن تُقرأ وصيته على الأمة فأقروا بها جميعاً.

واستخلف عمر بن الخطاب في أواخر جمادي الآخرة، سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م و اتخذ لقب خليفة خليفة رسول الله، مشيراً إلى أنه يسير على سياسة أبي بكر، ثم سمي بأمير المؤمنين، وهذا اللقب يؤكد على مركز الخليفة بصفته القائد الأعلى للأمة ورئيس الإدارة [ناجي معروف، عبد العزيز الدوري، موجز تاريخ الحضارة، ص ١٧].

٣. تنظيم مجلس الشورى واختيار عثمان بن عفان:

أُثيرت مشكلة الحكم في حياة عمر، وطُلب إليه أن يستخلف فأبى ذلك [ابن سعد الطبقات، ج٣، ص٦١، عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، ص ٣٣]، ولم يستقر على فكرة الاستخلاف حتى طعنه، فألح عليه المهاجرون أن يستخلف فتردد وقال "إن أستخلف فقد أستخلف من هو خير مني، وأن أترك فقد ترك من هو خير مني" [البلاذري، أنساب، الشيخان، ص ٣٤٩].

وتوصل إلى جعل الأمر شورى في ستة من زعماء الصحابة -جميعهم من المهاجرين- مضى الرسول ﷺ وهو عنهم راض: علي بن أبي طالب وعثمان ابن عفان، عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله [البلاذري، أنساب، الشيخان، ص ٣٥٠-٣٥١،

الطبري، تاريخ، ج٤، ص ١٩٢، ٢٢٨.

وكان هذا التدبير وليد ظرفه، إذ لاحظ الخليفة أن هؤلاء الستة هم رؤساء الناس وقادتهم، فعلي بن أبي طالب من بني هاشم، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف زعيما بني زهرة، وعثمان شيخ بني أمية، وطلحة سيد بني تيم، والزبير سيد بني أسد [ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص ٦١، الطبري، تاريخ، ج٤، ص ٢٢٨].

وهكذا اتجه عمر إلى مبدأ الشورى في الحكم، وأقام مجلساً سياسياً ينسجم مع مبادىء الشورى في الإسلام، ويعود في أصوله إلى التراث السياسي العربي الذي يتمثل في مجلس شورى القبيلة. وقد عرف عرب الجنوب مجالس الشورى كما عرفتها القبائل الشمالية، ولعل أبرزها الملأ في مكة [جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص ٢٢٦، ٢٢٩، عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، ص ١٤، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص ٤٩].

واهتم عمر بتنظيم مجلس الشورى تجنباً للخلاف. فحدد مدة التشاور بثلاثة أيام، ثم بيّن طريقة الانتخاب حيث جعل ترتيب العدد في المجلس، وما يتبعه من اتفاق الأعضاء أو اختلافهم، سبباً لإجماع المجلس على واحد منهم «فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخوا رأسه... وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجال منهم وثلاثة رجال منهم فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف» [ابن سعد، الطبقات،

ج٣، ص ٦١ ، البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤ ، ج١ ، ص ٥٠٣ ، الطبري، تاريخ، ج٤، ص ١٩٢ ، ٢٢٩]. وهنا يظهر ملاحظة الطموح كذلك الاحتياط لاحتمال الخلاف.

وطالت المشاورات، فعهد المرشحون إلى عبد الرحمن بن عوف، وبعد أن أسقط حقه في الخلافة، أن يختار أحدهم [البلاذري، أنساب، ق٤، ج١، ص ٥٠٧، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص ٢٣١-٢٣٠].

وحصلت تطورات سريعة جعل مجال الاختيار محصوراً بين اثنين من رجال الشورى هما: علي وعثمان [ابن أبي الحديد، كتاب شرح نهج البلاغة، م١، ص٦٣، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص ٢٣١-٢٣٠]. ولاحظ عبد الرحمن بن عوف التوجه إلى عثمان، بعد استطلاعه الآراء في المدينة، كما لاحظ إجماع ضعفاء الناس ورعاعهم على عثمان أيضاً [الطبري، تاريخ، ج٤، ص ٢٣١، مؤلف مجهول، الإمامة والسياسة، ص ٢٥-٢٦]. وربما كان للدعاية الواسعة التي بثها الأمويون لعثمان كذلك السن أثر هام في ذلك" [الطبري، تاريخ، ج٤، ص ٢٣١، عبد العزيز الدور، النظم الإسلامية، ص ٣٢-٣٣.

وحار عبد الرحمن في كيفية حسم الأمر بين علي وعثمان، واهتدى بأن جعل العمل بسيرة الله ورسوله وسيرة الخليفتين من بعده أساساً للترشيح [مؤلف مجهول، الإمامة والسياسة، ص ٢٦]، فقال علي "أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي" [الطبري، تاريخ، ج٤، ص ٢٣٢، ٢٣٨، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، عثمان بن عفان، ص ١٨٥]. ثم قال

"أجتهد برأيي" [ابن أبي الحديد، كتاب شرح نهج البلاغة، م١، ص ٦٥]. أما عثمان فأعلن موافقته قائلاً "اللهم نعم". وفي رواية أخرى أنه قال "... أبايعك إن وليتني هذا الأمر على سنة الله ورسوله وميثاقه وسنة الماضين قبلي..." [الطبري، تاريخ، ج٤ ص٢٣٣، ٢٣٨، ابن عساكر، تاريخ مدنية دمشق، عثمان بن عفان، ص١٨٥]. وكان لتلك الإجابة وقعها الإيجابي، فبادر عبد الرحمن وأصحاب الشورى إلى مبايعة عثمان على سنة الله ورسوله وسنة الخليفتين من بعده.

وهكذا تمت مبايعة عثمان، فاستقبل بخلافته المحرم من سنة ٢٤هـ/ ٦٤٥م [البلاذري، أنساب، ق٤ ج١، ص٥١٠، الطبري، تاريخ، ج٤ ص١٩٣، ٢٤٢].

وفي خلافة عثمان حصلت الفتنة الأولى في تاريخ العرب والمسلمين، وهي ناتجة بالدرجة الأولى عن أوضاع ورثها عثمان، ولم تكن من صنع يده، ولكن عثمان لم يستطع تغييرها، مع أنه ألزم نفسه في البيعة بالسير على سياسة أسلافه، وبويع على هذا.

فقد ورث عثمان الاتجاهات القبلية كما ورث النظام المالي الذي استندت إليه الخلافة -وهذا ما سنأتي على ذكره في فصل آخر- وأديا إلى الانفجار الذي قضى على عثمان وعلى وحدة الأمة آنذاك.

فقد انتقدعثمان لعصبيته لأقربائه وتوليتهم الأمصار. ففي البصرة عزل أبا موسى الأشعري وولى مكانه عبد الله بن عامر، وعزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى مكانه الوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص [الطبري، تاريخ، ج٤ ص٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٧، ٢٧٩، البلاذري،

أنساب الأشراف، ق٤ ج١ ص٥٢٨، وانظر: عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص٥١]. بالإضافة إلى ظهور نزعة إقليمية في الأمصار، يصحبها عدم ارتياح الأمصار لسلطة المدينة (المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية) وهذا يعني ثورة القبائل على قريش بالدرجة الأولى. وقد ذهب عثمان ضحية ظروف حصلت نتيجة تطور وضع الأمة وتبدل ظروفها [عبد العزيز الدوري، مقدمة، ص٥٣].

٤. اختيار علي بن أبي طالب

انتخب المسلمون علي بن أبي طالب بعد مقتل عثمان، وكان علي ألمع الصحابة الموجودين من حيث السابقة، والقرابة من الرسول ﷺ، والمصاهرة والعلم والخدمات [اليعقوبي، تاريخ، ج٢ ص ١٧٩، الطبري، تاريخ، ج٤ ص ٤٢٧]. وهي مؤهلات لا شك أعطت لعلي تميزاً بين الصحابة، إضافة لكونه المرشح الثاني للخلافة كما ظهر في استفتاءات الشورى.

وأكد علي على الشورى وطالب بها، فقال للناس "لاتعجلوا فإن عمر كان رجلاً مباركاً وقد أوصى بها شورى، فأمهلوا يجتمع الناس ويتشاورون" [الطبري، تاريخ، ج٤، ص٤٣٣]. وكان متوقعاً بعد هذا التأكيد أن يحظى علي بتأييد واسع من أصحاب الشورى، وهم المهاجرون، إلاّ أن التأييد الأقوى كان في الأنصار، "فلم يتخلف أحد منهم عن بيعته" [المصدر نفسه، ج٤ ص ٤٢٩]، ووقفوا إلى جانبه ونظروا إليه بعين الرضا لمكانته الأثيرة بينهم [اليعقوبي، تاريخ، ج٢ ص١٧٩].

وبعد هذا يمكن القول بأن علياً اختير بإجماع أهل المدينة، ورجال القبائل، أو كما سماهم علي: "أهل هذين المصرين" [المصدر نفسه، ج٢ص١٧٨، الطبري، تاريخ، ج٤ ص ٤٢٧-٤٢٨، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، م١ص ٣٤٠، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مخطوط مصور، م١٢ ص٣٥٢] في ظروف صعبة تجرأت فيها الأمصار على المدينة وتحكمت بمقاليد الأمور فيها. فكان أمر علي فيها كما وصفه أحدهم فقال: "والله يا أمير المؤمنين لقد زنت الخلافة وما زانتك، ورفعتها وما رفعتك، وهي كانت أحوج إليك منك إليها" [ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مخطوط مصور، م١٢ ص ٣٥٤]. وتمت بيعة العامة في مسجد رسول الله تعبيراً عن رضى الناس، فبايعوه في سنة ٣٦هـ/ ٦٥٧ [ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٠، أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص٣١، وانظر: الطبري، تاريخ، ج٤ص٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١].

والآن وبعد هذا العرض السريع لكيفية اختيار كل خليفة، نذكر الصفات العامة للخلافة في عصر الراشدين.

يعتبر أساس الخلافة هو الانتخاب، ولكنه انتخاب محدود لا يشترك فيه جميع المسلمين، وتحدد سلطة الخليفة بالقرآن والسنة والرأي العام. وللخليفة مزايا دينية، فهو إمام المسلمين في الصلاة، والمحافظ على الدين. والسلطة القضائية بيد الخليفة يمارسها أحياناً مباشرة أو يفوضها إلى القضاة في أحيان أخرى.

ويلاحظ أن مصدر سلطة الخليفة الهي، فاجتمع في شخصه الدين

والسياسة [عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، ص٣٦][1].

بعد انتهاء فترة الراشدين انتقلت السلطة إلى الأسرة الأموية ممثلة بمعاوية بن أبي سفيان وخلفائه من بعده، وقد استحدث الأمويون مجموعة من المفاهيم الجديدة لتحل محل المفاهيم التي ارسيت في عهد الراشدين خاصة وأن الأمويين لاتنطبق عليهم الكثير من مفاهيم فترة الراشدين، ولعل أهم تلك المفاهيم مبدأ الوراثة في الحكم، فقد عهد معاوية وقبل وفاته بمدة طويلة إلى ابنه يزيد بولاية العهد، وإن كانت محاولة معاوية اقناع الامصار بالبيعة لابنه دليل على أن فكرة الانتخاب ما زالت معتبرة ولو بشكل نظري، وأصبحت هذه السابقة عادة عند الخلفاء الذين أخذوا يعهدون لابنائهم بالخلافة من بعدهم.

ورغم المحاولات الطويلة التي قام بها معاوية لاقناع الأمة بمبدأ الوراثة في الخلافة إلا أننا نجد أصواتاً عديدة استنكرت هذا الأمر، واعتبر البعض أن أمر الخلافة لم يعد بيد الأمة، فقال عبد الله بن همام السلولي:

إن تأتوا ببـرة أو بهند ... نبايعها أميرة مؤمنينا

وكل بنيك نرضاهم جميعاً ... وإن شئت فعمهم البطينا

وفي فترات لاحقة لم يقتصر الأمر على تعيين واحد في ولاية العهد، بل على أكثر من واحد مما أدى إلى نزاعات بين المعينين تمثل في محاولات إقصاء بعضهم بعضاً أو القيام بالثورات ضد بعضهم البعض.

كذلك أخذت الخلافة تأخذ الطابع الملكي أكثر من أخذها الطابع

(١) انتهى هنا ما أعدته د. غيداء خزنة كاتبي في هذه الوحدة.

الشورى الإسلامي من حيث الابتعاد عن الالتزام التام بتعاليم الدين المستندة إلى الانتخاب، والشورى، وعدم التجبر، والبساطة في الزي والمأكل والمسكن وغيرها.

وهذا السبب دفع الفقهاء للاصطدام بالخلفاء إذ اعتبروا خلافة الأمويين ملكاً لا يتفق مع الشرع، لهذا سارعوا لدعم الحركات الثورية المناوئة لهم معنوياً ومادياً.

وقد حاول الأمويون دعم سلطانهم من خلال بلورة رؤية جديدة للخلافة تقف أمام الرؤية الراشدية وتبرر بقاءهم في السلطة، ولعل أبرز مستندات تلك الرؤية:

١- مبدأ الجبر: واجه معاوية غياب الشرعية عن خلافته في التصور الحجازي القائم على الشورى والاسبقية، وأن الخلافة لا تجوز للطلقاء ولا لأبناء الطلقاء، فنادى بالجبر السياسي القائم على موافقة الاحداث لمشيئة الله وارادته، والتي رتبت الأحداث وقَدَّرتها منذ الأزل، ولاستحالة وقوع حدث في ملك الله بغير إرادته ومشيئته وإلاَّ نسب للعجز، وبالتالي فخلافته قدر من الله وموافقة لارادته ومشيئته. وهو واضح من قول معاوية: "هذه الخلافة أمر من الله وقضاء من قضائه"، وتوسع هذا المبدأ بعد معاوية عند خلفاء بني أمية لإسكات أصوات المعارضة.

٢- الاستخلاف الالهي: رأى الأمويون أنهم مستخلفون من قبل الله مباشرة طالما أن خلافتهم تمت بناءً على مشيئته وقدره، ومنه قول معاوية: "قد أمَّرني الله عليكم".

٣- وراثة عثمان: إن الخلافة وصلت لبني أمية شرعاً ووراثة من آخر الخلفاء الشرعيين (برأيهم) عثمان الذي قضى مقتولاً.

٤- سلطة أهل الشام: رأى الأمويون أن سلطة اختيار الخلفاء انتقلت من أهل المدينة (قتلة عثمان) إلى أهل الشام (الثائرون لعثمان) فمن اختاروه فهو الخليفة، وأهل الشام منحازون لبني أمية فهم الخلفاء الشرعيون.

قال حميد بن ثور:

إن الخلافة لما اظعنت ظعنت عن أهل يثرب إذ غير الهدى سلكوا

صارت إلى أهلها منهم ووارثها لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا

وقال عبد الله بن همام السلولي:

أنى تكون لهم شورى وقد قتلوا عثمان ضحوا به في الأشهر الحرم

واستمر الوضع كذلك حتى وصول العباسيين إلى السلطة، الذين جاءوا إلى الخلافة بنظرية تعتمد على أسس دينية من حيث أنهم قرابة الرسول ﷺ، وأحق بميراثه، لهذا اخذوا يحيطون أنفسهم بالفقهاء ويتقربون إليهم، ويتقبلون مواعظهم، وتوجيهاتهم، ويظهرون تمسكهم بالدين.

ونادى بنو العباس بأن أساس خلافتهم الحق المقدس المستمد من الله باعتبارهم أقرباء رسوله ﷺ، وأنهم خلفاء الله وظله على الأرض وتوسعوا كثيراً في هذا المفهوم.

ولكن رغم هذه التغييرات بقي الكثير من المفاهيم التي أُرسيت في عهد بني أمية مطبق في عهد بني العباس، وخاصة مسألة ولاية العهد، فبقي الخليفة يعهد لابنه أو لأخيه من بعده، وليس للأمة إلاَّ الموافقة فقط على إرادة الخليفة. كما كان يعهد لأكثر من واحد.

ولكن السلطة لم تستمر على نفس الوتيرة، ففي سنة ٣٣٤ للهجرة دخل البويهيون بغداد على اعتبار أنهم أسرة متحكمة بالخلافة فجردوا الخليفة من سلطاته الدنيوية، فلم يعد له حق الإشراف على الجيش أو الأموال أو الإدارة، بل بقيت له السيطرة على الشؤون الدينية (القضاء)، وشارك البويهيون الخلفاء بالكثير من علامات السيادة الخاصة بهم من مثل ضرب اسمائهم على النقود إلى جانب اسماء الخلفاء، والدعوة لهم بعد الخلفاء على المنابر وغيرها.

ولم تتغير أحوال الخلافة كثيراً في عصر السلاجقة الذين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ، بل استمرت مع اختلافات جزئية على ما هي عليه من الضعف والوهن والتسلط عليها حتى استقلت في عهد المقتفي لأمر الله، إلاَّ أنها بقيت ضعيفة لا يتجاوز حدود نفوذها الدنيوي العراق، وبقيت كذلك حتى سقوطها على يد هولاكو سنة ٦٥٦ للهجرة.

الشروط الواجب توافرها في الخليفة:

حدد الفقهاء مجموعة من الشروط الواجد توفرها في شخص المتولى للخلافة، وهي:

١- الولاية الكاملة: الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورة.

٢- سلامة الحواس والأعضاء.

٣- الصفات المعنوية كالشجاعة والكرم والعدالة.

٤- العلم المؤدي إلى الاجتهاد.

٥- الشجاعة والنجدة.

٦- القُرشية، وقد رسخ هذا الشرط في سقيفة بني ساعدة من خلال احتجاج أبي بكر الصديق بحديث الرسول ﷺ "الأئمة من قريش" [مسند أحمد ٣/ ١٢٩-١٨٣ و ٤/ ٤٢١] وهو حديث صحيح جمع ابن حجر طرقه عن أربعين صحابياً في جزء صنفه [تلخيص الحبير: ٤/ ٤٢] وجرى التأكيد على هذه الأحقية منذ اللحظات التي تم بها انتخاب أبي بكر، فالحارث بن هشام المخزومي يقول مخاطباً الأنصار: "والله لولا قول رسول الله ﷺ: "الأئمة من قريش" ما أبعدنا عنها الأنصار، ولكانوا لها أهلاً ولكنه قول لا شك فيه، فوالله لو لم يبق من قريش كلها إلاَّ رجل واحد لصير الله هذا الأمر إليه". [الإصابة في تمييز الصحابة: ١/ ٦٩٩]

لقد حُسم أمر القُرشية في السقيفة، واستقر هذا المفهوم في العصور الإسلامية، ولم يعارضه سوى الخوارج، وبعض الفقهاء المتأخرين، ولعل أبرز دليل على رسوخ هذا المفهوم، الحوار الذي دار بين الأحنف بن قيس وأبي موسى الأشعري عند خروجه للتحكيم، حيث قال له الأحنف: "إن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي فخيره أن يختار أهل العراق من قريش الشام من شاءوا، فإنهم يولونا الخيار فنحن نختار من نريد، وإن أبو فليختر

أهل الشام من قريش العراق من شاءوا فإن فعلوا كان الأمر فينا " [صفين: ٥٣٦]. وهذا اعتراف واضح باستمرار احقية قريش بالخلافة.

هذا، ولم تحترم جميع الشروط التي وضعها الفقهاء أثناء التطبيق العملي، فكثير من الخلفاء لم يكونوا من أهل العدالة، ولا أصحاب رأي وتجربة، بل وصل البعض منهم للخلافة وهم أطفال، إلاَّ أن شرط القرشية احترم احتراماً مطلقاً حتى لما ثار بعض الزعماء في أطراف الدولة وتسموا بالخلافة، قاموا بادعاء الانتساب إلى قريش مثل الموحدين والحفصيين في المغرب.

وكذلك احترم شرط سلامة الحواس والأعضاء، لهذا كان القادة المتسلطون على الخلافة إذا قاموا بعزل خليفة سملوا عينيه ليفقدوه حقه بالمطالبة بخلافته فيما بعد.

واجبات الخليفة:

حدد الفقهاء عشرة واجبات يلزم الإمام القيام بها هي:

١- حفظ الدين على اصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة.

٢- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة.

٣- حماية البيضة والذب عن الحريم حتى ينتشر الأمن فتزدهر التجارة والنشاطات الاقتصادية الأخرى.

٤- اقامة الحدود.

٥- تحصين الثغور.

٦- الجهاد.

٧- جباية الفيء والصدقات.

٨- تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

٩- استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال.

١٠- مباشرة الأشراف شخصياً على سياسة الدولة ومجريات الأمور فيها.

شروط عزل الإمام:

حدد الفقهاء مجموعة نظرية من الشروط إذا توافر منها شرط جاز عزل الخليفة به، إلاَّ أن التجربة التاريخية التطبيقية للأمة عرفت العديد من حالات العزل للأئمة من دون توفر تلك الشروط، وإذ كان العزل مبنياً على رغبة القادة المتسلطين على الخلافة أحياناً، وأحياناً كان يتم عزل الخليفة استناداً إلى شروط الفقهاء إلاَّ أنها بقيت حالات قليلة مقارنة بغيرها من حالات العزل.

أما عن الشروط، فهي:

١- الجرح في عدالة الإمام، وهو الفسق وهو ما تابع فيه الشهوة، وهو متعلق بالجوارح من ارتكابه للمحظورات واقدامه على المنكرات،

فينعزل بذلك عن الامامة. وقد عُزل الخليفة الراشد بالله في سنة ٥٣٠هـ للهجرة بعد شهادة الشهود العدول على فسقه تلبية لرغبة السلطان مسعود الذي أراد عزله، فلم يجد سوى ادعاء فسق الخليفة وعزله بهذا السبب.

٢- العجز الجسدي: من مثل ذهاب البصر، الشلل. وقد طبق هذا الشرط تاريخياً على الخليفة المطيع لله الذي أصابه الفالج فأثر على نطقه وحركته مما دفع الأمراء إلى إجباره على عزل نفسه، وتسليم الخلافة لولده الطائع لله وذلك سنة ٣٦٣هـ.

٣- الجنون الدائم أما إذا كان على شكل نوبات بسيطة لا تؤثر عليه كثيراً، فإنه لا ينعزل بها.

الوزارة

تأتي مؤسسة الوزارة بعد الخلافة من حيث الأهمية السياسية والإدارية، وأسهمت بدور فاعل في توجيه نظام الدولة العربية الإسلامية، ورسم سياستها العامة.

الوزارة لغة:

اختلف أصحاب اللغة في اشتقاق لفظ الوزارة، فذهب بعضهم إلى أنها مشتقة من الجذر (الوزْر) وهو الثقل، ودليله قوله تعالى: "وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أنقضَ ظَهْرَكَ" [سورة الشرح: ٢-٣]. وقوله تعالى: "ولكنَّا حُمِّلنا أوزاراً من زينة القوم" [طه: ٨٧] أي اثقالاً من امتعتهم

وحليهم. ومنه قول الأعشى:

وأعـــددت للحـــرب أوزارها   رمـاحـاً طوالاً وخـيـلاً ذُكـوراً

ولأن الوزير يحمل عن الخليفة وزْرَه أي ثقله بمعنى أعباء الدولة ويقوم بإدارة شؤونها، ويلتجأ الخليفة إلى رأيه وتدبيره، فهو ملجأ إليه ومفزعٌ.

وقيل: إنها مشتقة من (الوَزَر) بمعنى الملجأ والمعتصم كما في قوله عز وجل: (كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر) [القيامة: ١١] ومنها وازَرَه على الأمر: أي أعانة وقواه. لأن الخلفاء يلجأون إلى رأيه ومعونته عند نزول النوائب الفوادح ليدبر الوزير الأمور بثاقب فكره لترتيب أمور الدولة، لأن عليه مدار السياسة وإليه تفوض الأموال.

وقيل: أنها مشتقة من (الأزر) بمعنى القوة والظهر. ومن ذلك قوله تعالى: "واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري واشركه في أمري" [طه: ٢٩] أي اشدد به قوتي وأشد به ضعفي.

وبالتالي فإن جميع الجذور اللغوية التي يرجع إليها اشتقاق لفظة وزارة تدل على أن الوزير هو مساعد الخليفة ومستشاره ومعينه، وسنده الذي يرفع عنه جزءاً مهماً من أعباء الدولة ومسؤولياتها. وقد أكد أصحاب اللغة في المعاجم على عروبة كلمة الوزير، واكدوا على أصالتها في تراثنا اللغوي والحضاري.

ظهور الوزارة:

تعود جذور الوزارة الأولى إلى العصر العباسي، فقبل العصر العباسي لم يكن هذا المنصب معروفاً، وإن ذكرت اللفظة، ففي عصر الرسول ﷺ، كان

العرب الذين اطلعوا على أحوال الدول في عهد كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزير رسول الله ﷺ، وورد في حديث عائشة المسند إلى رسول الله ﷺ لفظة الوزير، نص الحديث أنَّه ﷺ قال: "إذا أراد الله بعبد خيراً أو قال: بالأمير خيراً- جعل له وزير صدق، إن ذكر اعانه، وإن نسي ذكره، وإذا اراد به غير ذلك، جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكّره، وإن ذكر لم يعنه" [أخرجه ابو داود (٢٩٣٢)، والبيهقي ١/ ١١١-١١٢، وابن حبان (٤٤٩٤)]. كما ظهرت اللفظة في سقيفة بني ساعدة على لسان الصديق رضي الله عنه للأنصار عند اقتراحهم تعيين اميرين، واحد من الانصار والآخر من المهاجرين، إذ رد عليهم بقوله: "منا الأمراء ومنكم الوزراء". [البلاذري، أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٢، الطبري، تاريخ: ٣/ ٢٠٣].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمثابة الوزير للصديق يعاونه في توزيع الزكاة ويقضي بين الناس، وكان مستشاره الأول. وكذلك كان عثمان بن عفّان وعلي بن أبي طالب، وزيري عمر إذ ادى كل منهما مهمات معينة في خلافته، فأزراه وساعداه في تسيير أمور الدولة، وكان هؤلاء الأعوان يمارسون بعض اعمال الوزراء إلاَّ أن اسم الوزير لم يقع عليهم ولم يطلق في تلك الفترة على أي مساعد للخليفة.

وظهرت اللفظة دون ظهور المنصب في العصر الأموي، فقد وصف ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ زياد بن أبيه بقوله: "أن زياد كان يسمى وزير معاوية"، وكما استخدم اللفظة المختار بن أبي عبيد، فعندما قدم الكوفة قال للشيعة بها: "إن المهدي بن الوصي محمد بن علي بعثني إليكم أميناً ووزيراً" [البلاذري، أنساب الأشراف: ٦/ ٣٨٠، الطبري، تاريخ:

/٥ ٥٨٠]، وأورد البلاذري في كتابه أنساب الأشراف: ٦/ ٣٨٦ رسالة افتعلها المختار على لسان محمد بن علي بن أبي طالب جاء فيها: "إني بعثت إليكم المختار بن أبي عبيد نصيحي ووزيري".

وقد اتخذ خلفاء بني أمية المستشارين والمعاونين بعد اتساع الدولة في عصرهم، وحاجتهم إلى من يساعدهم في أمور الدولة السياسية والإدارية والمالية والعسكرية، واطلق عليهم لقب كاتب، وعلل المسعودي رفض الأمويين اطلاق لقب الوزير على كُتَّابهم بأن الأمويين كانوا يقولون أن الوزير مشتق من المؤازرة، والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة. إلاَّ أن خلفاء الدولة الأموية عندما بدأوا يتجهون إلى الإدارة المركزية أخذوا يميزون كاتباً من بين الكُتَّاب ويختصونه بثقتهم من مثل عبد الحميد الكاتب، وحسبما يرى الدكتور الدوري فإن قوة الاتجاه نحو المركزية يتطلب وجود شخص مشرف يعاون الخليفة، وبذلك يفهم ظهور الوزارة في العصر العباسي، وإذا دققنا في صلاحيات العباسيين الأوائل نجدها لا تبعد كثيراً عن وضع عبد الحميد الكاتب.

ظهر منصب الوزارة مع انتصار العباسيين ودخولهم العراق، فلما دخلت قواتهم الكوفة اتصلت بأبي سلمة الخلال، وسلَّم قادتها إليه الرئاسة وخاطبوه بعبارة وزير آل محمد، ولكن هذا اللقب لا يعني تحولاً كبيراً في الصلاحيات إذ بقيت صلاحياته محدودة، بل إن أهم دواوين الدولة بقيت خارجة عن سلطاته وهي (ديوان الخراج وديوان الجند)، وبسبب عدم اخلاصه للعباسيين ومحاولته نقل الخلافة إلى الأسرة العلوية، نقم العباسيون وعلى رأسهم الخليفة أبو العباس السفاح عليه، وقام باغتياله مما دفع متولي

صلاحياته من بعده إلى تجنب أن يسمى بالوزير خوفاً من القتل، ومن أولئك خالد بن برمك الذي حل محل الخلال الوزير وكان يعمل عمل الوزراء غير أنه لم يسمى وزيراً. ويعود ذلك فيما يبدو إلى عدم وجود المؤسسة، وعدم اتضاح صلاحيات الوزير في تلك الفترة المبكرة.

ثم عاد لقب الوزير ومنصبه مجدداً في عهد المنصور، فتولى وزارته أبو أيوب المورياني الذي لقي في نهاية أمره العزل والسجن، وتولى منصبه الربيع ابن يونس الذي بقي في الوزارة حتى وفاة المنصور. والواضح أن صلاحيات الوزراء في عهد المنصور كانت محدودة بسبب قوة المنصور، ورفضه اطلاق أيدي مساعديه في الدولة، لهذا بقيت صلاحياتهم -رغم اطلاق لقب الوزارة عليهم- محدودة وتخضع لإشراف الخليفة المباشر.

وبدأت صلاحيات الوزير منذ عهد الخليفة المهدي بالتطور، وظهرت في عهده أبهة الوزارة، وبلغت صلاحياتهم درجة كبيرة عندما فوض المهدي إلى وزيره معاوية بن عبيد الله تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين، مما جعل سلطته شاملة وقوية، ورغم أن الخليفة المهدي عزله عن منصبه، إلاّ أنه فوض الصلاحيات مرة جديدة للوزير يعقوب بن داود الذي زادت صلاحياته عن صلاحيات سلفه لدرجة دفعت الشاعر بشار بن برد إلى وصف الحالة بقوله:

بني أميـة هبـوا طال نومكم إن الخليفـة يعقـوب بن داود

ورغم تلك الثقة المطلقة التي منحها المهدي لوزيره يعقوب إلاّ أنه بعد أربع سنوات قام بعزله وسجنه، واستبدله بوزير جديد، إلاّ ان الصلاحيات

بقيت كما هي لم تتأثر بعزل الوزراء وسجنهم.

ولما تولى هارون الرشيد الخلافة سار على نهج والده، وبقي منصب الوزارة محافظاً على صلاحياته، فمنح الرشيد ليحيى بن خالد البرمكي وابنيه جعفر والفضل صلاحيات كبيرة في الدولة، وفوض إليهم سلطات واسعة، وجعل إليهم الإشراف على كافة الدواوين، ومارس البرامكة بالتالي دوراً خطيراً وكبيراً جداً في الدولة إلاّ أن تصرفاتهم كانت تحت رقابة الرشيد الذي أخذ تدريجياً بتقليل صلاحياتهم ثم عزلهم وبطش بهم، فأصبحوا بين قتيل وسجين بسبب تعاظم نفوذهم وخطرهم على الدولة جميعها، وميولهم السياسة المنافية لمصالح العباسيين، وتبذيرهم أموال الدولة، واشتداد قبضتهم على الوظائف الهامة.

واستوزر الرشيد بعد البرامكة عدوهم الأول الفضل بن الربيع، إلاّ أن صلاحياته كانت أقل مما منح للبرامكة كثيراً، فلم يوكل إليه الأشراف على الدواوين، فبقيت خارج سلطاته، واستمر الفضل وزيراً حتى وفاة الرشيد، ثم وزيراً لخلفه الأمين حتى مقتله. أما في عهد المأمون، فقد منح صلاحيات واسعة شبيهة بصلاحيات البرامكة لوزيره الفضل بن سهل، ففي عهده وصلت الوزارة إلى أوج قوتها، ولقب "ذو الرياستين" أي رئاسة الحرب ورئاسة التدبير، ولم يكن ذلك قد مُنح لوزير قبله. ورغم تلك الصلاحيات فلم يكن الفضل مخلصاً للعباسيين بل كان ميالاً للعلويين، محباً للاستبداد في كل أموره، وبلغ من استبداده على المأمون أن منع الأخبار عنه، فلم يكن يعلم من أمور الدولة إلاّ ما يرغب الفضل باطلاعه عليه، مما عجل بنهايته عن طريق عملية اغتيال اتهم المأمون بتدبيرها.

واستمرت الوزارة قوية في عهد المأمون ومن جاء بعده حتى قُتل المتوكل من قبل الجيش العباسي المكون من الجند الأتراك، فبدأت مكانة الوزارة تضعف بسبب تسلط الجند التركي على الخلفاء وانتزاعهم الكثير من صلاحيات الوزير لأنفسهم، ولم تعد صلاحيات الوزير تتجاوز أمور الجباية، والإشراف على الأمور الإدارية، ما خلا تعيين الولاة الذين أصبح تعيينهم يتوقف على رغبة الاتراك.

وقد انتعشت مؤسسة الوزارة بانتعاش مؤسسة الخلافة في أواخر القرن الثالث الهجري مع بروز قوة الأمير الموفق العباسي في خلافة أخيه المعتمد ثم ترسخت مع تولي المعتضد الخلافة، ووضعه الحد لتجاوزات الجند، وفرضه الانضباط على الجميع واعادة هيبة الخلافة إلى مكانتها السابقة، فاستعادت معها مؤسسة الوزارة اهميتها، وقد بلغت تلك المؤسسة ذروتها في عهد المقتدر الذي فوض وزراءه صلاحيات كبيرة في إدارة شؤون الدولة، وتوجيه سياستها العامة، إلاّ أن الأمور ساءت في أواخر عهد المقتدر وبدأ الجند مرة أخرى بالسيطرة على الخلافة، فقتلوا المقتدر، وعزلوا القاهر بعد سمل عينيه، مما دفع الخليفة الراضي إلى استحداث منصب جديد في الدولة وهو منصب "إمرة الامراء"، الذي قلد متوليه رئاسة الجيش، مع تولي الجباية والانفاق على مؤسسات الدولة، فتقلصت صلاحيات الوزير فلم يكن له من الأعمال سوى اسم الوزارة فقط.

وتدهورت الوزارة بشكل نهائي مع دخول البويهيين الديلم إلى بغداد ٣٣٤هـ، وتغلبهم على الخلافة، فالغى فعلياً منصب الوزارة للخلافة، واستبدل مكانه كاتب يشرف على إدارة اقطاعات الخلفاء، في حين استأثر

أمير الأمراء البويهي لنفسه بمنصب الوزارة، فأصبح يعين وزيراً خاص به، وبقي الأمر على ذلك حتى أواخر العصر البويهي عندما استغل الخليفة القائم بأمر الله ضعف أمير الأمراء البويهي الملك الرحيم، وقام بتعيين أبي القاسم ابن المسلمة وزيراً في سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م، إلاّ أن صلاحياته بقيت محدودة بحكم محدودية صلاحيات الخليفة نفسه.

أما في عصر السيطرة السلجوقية على الخلافة، فاستمر منصب الوزارة، واستمر الوزير يقوم بمهامه المحدودة بحكم محدودية سلطات الخليفة، ولكنه كان عرضة للعزل بسبب ضغوطات السلاطين السلاجقة، إلاّ أن المنصب مثله مثل بقية مؤسسات الخلافة بدأ بالتطور التدريجي نتيجة لازدياد قوة الخلافة بسبب ضعف السلطة السلجوقية، فلما استقلت الخلافة وتوسعت رقعة الأراضي التابعة إليها مباشرة توسعت سلطات الوزراء وزاد نفوذهم، إلاّ أنه بقي محدوداً مقارنة مع صلاحيات الوزراء الأوائل بسبب قيام الكثير من الدول التابعة اسمياً للخلافة المستقلة فعلياً في إدارة شؤونها في مختلف بقاع الدولة الإسلامية.

مكانة الوزير:

احتل الوزير مكانة مرموقة في الدولة الإسلامية، فكان يتلو الخليفة من حيث الأهمية والنفوذ، وكان الوزراء يشاركون الخلفاء في تصريف أمور الدولة واتخاذ القرارات في النوازل، وكانت لهم سلطة الإشراف المباشر

على إدارة الشؤون المالية للدولة، إذ يقوم بعمل ميزانية الدولة، وأصبحت له صلاحية فرض الضرائب أو الغائها حسب الظروف الخاصة بالميزانية من حيث الوفر أو العجز.

والوزير هو وسيط بين الخليفة والرعايا والولاة يؤدي عنه ما أمر، وينفذ ما ذكر، ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش والحماة ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم، فهو معين في تنفيذ الأمور. وكانت صلاحيات الوزراء تختلف باختلاف شخصية الخلفاء، فكان بعض الخلفاء يفوضون وزرائهم تفويضاً كاملاً في حكم الدولة، فيما كان بعضهم يجعل وزيره أقرب إلى الكاتب في صلاحياته.

صفات الوزير:

يتفق اغلب الفقهاء والكُتّاب والمؤرخين على تحديد مجموعة من الصفات الأساسية الواجب توافرها في الوزير، وهي:

العدل، والعلم، والبلاغة، والصدق، والامانة، والأدب. وخير ما يدل على هذه الصفات ما رواه الماوردي عن المأمون الذي كتب في اختيار الوزير: "اني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفة في خلائقه، واستقامة في طرائقه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، إن أؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة، له صولة الامراء وأناة الحكماء، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء، إن أُحسن إليه شكر، وإن ابتلي

بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه" . [الأحكام السلطانية: ٦٢].

ومن ذلك ما قاله المسعودي: "لم تكن الخلفاء والملوك تستوزر إلاّ: الكامل من كُتّابها، والأمين العفيف من خاصتها، والناصح الصدوق من رجالها، ومن تأمنه على أسرارها وأحوالها، وتثق بحزمه وفضل رأيه، وصحة تدبيره في أمورها" .

ووضع ابن الطقطقا في كتابه الفخري في الأداب السلطانية: صفات الوزير والشروط الواجب توافرها فيه فقال: "الوزير وسيط بين الملك والرعية، فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة، والأمانة، والصدق رأس ماله، والكفاءة والشهامة من مهماته، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته. . . والرفق والاناة والتثبت في الأمور، والحلم والوقار والتمكن، ونفاذ القول مما لا بد منه" .

أصناف الوزارة:

صنف كُتَّاب الأحكام السلطانية الوزارة إلى صنفين، وجعلوهما الصنفين الوحيدين المعتبرين، ولا يجوز تجاوزهما، وميزوا بين الصنفين تمييزاً جعلهما واضحين وهما:

أولاً: وزارة التفويض:

وهي أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده، وهي الاستيلاء على: التدبير، والعقد والحل، والتقليد والعزل، ويسمى الثعالبي هذا النوع بالوزارة المطلقة، ووصفها بقوله: "أكمل الولايات وأتمها لاشتمالها على النظر في أمور المملكة، وهي لا تحتمل الشركة لأنها وزارة تامة عامة".

والشروط الواجب توافرها في متولى هذه الوزارة هي الشروط نفسها الواجب توافرها في الخليفة إلاّ النسب وحده، لأنه ممضي الآراء ومنفذ الاجتهاد، فاقتضى أن يكون على صفات المجتهدين، ويحتاج إلى شرط زائد على شروط الإمامة، وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما أوكل إليه من أمر الحرب والخراج، خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما.

ويستفيد الوزير بهذه الولاية بسط اليد ونفاذ الحكم في أمور الدولة والتصرف في أحوال الدولة، بما يقتضيه نظره واجتهاده من تولية وعزل واطلاق وبذل واستخدام وقطع عطاء، ويجوز له أن يحكم بنفسه وأن يقلد الحكام، ويجوز أن يتولى النظر في المظالم ويستنيب فيها، لأن شروط المظالم فيه معتبرة، ويجوز أن يتولى الجهاد بنفسه.

ورغم تلك الصلاحيات الممنوحة لوزير التفويض إلاّ أن سلطته مقيدة بسلطة الخليفة، فيجب عليه مطالعة الإمام بما أمضاه من تدبير وأنفذه من ولاية وتقليد، لئلا يصير بالاستبداد كالخليفة، ويجب على الخليفة أن يتصفح أفعال الوزير وتدبيره الأمور ليقر منها ما وافق الصواب، ويستدرك ما خالفه، ولأن تدبير الأمة إليه موكول وعلى اجتهاده محمول.

ومن وزراء التفويض في الدولة الإسلامية البرامكة وزراء الرشيد،

والفضل بن سهل وزير المأمون، ومن المتأخرين الوزير ابن المسلمة وزير القائم بأمر الله، وعون الدين بن هبيرة وزير المقتفى لأمر الله وغيرهم. وكما تحوّلت الخلافة إلى نظام الوراثة، فقد امتدت الى الوزارة، وظهر من بعض البيوتات عدة من الوزراء.

ثانياً: وزارة التنفيذ

هي وزارة خاصة لقصورها عما اشتملت عليه وزارة التفويض، وهي مقصورة على رأي الإمام وتدبيره، وهذه الوزارة مخصوصة بأربعة أشياء: السفارة بين الإمام وبين الرعايا والولاة، يؤدى عن الأمام فيما أمر وينفذ عنه ما ذكر، ويمضى ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم، ليعمل فيه ما يؤمر به، فهو معين في تنفيذ الأمور وليس بوالٍ عليها ولا متقلداً لها.

أما عن الشروط الواجب توافرها في وزير التنفيذ فهي: الامانة، صدق اللهجة، قلة الطمع، الذكورة، الذكاء والفطنة، والحنكة والتجربة وأن لا يكون من أهل الاهواء.

ومن خلال صلاحيات وصفات وزير التنفيذ نجد أنه لا يتميز كثيراً على الكاتب في العصر الأموي، بل لعل الكُتّاب المتأخرين من بني أمية كانوا أكثر سلطة وصلاحية من وزير التنفيذ، وهو الأمر الذي يعكس تطور منصب الوزارة، فالمهام الأولى البسيطة أصبحت تسمى تنفيذ، وما تطور إليه منصب الوزير أصبح يسمى تفويض.

أما عن الفروق بين الوزارتين فهي:

١- يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٢- يجوز لوزير التفويض أن يقلد الولاة مناصبهم، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٣- يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب، وليس لوزير التنفيذ ذلك.

٤- يجوز لوزير التفويض التصرف بالأموال، ولا يجوز ذلك لوزير التنفيذ.

٥- يجب أن يكون وزير التفويض حراً، ولا يشترط ذلك في وزير التنفيذ.

٦- الإسلام شرط معتبر في التفويض، ولكنه غير معتبر في التنفيذ.

٧- يجب أن يكون وزير التفويض عالماً بالأحكام الشرعية، ولكن ذلك غير معتبر في وزارة التنفيذ.

٨- يجوز للخليفة تعيين وزيرين للتنفيذ، ولا يجوز ذلك في التفويض.

الدواوين

ظهرت الدواوين في الحضارة العربية الإسلامية، مثلها في ذلك مثل بقية المؤسسات فيها، نتيجة حاجة العرب إلى التنظيم الإداري والعسكري والمالي، وبدأت الدواوين بداية بسيطة، إلا أنها سرعان ما تطورت وتعددت

وتفرعت، حسب مقتضيات الأحوال والتطورات التي حلت بالدولة الإسلامية.

اختلفت المصادر في تحديد الأصول اللغوية لكلمة ديوان، فذهب بعضها إلى أنها كلمة فارسية معربة، تعني الشياطين أو المجانين، وانها استخدمت لوصف الكُتّاب الذين يعملون فيه على سبيل المجاز. فيما ذهب البعض الآخر إلى أنها كلمة عربية أصيلة مشتقة من الفعل "دون" بمعنى: أثبت، أو قيّد، أو سجّل، أو جمع. والراجح أن كلمة "ديوان" عربية الأصل لورودها في العربية من وقت مبكر، أهمها حديث للرسول ﷺ يقول: "الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله" (احمد، المسند، ج٦، ص٢٤٠). وكذلك قول العرب: الشعر ديوان العرب والكلمة في الحديث ترد للدلالة على الدفتر أوالكتاب، وبدأت كلمة ديوان تستخدم على نطاق واسع بعد ان دوّن عمر بن الخطاب ديوان الجند، فعنت في البداية سجل المقاتلين، ثم تطورت مدلولاتها بعد استحداث دواوين جديدة في الدولة، لتعني المكان الذي يعمل فيه القائمون على السجلات، أي أن اللفظة اطلقت على الدائرة بكُتّابِها وسجلاّتها وفروعها وأصول العمل فيها.

كان أول الدواوين ظهوراً ديوان الجند، وذلك في عهد عمر بن الخطاب في سنة ٢٠هـ على وجه الترجيح، وقام عمر بن الخطاب بتسجيل أسماء الجند فيه، ومقدار عطاء كل منهم، غير انه عمد إلى التفضيل في مقدار العطاء المعطى للجند، اعتمد فيه السابقة للإسلام كأساس للتفضيل. فجعل الطبقة الأولى في العطاء من اسلم حتى بدر، والثانية من اسلم بين بدر

والحديبية، والثالثة بين الحديبية وفتح مكة، واعتُمد هذا الأساس في الجزيرة العربية غير أن تطبيقه في الأمصار كان مستبعداً لمحدودية عدد من بهامن السابقين في الإسلام، فاتخذ أسس السبق في القتال والبلاء فيه، فكانت الطبقة الأولى من شهد حروب الردة وبدايات فتح العراق والشام (الايام)، والطبقة الثانية أهل القادسية واليرموك، مع تفضيل أهل البلاء منهم على أفراد طبقتهم، ثم من جاهد بعد القادسية واليرموك، ثم للروادف اي الذين جاءوابعد انتظام الفتح في الاقاليم. وكانت اسماء الجند ترتب في الديوان حسب القرابة للرسول ﷺ دون ان يعني ذلك اي تميز مالي، وكان العطاء يوزع سنوياً مرّة واحدة في شهر محرم، ويذكر ان العطاء كان يورث.

كان الدافع لعمر وراء انشاء ديوان الجند تنظيم الجند ووسيلة توزيع الأموال عليهم، خاصة بعد ان كثرت نتيجة الفتوحات، إضافة إلي رغبته في جعل العرب أمة عسكرية، توجه للجهاد وتفرّغ له، الأمر الذي يعني تنظيم مصدر رزق دائم لهم، يتيح لهم التفرغ للجهاد، واعتمدت اللغة العربية لغة للديوان.

كان ديوان الخراج هو الديوان الثاني في دولة الراشدين، والذي كان مسؤولاً عن جباية الخراج والجزية من اقاليم الدولة، ثم توزيع الأموال المجبيّة في وجوه النفقات، وإرسال الباقي منها إلى المدينة المنورة. وكانت هذه الدواوين مما ورثته الدولة الإسلامية عن الدول صاحبة السيادة في الاقاليم الفارسية في العراق وايران، البيزنطية في الشام ومصر. وكانت اللغة المعتمدة فيه هي لغة الاقليم الذي يتولى مسؤولياته، الفهلوية (الفارسية القديمة) في العراق وايران، اليونانية في الشام، القبطية في مصر. وكان

يسجل في الديوان حكم البلد: صلح أم عنوة، وما استقر عليه حكم أرضه، وتفصيل حدود الأراضي الخراجيّة، وحدود الأراضي العشرية، وعدد أهل الذمة الذين يعيشون في الاقليم، ومراتبهم في مقادير الجزيّة، مع اجراء مسح سنوي لهم لاسقاط من مات منهم وإضافة من بلغ الحلم.

واستمر الحال في الدولة الراشدية على ذلك، فلم تشهد نشوء أو ظهور دواوين أخرى، غير ان الحال اختلفت في عصر الدولة الأموية، إذ شهدت نتيجة التطورات وتعددت احتياجات الدولة ظهور ونشوء دواوين اخرى، ولكن قبل الحديث عنها لا بد من ذكر التطورات التي شهدها ديواني الجند والخراج في عهد الدولة الأموية.

ديوان الجند:

استمر ديوان الجند يؤدي وظيفته كماخطها له عمر بن الخطاب، واستمر العمل باعتماد التفضيل في مقادير العطاء، غير ان أسسه اختلفت عن أسس العهد الراشدي، إذ كان أهل السابقة في الإسلام في بداية الدولة الأموية قليلو العدد، ثم لم يلبثوا ان انقرضوا بعد ذلك، فاعتمد معاوية بن أبي سفان السابقة في خدمة البيت الأموي، مع تفضيل الموالين له ولاسرته، واستمر اهل البلاء في الحروب يفضلون، غير ان السقف الأعلى للعطاء (شرف العطاء) أصبح الفي درهم بعد ان كان في العصر الراشدي خمسة الاف درهم. وكان أهل الشام يتقاضون أعلى عطاء بين جميع اقاليم الخلافة الأموية، واتخذ الخلفاء الامويون العطاء وسيلة للمكافأة أو العقاب، أو لكبح جماح الثورات التي تنشب ضدهم، عبر اغرائهم للمؤيدين لها بزيادة

عطاءهم، أو حرمانهم إذا استمروا في دعمهم للثائر.

ويذكر أن التسجيل في ديوان الجند لم يكن دائماً متاحاً أمام الجميع، نظراً لأن الخلافة الأموية لم تعد بحاجة لتجنيد الجند، إلا في الحالات الطارئة، لزيادة اعبائها المالية من جهة، ولعدم قدرتها على استيعاب الاعداد المتزايدة من الأهالي في الديوان من جهة أخرى. ورغم التزام الدولة الأموية بتوزيع العطاء في المحرم من كل عام، إلا أنها لم تكن قادرة في كثير من الأحيان على الوفاء بذلك، نظراً لتأخر موعد الجباية عن موعد توزيع العطاء، عبر الفارق الحاصل بين السنة الشمسية (التقويم المعتمد في الجباية) والسنة الهجرية القمرية (التقويم المعتمد في توزيع العطاء).

وابتدأت الدولة الأموية منذ ايام معاوية بن أبي سفيان إثبات الصفات الجسمانية للمقاتل إزاء اسمه، واستمر ذلك حتى ايام مروان بن محمد الذي أضاف إلى ذلك تفصيل حُلْيَةُ الرجل، واستمر توريث العطاء خلال العصر الأموي.

ديوان الخراج:

استمر ديوان الخراج يقوم بالمهام الموكلة إليه خلال العصر الأموي، إلا ان التطورات التي شهدتها الدولة الأموية أدت بعبد الملك بن مروان إلى احلال اللغة العربية محل اللغات المستعملة في دواوين الخراج، فيما عرف بعملية التعريب، والتي طالت النقد والطراز أيضاً، إذ أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية المعتمدة في ديوان الخراج في كل من العراق والشام، وفي

عصر ابنه الوليد في مصر، وابنه هشام في خراسان، وكانت حركة التعريب مرحلة حاسمة في التطور الثقافي والاستقرار السياسي والاقتصادي للدولة الإسلامية، ويمكن اجمال أهم أسباب هذه العملية في الآتي:

١- اتمام صبغ الدولة بالصبغة العربية، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة الإسلامية، مما يعني رفع مكانتها واتخاذها لساناً حضارياً للأمة الإسلامية.

٢- كان الاختلاف في لغة دواوين الخراج يفتق الوحدة الاقتصادية للدولة الإسلامية، ويعيق ادارتها المالية، فكان لا بد من توحيد لغة الدواوين، وجعلها تعمل بتناغم في اقاليم الدولة كافة.

٣- سيطرة غير المسلمين على دخل الدولة الإسلامية، بواسطة ديوان الخراج، مما يشكل خطراً على الدولة ككل، فكان لا بد من تحرير النظم الإدارية المالية من سيطرة الشعوب المغلوبة، وتأكيد سيادة الدولة سياسياً على جميع اقاليمها.

وأدت حركة التعريب إلى نتائج بالغة الأثر أهمها أن اللغة العربية أصبحت اللغة الرسمية في الدولة الإسلامية، وأصبحت لغة الإدارة والفكر والحضارة، وأقبل غير العرب على تعلمها رغبة منهم في اتقانها، وطلب العلم أوالعمل في اجهزة الدولة، إضافة إلى كونها لغة التعبد، كما كانت عملية التعريب أول عملية ترجمة منظمة، أدت إلى نقل الاصطلاحات الإدارية والمالية الرومية والفارسية والقبطية إلى اللغة العربية، وفتحت الباب على مصرعيه أمام الترجمة في حقول العلم الأخرى إلى اللغة العربية.

وظهرت خلال العصر الأموي دواوين جديدة بصورة تدريجية، حسب مقتضيات الحاجة والتطور الإداري للدولة، وكان هناك نوعان من الدواوين، دواوين مركزية في العاصمة، ودواوين فرعية في الولايات، وأهم هذه الدواوين هي:

١- ديوان الخاتم:

يتولى هذا الديوان تسجيل الأوامر الصادرة من الخلافة، ثم ختم الأصل وإرساله إلى الجهة المخصصة، وكانت الرسالة تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر، ثم يطبع عليه قبل جفافه خاتم الخلافة ويترك حتى يجف، فإذا فتحت الرسالة قبل وصولها إلى الجهة المخصوصة عرف ذلك بتكسر الشمع، ثم عمم هذا الديوان على ولايات الخلافة وكان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ ديوان الخاتم بعد أن عمد بعضهم إلى فتح رسالته وتغيير محتواها.

٢- ديوان البريد:

استحدثه معاوية بن أبي سفيان، لضبط أمور الدولة، وتنظيم مراسلاته مع الأقاليم، واستعمل الخلفاء الأمويون هذا الديوان للسرعة في نقل مراسلاتهم إلى الأقاليم، أو نقل اخبار الأقاليم إليهم.

٣- ديوان المستغلات:

كان ينظر في إدارة أموال الدولة غير المنقولة من أبنية وحوانيت وعمارات، وورد ذكره لأول مرّة في عهد الوليد بن عبد الملك.

٤- ديوان الزمني:

استحدث زمن الوليد بن عبد الملك، وكان مهمته الإشراف على توزيع الأموال على الزمنى وتقديم كل مساعدة لهم.

٥- ديوان القاضي:

استحدث في مصر زمن معاوية بن أبي سفيان، وكانت مهمته تسجيل أحكام القضايا التي بحث فيها القضاة، في سجلات يرجع إليها عند الحاجة مثل: انكار المقضي عليه للحكم، أو دراسة القضايا السابقة المشابهة لقضية جديدة.

٦- ديوان النفقات:

ورد ذكره لأول مرة في عهد سليمان بن عبد الملك، ويبدو أن مهمته كانت تسجيل كل ما ينفق على مرافق الدولة، بعد ان كانت هذه المهمة موكلة إلى ديوان الخراج، إي أنه ديوان متفرع عن ديوان الخراج، أوجدته الحاجة إلى الاختصاص بالعمل عند تطور الأحوال في الدولة.

٧- ديوان الأحباس (الأوقاف):

انشىء في عهد هشام بن عبد الملك، مهمته الإشراف على أموال الاحباس، وتنميتها، وتوزيعها حسب وثيقة وقفها.

٩- ديوان الصدقة:

يرد ذكره لأول مرة زمن هشام، وينظر في موارد الزكاة والصدقات، وفي توزيعها على مستحقيها.

٩- ديوان الطراز:

مهمته الإشراف على مصانع النسيج، التي تنسج الملابس الرسمية للخلفاء، والشارات والاعلام للدولة.

١٠- ديوان الاستخراج:

مهمته محاسبة الولاة والعمال المتهمين باختلاس اموال الدولة واسترجاعها، وكذلك محاسبة الدهاقين والمقصرين في أعمال الجباية، كما أوكلت إليه احياناً مصادرة أموال الخارجين على الدولة، أو الذين يقدمون لهم يد العون.

تطورت الدواوين في عهد الدولة العباسية، وتم استحداث دواوين جديدة ظهرت الحاجة ماسة إليها، في حين تم الغاء دواوين بطلت الحاجة منها، وقد ورث العباسيون النظام الإداري الأموي، وطوّروه حسب ظروفهم، وأصبح الوزير يشرف على كافة الدواوين العباسية، ويذكر انه تم في خلافة أبي العباس تنظيم جديد في سجلات الدواوين، حيث جعلت في دفاتر بدل ان تكون في صحف متفرقة، خوفاً عليها من الضياع.

وفي ما يلي أهم الدواوين التي استحدثت في الفترة العباسية الأولى:

١- دواوين الأزمة:

استحدثت هذه الدواوين في عهد المهدي سنة ١٦٢هـ، وكان السبب في استحداثها اتساع الجهاز الإداري، الأمر الذي أدى إلى كثرة الدواوين، مع ظهور الحاجة إلى مشرفين على النواحي المالية فيها، وكان لكل ديوان زمام، أي رجل يضبطه، ثم مضى المهدي لا يعد من ذلك عندما استحدث سنة ١٦٨ ديوان زمام الأزمة، بهدف احكام عمل الدواوين.

٢- ديوان النظر في المظالم:

استحدثه المهدي، وظيفته النظر في شكوى الرعية من الولاة، وحمايتهم من تعدياتهم في الجباية.

٣- ديوان الضياع:

استحدث للنظر في ضياع الخليفة الخاصة وضياع اسرته، وهي ضياع واسعة منتشرة في مختلف انحاء الدولة.

٤- ديوان الجهبذة:

استحدث زمن المأمون، وكان في الأصل شعبة في بيت المال، مهمته تدقيق حسابات بيت المال، ونوعية موارده.

٥- ديوان الدار:

ويعرف أيضاً باسم الديوان الكبير، استحدثه المعتضد بالله، إذ أدت السيطرة التركيّة على الخلافة العباسية، في الفترة السابقة للمعتضد، إلى ارباك الإدارة في الدولة، وتعطيل الدواوين الفرعية في الولايات، الأمر الذي أدى إلى استحداث ديوان لكل ولاية في بغداد للنظر في شؤونها، فجمعت هذه الدواوين في عهد المعتضد، ولم يلبث ديوان الدار ان تفرع إلى ثلاثة دواوين هي:

ديوان المشرق للولايات المشرقية، ديوان المغرب للولايات الغربية، ديوان السواد لسواد العراق. واستمر ديوان الدار بالإشراف على هذه الدواوين ومراقبة سير أعمالها.

ويذكر أن الحاجة استدعت أحياناً انشاء دواوين جديدة، غير أنها كانت تندثر عند انتهاء الحاجة إليها، مثل ديوان المصادرة الذي انشاءه أبو العباس واختص بمصادرة اموال بني أمية.

كان العاملون في الدواوين يسمون بالكُتّاب، وهم يمثلون صفوة المثقفين في المجتمع، إذ اشترط فيهم حصولهم على ثقافة عالية تؤهلهم للعمل في دواوين الدولة، مع الإشارة إلى أن العلوم الواجب تحصيلها تختلف من ديوان لآخر، فيشترط في كاتب الخراج ان يكون عالماً بالحساب

والمساحة، عالماً بأحكام الأرض. كما يشترط بكاتب الأحكام ان يكون عالماً بالحلال والحرام، والاجماع والفروع الفقهيّة أو بكاتب المعونة ان يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات، وبكاتب الجيش ان يكون عالماً بحلي الرجال وشيات الدواب، والنسب والحساب. وبكاتب الرسائل ان يكون عالماً بالبلاغة وأساليبها، حسن الخط، وفنون الكلام.

القضاء

وقبل الخوض في ظهور منصب القضاء في الإسلام، لا بد من تعريف منصب القضاء في اللغة والاصطلاح، فالقضاء لغة: الحكم والفصل، فيقال: قضى يقضي قضاءً فهو قاض إذا حكم وفصل، وقضى بين الخصمين أي حكم بينهما، وهو على وجوه كثيرة منها، بمعنى اللزوم ولذلك سمي القاضي قاضياً، لأنه يلزم الناس ومنها التقدير يقال قضى على فلان بالنفقة أي قدَّرها عليه. ومنها الأمر، قال تعالى: "وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تعبُدُوا إلاَّ إياه" [الإسراء: ٢٣]. وتعني أيضاً: انقطاع الشيء وتمامه، فيكون القضاء بمعنى الصنع والتقدير، فيقال قضى الشيء إذا صنعه وقدره، ومنه قوله تعالى: "فقضاهن سبع سماوات في يومين" [فصلت: ١٢] أي خلقهن وصنعهن وقدرهن وأحكم خلقهن.

أما القضاء اصطلاحاً فهو فصل الخصومات وقطع المنازعات، وهو ما أوضحه ابن خلدون في مقدمته بقوله: "هو الفصل بين الناس في الخصومات، حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، بالأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة.

الفصل بين الناس في الخصومات حاجة كل المجتمعات على اختلاف عقائدها ومفاهيمها، فأي مجتمع تربط أفراده علاقات أوجدتها مصالحهم التي يسعى كل فرد للحصول عليها، سواء كانت جلب منفعة أو دفع مضرة، ولكي تسير هذه العلاقات في مسارها الصحيح لا بد أن يحكمها القانون الذي تقوم على تطبيقه السلطة الحاكمة لهذا المجتمع، والقضاء أو السلطة القضائية هي الجهة المخولة في المجتمع للفصل بين الناس في الخصومات. عرفت الشعوب اليونانية والفارسية والرومانية وغيرها من الأمم السالفة القضاء بهذا المعنى، كل حسب طريقته التي تتناسب وعقيدته ومفاهيمه عن الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية.

وعرف العرب قبل الإسلام كغيرهم من المجتمعات نوعاً من التحكيم فيما بينهم، إذ كانوا يتحاكمون عند الوجهاء والعقلاء من أصحاب الرأي، وعند رؤساء القبائل الذين كان عادةً يراعى في اختيارهم الشجاعة وكبر السن وكثرة التجارب وسداد الرأي، وربما احتكم العرب إلى الكهان والعرافين. واشتهر من الحكام العرب قبل الإسلام على سبيل المثال لا الحصر: الأفعى ابن الحصين الجرهمي وعبد المطلب بن هاشم، وحرب بن أمية، الوليد بن المغيرة المخزومي، وربيعة بن مخاشن التميمي، وعامر بن الظرب العدواني، وغيلان بن سلمة الثقفي، ووكيع بن سلمى الإيادي، وقس بن ساعدة الإيادي.

وكان العرب يتحاكمون في بعض الأحيان عند النساء وكن في الغالب من الكهان والعرافات، ومن النساء اللاتي كن يحكمن بين المتخاصمين: هند الإيادية، وحذام بنت الريان التي قيل فيها:

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

ورغم ذلك فإن العرب في تاريخها قبيل الإسلام لم تعرف قوانين منظمة مكتوبة تتحاكم إليها -المقصود هنا نجد والحجاز لأن اليمن وممالك الشمال عرفت قوانين منظمة-، بل كان يتم التحاكم بينهم وفقاً للأعراف والتقاليد والعادات التي كانت سائدة في مجتمعاتهم القبلية، وبقي الأمر كذلك حتى ظهور الإسلام الذي أرسى قواعد الدولة في المدينة، فتحول نظام التحكيم الذي كان سائداً قبل ذلك بين العرب إلى قضاء ملزم باحكامه، يستمد قوانينه من التعاليم الإسلامية المأخوذة من القرآن والسنّة والتي صارت تشريعاً تقوم السلطة على تنفيذه، التي تمثلت في الرسول ﷺ رئيس الدولة وخلفائه من بعده.

ويمكننا القول بأن التعريف الاصطلاحي للقضاء الجامع لكل ما سبق هو أنه الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام وفصل الخصومات ورفع النزاع الواقع بين الناس.

والأصل في القضاء ومشروعيته الكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: "وَأَنِ احْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ" [المائدة: ٤٠]، وقوله تعالى: "فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ" [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: "إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" [النور: ٥١].

وأما السنة فإن الرسول ﷺ تولى القضاء بنفسه وقضى بين الناس، ودليل ذلك حديث أم سلمة رضى الله عنها أن الرسول ﷺ قال: "إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه

شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار" [صحيح البخاري: ٩/ ١٣٠، شرح الموطأ: ٢/ ١٩٧] فالقضاء على ذلك ولاية دينية من وظائف الخلافة ومندرجة في عمومها، ولذلك كان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم.

ظهور القضاء وتطوره:

لم يظهر القضاء الإسلامي في مكة رغم انطلاق الدعوة منها، إذ لم يشهد الإسلام بها قيام الدولة التي تطبق شرع الله، وعند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، بدأت معالم الدولة الإسلامية تتحدد، وأصبح المجتمع الجديد بمعطياته الفكرية الجديدة في المدينة يتطلب تنظيماً قضائياً جديداً يتماشى وتلك المعطيات، وكلف الرسول ﷺ تطبيق الشرع، فأخذ على عاتقه مهمة الفصل في الخصومات والمنازعات ين الناس، استناداً لتكليف الله عز وجل له بقوله تعالى: "أن أحكَم بينهم بما أنزل اللَّهُ ولا تَتَّبع أهُوآءهَمُ واحذرهُم أن يفتنُوكَ عن بعض ما أنزلَ اللَّهُ إليك فإن تولوا فاعلم أنما يُريدُ الله أن يُصبَهُم ببعض ذُنُوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسَنُ من اللَّه حُكماً لقوم يُوقنُون" [المائدة: ٤٩-٥٠] إلاّ أنه عمل تقنين على نظام القضاء بممارسته إياه قاضياً ومشرعاً، يقضي بين المتنازعين ويحكم بين المتشاجرين، وألزم أفراد المجتمع المدني بكافة فئاته السكانية والدينية من مسلمين ويهود ووثنيين الرجوع إليه في منازعاتهم وخصوماتهم بموجب الصحيفة التي وضعها، إذ جاء في البند رقم (٢٣) منها: "وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله وإلى محمد"، والبند رقم (٤٢)

"وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله".

فقرن هذا التكليف من الله والتشريع من رسوله بالممارسة لوظيفة القضاء منذ بداية الدولة الإسلامية، فكان عليه السلام يقوم بنفسه أو يكلف بعض كبار الصحابة بحل كافة القضايا والاختلافات، سواء كانت تلك القضايا فقهية أو متعلقة بالعقوبات، كما أسند إلى بعض عماله ولاية القضاء والحكم بين الناس في ولاياتهم، كما حدث مع معاذ بن جبل حين ولاه الرسول ﷺ اليمن، وأوكل إليه مهمة القضاء بعد أن سأله عليه السلام: بما تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد برأيي. فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسوله" [مسند أحمد: ٥/ ٢٣٠؛ سنن أبي داود: ٣/ ٣٠٣؛ سنن الترمذي: ٢/ ٣٩٤].

لكن ولاية معاذ وعلي للقضاء كانت مضافة للولاية العامة غير منفصلة عنها، إذ لم يثبت أن الرسول ﷺ قلد أحد القضاء خاصة، لا في المدينة ولا في أعماله، وإنما كانت ولاية القضاء من ضمن الولاية العامة.

وظلت وظيفة القضاء من مهام الولاة حتى عهد عمر بن الخطاب، فجعلها مستقلة عن نظر الوالي، وعين لها من يتفرد بالنظر فيها، فخطى بذلك خطوة مهمة على طريق استقلال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، ويعود السبب في ذلك إلى إتساع الدولة الإسلامية في عهده، وكثرة مشاغل الولاة في تنظيم الولايات وترسيخ الحكم والجهاد، فعين لذلك مجموعة من القضاة في الأمصار ذكرت المصادر منهم: سلمان بن

ربيعة بالكوفة، وكعب بن سور بالبصرة، وأبي هريرة في البحرين، وأبي الدرداء في دمشق، وعبادة بن الصامت في حمص وقنسرين، وقيس بن أبي العاص في مصر.

ومع استقلال القضاء عن نظر الولاة فإن تقليد القضاء في الولايات كان يتم عن طريق الولاة، يقول القاضي وكيع: "كان ولاة البلدان إليهم القضاء يولون من أرادوا، وكان لا يركب القاضي مركباً ولا يذهب في حاجة إلاّ استأذن أمير البلد لأن يطيب له الرزق". وأما في مركز الدولة فكان تقليد القضاة يجرى عن طريق الخليفة، إنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم، لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة اشتغالهم من الجهاد والفتوحات وسد الثغور على حد تعبير ابن خلدون. وسار خلفاء بني أمية على هذا النهج دون تغييرات كبيرة.

ولما قامت دولة بني العباس جعل الخليفة المنصور تقليد القضاء على الأمصار من قبله، فأصبح تعيين قضاة المدن يصدر من العاصمة بغداد مباشرة، وصار القضاة يستمدون سلطتهم من الخليفة نفسه لا يحكمون إلا بتفويض منه، وعلى هذا النهج سار بقية خلفاء بني العباس.

ويعود السبب في هذا التطور إلى رغبة العباسيين تأكيد عزمهم العمل باحكام الكتاب والسنة وهو شعار ثورتهم على الأمويين، ولتوجه الدولة نحو المركزية واخضاع المؤسسة القضائية لرقابة الخليفة المستمرة، لذلك كان المنصور يتتبع أخبار قضاته بواسطة عيونه فكان عمال البريد يكتبون له بكل ما يقضى به القضاة في ولاياتهم، وتابع خلفائه هذه السياسة للتعرف على أحوال القضاة في السر والعلانية، حتى اثارت هذه الأعمال بعض القضاة

فقاموا بطرد ولاة البريد من مجالسهم.

وحدث التطور الثاني المتعلق بالقضاء في عهد بني العباس عندما استحدث الخليفة هارون الرشيد منصب قاضي القضاة لينظر في شؤون القضاء في بلاد الخلافة وليكون مسؤولاً لحد ما عن تعيين القضاة، فكانت له الرئاسة عليهم. ويعود السبب في هذا التطور إلى اتساع دائرة القضاء وعدم قدرة الخليفة على التفرغ للإشراف على شؤونه، بالإضافة إلى رغبة الخلفاء في المركزية، وكان أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري أول قاضٍ للقضاة في الإسلام.

وقد استمرت سلطة الخليفة على القضاء حتى في فترات التسلط على الخلافة، ورفضوا أي تدخل من قبل القادة المتسلطين في منصب القضاء، فلما حاول بهاء الدولة البويهي في سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م تعيين الشريف الحسين بن موسى قاضياً للقضاة، رفض الخليفة القادر بالله هذا التعيين ومنع الأمير البويهي من التدخل بشؤون القضاء، واستمر الخلفاء في العصر السلجوقي بالتمسك بالسيطرة على القضاء، واعتبروه حكراً عليهم لا يجوز انتقاله لأي شخص أو سلطة سواهم.

ولعل التطور الأخير في منصب القضاء حدث في العصر المملوكي، عندما اسند السلطان بيبرس في سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م منصب قاضي القضاة إلى أربعة من القضاة كل منهم قاضياً لقضاة مذهبه (الشافعي، المالكي، الحنفي، الحنبلي)، وكان قاضي الشافعية المقدم على جميع القضاة بسبب شافعية معظم سلاطين المماليك، إضافة إلى أن معظم سكان الديار المصرية والشامية كانوا من معتنقيه.

ولم يكن ما فعله الظاهر بيبرس بدعة جديدة، بل سبقه إليها أبو علي أحمد بن الأفضل وزير الخليفة الفاطمي الحافظ في سنة ٥٢٥هـ، عندما عين اربعة من القضاء لشغل وظيفة قاضي القضاة (شافعي، مالكي، اسماعيلي، إثنا عشري)، وكان يهدف من وراء ذلك الى اضعاف الخليفة الفاطمي إلاَّ أن هذا الترتيب بطل بعد مقتله سنة ٥٢٦هـ.

ويعود السبب في قيام بيبرس بهذا الإجراء إلى رغبته في إضعاف منصب القضاء، عن طريق ايجاد أربعة قضاة متساوين في الحقوق والواجبات، ليسهل عليه الحصول على الموافقات الشرعية اللازمة لاجراءاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فعندما يرفض أحد قضاة القضاة إصدار الفتوى يلجأ للآخر وهكذا.

وأدى هذا الإجراء إلى إضعاف القضاء الإسلامي، والتقليل من شأنه، وتحديد صلاحياته، لدرجة أن المنصب أخذ يباع ويشترى ويُتَضَمَّن بمبلغ محدد من المال يدفعه القاضي للسلطان، ففسدت أحوال القضاء والقضاة الأمر الذي انعكس على الدولة كلها.

شروط تعيين القاضي:

اهتم الخلفاء والولاة في الدولة الإسلامية باختيار القضاة، وتحروا فيمن يولونه القضاء العدل والعلم، فكان رسول الله يختبر قضاته، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في اختباره لمعاذ بن جبل، وسار الخلفاء على نهج الرسول ﷺ، وكان عمر يختبر من يريد أن يوليهم القضاء ويسألهم علمهم

وبما يحكمون، وكان يقول: "ينبغي أن يكون في القاضي خصال ثلاثة: لا يصانع، ولا يضارع، ولا يتبع المطامع" [أخبار القضاة: ١/ ٧٠]، وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: "لا يصلح القاضي إلاَّ أن تكون فيه خمس خصال يكون: صليباً، نزيهاً، عفيفاً، حليماً، عليماً بما كان قبله من القضاء والسنن" [أخبار القضاة: ١/ ٧٧]. وورد في رسالة هشام بن عبد الملك إلى واليه على مصر الوليد بن رفاعة الفهمي بعض شروط القاضي، إذ قال فيها: "تخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً، ورعاً، تقياً، سليماً من العيوب، لا تأخذه في الله لومة لائم".

وورد في عهد أحد قضاة القضاة في العصر العباسي الشروط الواجب توافرها في القاضي، وهي: "والفاه ممن ضم إلى العلم الورع، وتقمص جلباب العفاف وادرع، وجمع إلى وفور البصيرة ظهور الزهادة، واتبع الجدد الذي أوضح له قوة الدليل على الرشد وصحة الشهادة، وتكاملت فيه الأدوات المؤدية إلى استجابة مزية الاصطناع والتقدم... وأعربت مجاري أحواله عن الاستقلال بأعباء ما يناط به من الاحكام" [رسائل أمين الدولة: ٣٢٤].

وقد اهتمت كتب الفقهاء والأحكام السلطانية بذكر الصفات الواجب توافرها في القضاء، واستقوا تلك الصفات من الشواهد القرآنية والاحاديث النبوية، والسوابق في عهد الصحابة ومن تلاهم، فذكروا سبعة شروط يجب توافرها في القاضي، وهي:

١- الذكورة مع البلوغ: اشترط العلماء أن يكون القاضي ذكراً، ورفضوا تقليده للنساء استناداً إلى آيات قرآنية، وقد شذ عن هذا الأمر الفقيه

المؤرخ محمد بن جرير الطبري الذي جوز قضاء المرأة فيما تجوز فيه شهادتها.

٢- العقل: بحيث يكون صحيح التمييز، جيد الفطنة، بعيداً عن السهو والغفلة، يتوصل بذكائه إلى إيضاح ما أشكل، وفصل ما أعضل.

٣- الحرية.

٤- الإسلام.

٥- العدالة: وهي أن يكون صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفاً عن المحارم، متوقياً للمآثم، بعيداً عن الريب، مأموناً في الرضا والغضب، مستعملاً لمروءة مثله في دينه ودنياه.

٦- سلامة الحواس (السمع والبصر): ليصح بهما اثبات الحقوق، ويفرق بين الطالب والمطلوب، ويميز المقر من المنكر، ليتميز له الحق من الباطل، ويعرف المحق من المبطل.

٧- العلم بالأحكام الشرعية: وعلمه بها يشتمل على علم أصولها والارتياض بفروعها، والأصول: القرآن الكريم (ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه وعمومه وخصومه، مجمله ومفسره)، والسنة النبوية، وكذلك معرفة اجماع الصحابة، والقياس.

واهتم الخلفاء والولاة بتفقد أحوال القضاة وتتبع أخبارهم، والاطمئنان على إجراء الأحكام بالعدل بين الناس، ومن ذلك أن مروان بن الحكم لما قدم مصر في خلافته قام باختبار قاضي مصر عابس بن سعيد، فقال له: أجمعت القرآن؟ قال: لا. قال: أعلمت الفرائض؟ قال: لا. قال:

فكيف تقضي؟ قال: ما علمته قضيت به، وما جهلته سألت عنه. ثم أن مروان سأله بعد ذلك عن فريضة فأصاب وسأله عن مسألة في الطلاق فأصاب، وسأله عن شيء في القرآن فأصاب، فقال مروان: عباد الله ألا تعجبون من عابس. زعم أنه لا يحسن الفرائض والقرآن، ولكن المؤمن يهضم نفسه.

وعزل هشام بن عبد الملك قاضي مصر لما علم أنه يرتشي، وكذلك فعل الخليفة العباسي المعتصم بقاضي مصر هارون بن عبد الله لما تحقق لديه أنه غير نزيه.

وصرف الخلفاء رواتب للقضاة وأجزلوا لهم العطاء، الا أن رواتبهم لم تكن واحدة، بل اختلفت من خليفة وآخر، ومن بلد وآخر وفقاً لزيادة موارد الدولة وللأوضاع المعيشية في كل بلد، غير أنها كانت تسد حاجة القاضي وتصرف قدر كفايته، وقد ورد أن عمر بن الخطاب كان يرزق شريح ابن الحارث كل شهر مائة درهم، وكان علي بن ابي طالب يرزقه في كل شهر خمسائه درهم، وذلك كما يذكر السرخسي لقلة عياله ورخص سعر الطعام في زمن عمر، وكثرة عياله وغلاء سعر الطعام زمن علي.

وكان القاضي يتولى أعمالاً أخرى غير القضاء فيزداد راتبه، فقد أورد الكندي أن عبد الرحمن بن حجيرة كان على القضاء والقصص وبيت المال، فكان رزقه في السنة من القضاء مائتي دينار، ومن القصص مائتي دينار، ورزقه في بيت المال مائتي دينار، وكان عطاءوه مائتي دينار، وكانت جائزته مائتي دينار.

اختصاصات القاضي:

كانت وظيفة القاضي في عهد الخلفاء الراشدين مقصورة على الخصومات المدنية، أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "ان القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط، ثم دفع لهم بعد ذلك امور أخرى على التدريج بحسب اشغال الخلفاء والملوك بالسياسة" وقدحدد عمر بن الخطاب في رسالته المشهورة في القضاء لأبي موسى الأشعري الأسس التي يجب أن يقوم عليها القضاء، وهي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والقياس، " . [ابن قيم الجوزية، اعلام الموقعين: ١/ ٨٦]. وقد كتب معاوية بن أبي سفيان إلى القاضي سليم بن عتر يأمره أن ينظر في الجراح وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، ثم توسعت صلاحيات القاضي فصار له صلاحية النظر في الجرائم وإقامة الحدود على من يثبت عليه الحد، ثم تلا ذلك أن نظر القضاة في أموال اليتامى إذ نظر عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضي مصر في أثناء ولاية عبد العزيز بن مروان في أموال اليتامى، وضَمَّن كل عريف قوم أموال يتامى عرافته وكتب بذلك كتاباً واحتفظ به عنده، وكان بذلك أول قاضٍ نظر في أموال اليتامى.

وهكذا أخذت صلاحيات القضاة في التوسع حسب تطور الزمن حتى وصل الأمر إلى بني العباس، فتطورت صلاحياتهم تطوراً ملموساً، وكان من أثر هذا التطور خروج دائرة القاضي وسلطته عن سلطات الوالي، فأصبح القاضي يعين من الخليفة مباشرة، فقويت بذلك سلطته القضائية، وأصبح للقاضي استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور

عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي الوصايا، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء، والنظر في الطرق والأبنية، وتصفح الشهود والأمناء والنواب.

وكان القاضي ينظر في الدعاوى والشكاوى دون تفريق بين الخصوم في المعاملة، فالكل سواء، فلا يفضل خصماً على آخر، وقد أكد الخلفاء على قضاتهم ضرورة التزام العدالة في الحكم، وكان القاضي يقوم بتفقد المحبوسين والنظر في قضاياهم، والعمل على اطلاق سراح من لا تستدعى جنايته منهم استمرار حبسه.

كما قلد بعض القضاة مناصب خارجة عن اختصاصات القاضي فكان يجمع له مع القضاء الشرطة والجيش، فكان يحيى بن أكثم قاضي القضاة أيام المأمون يقود الصائفة إلى أرض الروم، إلاَّ أن صلاحيات القاضي على الاجمال بقيت كما ذكرنا سابقاً.

قضاء المظالم

قضاء المظالم: هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة. وكانت هذه الوظيفة من أعلى الوظائف في الدولة وأكثرها أهمية، فيقول عنها ابن خلدون: وظيفة ممزوجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء. فهو يشتمل على حل ظلامات الناس مما لا يدخل في أحكام الحكام، ويختص في قضايا الظلم والتعدي والفساد والتي يرتكبها رجال الدولة، مما يعجز عنه القضاء لينظر فيها من هو أقوى يداً.

وقد عرف العرب قبل الإسلام شكل من أشكال ولاية المظالم، وذلك أن قريش لما اتسعت تجارتها، وكثر زوار مكة، وتشعبت الرياسة في بطونها وكثر زعمائها، وشاهدوا من النزاع بينهم ما لم يكفهم عنه سلطات قاهرة، عقدوا حلفاً بينهم (حلف الفضول)، كان جوهر هذا الحلف التعاقد والتحالف على منع المظالم بمكة، ورد الحقوق إلى أصحابها.

وكذلك عرف الفرس المظالم ونظر بها الأكاسرة، فكان الملك هو المرجع الأعلى للمتظلمين، يجلس معه الموبذان موبذ، وقد اعتادوا أن يأذنوا للناس إذناً عاماً مرتين في السنة (النوروز، والمهرجان) لسماع شكواهم.

وبعد ظهور الإسلام بدأت المظالم محدودة، وذلك لشيوع التناصف والرقابة الشديدة للخليفة على ولاته، وحسن إيمان الناس، لذا كانت الإشارات إلى ولاية المظالم أو الجلوس للمظالم محدودة جداً في المصادر، وإن جلس عمر بن الخطاب للمظالم وجعلها إلى قاضيه أبي ادريس الخولاني، ونظر فيها علي بن أبي طالب وباشرها وذلك لما حدث في زمنه من فتن دفعته إلى الجلوس لها للفصل فيها واحقاق الحق.

واستمر الأمر على هذه الوتيرة حتى كان عهد عبد الملك بن مروان، الذي يعتبر أول من أحدث المظالم وأفردها من خلال تخصيص يوم محدد لها يجلس للمظالم فيه، ويرد المشكلات لنائبه عليها ادريس الأودي، وله ما للقضاة غير أنه أفسح حالاً منهم. وكذلك كان عمر بن عبد العزيز يجلس للمظالم، ورد مظالم بني أمية إلى أهلها.

ولما جاء العباسيون إلى السلطة زاد اهتمامهم بالمظالم لتأكيد مفهوم العدل وترسيخه وانصاف المظلومين في جميع أنحاء الدولة، فكان المنصور

أول من عين موظفاً للمظالم، الحسن بن عمارة، ينظر فيها ويرفعها للمنصور للبت فيها.

وتعددت صلاحيات ديوان المظالم في العصر العباسي الأول فكان ينظر في تعدي الولاة على الرعية، وجور عمال الخراج فيما يجبونه من الأموال، فيرجع فيه إلى قوانين الجباية في ديوان الخراج، فيطالب بما فيها، ويأخذ العمال بها، ويعيد ما زادوه إلى من أخذ منهم، وكذلك ينظر في تظلمات الجند من نقص أو تأخير لأرزاقهم، ورد الغصوب التي استولى عليها أصحاب النفوذ أو السلطة بالقوة.

وفي العصور العباسية اللاحقة أصبح للمظالم وال من القضاة يعينه الخليفة، ولم يعد الخليفة ينظر فيها إلاّ ما ندر بل أوكلها إلىٌ ذلك القاضي مع اعطاءه الكثير من الصلاحيات، وربما يعود ذلك الأمر إلى تقلص سلطات الخليفة بعد تغلب الاتراك والبويهيين والسلاجقة عليه، فلم يعد يسيطر على ولاة الأقاليم، ولم يعد له عمال خراج ولا جند لهذا لم يعد من حاجة أن يجلس الخليفة للمظالم بل أوكلها لغيره.

وفي عهد المهدي استحدث ديوان المظالم وعين موظفاً خاصاً له يتولاه وروعي في متولي ولاية المظالم صفات كثيرة أبرزها: العفاف، والورع، والشدة، والعدل، والفقه. وكان من مهامه جمع العرائض والقصص التي يقدمها المتظلمون، ورفعها إلى الخليفة أو من يعهد إليه من الوزراء أو الأمراء بالنظر فيها وايصالها إلى الخليفة. أو يقوم بعمل ملخصات لعرائض الشكاوى وبعد انتهاء جلسات المظالم يتولى صاحب الديوان أخذ القصص والمجاميع الموقعة، ويثبت المجاميع في سجلات الديوان باسماء أصحاب

القصص كما يثبت التوقيعات عليها، وبعد ذلك يسلم القصص إلى أصحابها، وكان الهدف من هذا التدقيق منع وقوع التحريف والتحايل والتزوير بما كان يأمر به الخليفة أو من يعهد إليه للنظر في المظالم.

ونتيجة لضمور مهام والي المظالم في بغداد بدأت تزدهر مهام ولاة المظالم في الولايات حسب اهتمامات الولاة وتوجههم الديني من حيث القوة أو الضعف، فبدأت تظهر دور العدل المخصصة للنظر في المظالم واقامة العدل، فكانت أول دار للعدل تظهر في دمشق اثناء حكم السلطان نور الدين زنكي، ثم أخذت تنشر فاقيمت دار للعدل في حلب في عهد الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي، واقيمت خمس دور للعدل في القاهرة أولها في عهد السلطان الكامل بن العادل الأيوبي، وآخرها ابتناها السلطان محمد بن قلاوون المملوكي.

وتُرجح المصادر سبب بناء دار العدل في زمن نور الدين إلى اقتناء امراء دولته بعد استيلاءه على دمشق الكثير من الأملاك، واستطالتهم على سكان دمشق، وخاصة اسد الدين شيركوه أحد كبار قادة نور الدين، فأمر ببناء دار العدل لامتناع الامراء عن القاضي.

الشرطة[1]

اختلفت المعاجم اللغوية في تفسير كلمة الشُّرْطة وتحديد أصلها اللغوي، وذهب أصحابها في توضيح معناها مذاهب شتى، ومن تلك التفسيرات أن الشرطة تعنى العلامة وجمعها أشراط، وأنها اطلقت على الشرطة لما كان يتميز به رجالها من شرط أي علامات ظاهرة، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: "فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها" [سورة محمد: ١٨]. وما جاء في كتاب إبراهيم الإمام بن محمد العباسي إلى أبي مسلم الخراساني من رجز، فيه:

دونك أمراً قد بدت أشراطه　　إن السبيل واضح صراطه

لم يبق إلا السيف وإختراطه

وهناك من يؤكد أن كلمة الشرطة جاءت من زي صاحبها، إذ كان صاحب الشرطة ينصب الأعلام على مجالسه، أي أن الشرط سموا بذلك لان لهم زياً خاصاً يعرفون به.

وقيل أيضاً أن الشُّرطة هم أول كتيبة من الجيش تشهد الحرب وتتهيأ للموت ويعزز هذا الرأي قول المغيرة بن الحارث في صفين مشجعاً أنصار علي بن أبي طالب:

يا شرطة الموت صبراً لا يهولكم　　دين ابن حرب فإن الحق قد ظهرا

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الشرطة انظر ابحاث الدكتور صالح درادكه حولها في مجلة دراسات التي تصدرها الجامعة الاردنية، فهي أهم ما صدر عنها حديثاً، واكثرها أصالة.

يعززه أيضاً أن إبراهيم بن مالك الأشتر كان يحرض جنده في معركة الخازر سنة ٦٧ هـ بقوله: "يا أنصار الدين يا شيعة الحق، يا شرطة الله هذا قاتل الحسين فمن الذي تبقون له جدكم واجتهادكم". [أنساب الأشراف: ٥/ ٢٤٩]

وقيل: سموا شُرَطاً لأن شرطة كل شيء خياره، وهم نخبة السلطان من جنده الذين يقدمهم على غيرهم من الجند، بدليل قول أوس بن حجر:

فأشرط فيها نفسه وهو معصم وألقى بأسباب له وتوكلا

فيما ذهب البعض إلى أنهم الدون من الناس أي أن الأشراط تقابل الأرذال، فيقال أراد برجالها الحرس والسفلة من الناس، بدليل قول الكميت الأسدي:

وجدتُ الناس غير ابني نِزارٍ ولم أر مثلهم شرطاً ودوناً

ويدعى كل رجل منهم باسم شُرَطِي وشُرْطِي، فقد قال الدهناء:

والله لولا خشية الأمير وخشية الشُرْطِي والتُّؤْثورِ

الشرطة في العصر الراشدي:

احتلت المؤسسات التي تعنى بالأمن مكانة خاصة منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، وقد تنوعت وظائفها وتعددت مسمياتها قبل أن تعرف باسم الشرطة والأمن، إلاّ أنها كانت تدور حول وظائف الحرس التي عرفت في الحضارات المصرية، والبابلية، والفارسية، والعربية اليمنية.

ولم تورد المصادر أي إشارة إلى أن الرسول ﷺ اتخذ الشرط، وإنما ذكرت الحرس والعسس، وهي ألفاظ عرفت في العهد النبوي والراشدي قبل أن يشيع استخدام نظام الشرطة، وقد ذكرت المصادر أسماء عدد من الصحابة ممن كانوا يحرسون الرسول ﷺ، نذكر منهم سعد بن أبي وقاص، ويُذْكر أن قيس بن سعد بن عبادة كانت مكانته من الرسول ﷺ كمكانة صاحب الشرطة من الأمير.

أما في عهد أبي بكر الصديق فظهر مصطلح العسس، وأول من عسّ ليلاً في عهده عبد الله بن مسعود ثم عمر بن الخطاب، وكان عمر يحرس المدينة بنفسه أثناء خلافته، فكان يعس ليلاً ويطوف شوارع المدينة ليتأكد من استتباب الأمن في طرقاتها، كما كان يتفقد أسواقها، وكان معه دائماً أثناء العسس مولاه اسلم، وأحياناً كان يصطحب معه عبد الرحمن بن عوف.

أقدم النصوص التي وردت بها كلمة الشرطة فهو حديث لعبد الله بن مسعود عن فتح رومية الكبرى ذكر فيه الشرطة، فقال: "فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلاّ غالبة" [صحيح مسلم: ١٨/ ٢٤]، ووردت كلمة شرطة في عهد عمر بن الخطاب في نص شعري لأبي شجرة بن عبد العزى قال فيه:

لما رهبت أبا حفص وشرطته   والشيخ يفزع أحياناً فينحمق

وذكر اليعقوبي أن منصب صاحب الشرطة وجد في عهد عمر بن الخطاب، وكان متوليه عبد الله بن عباس وذكر الكندي ان زكريا بن جهم العبدري كان صاحب شرطة عمرو بن العاص في مصر أثناء ولايته الأولى عليها ٢١-٢٥هـ/ ٦٣١-٦٤٥م.

ورغم الإشارات إلى وجود صاحب الشرطة في عهد عمر بن الخطاب فإن معظم المصادر الإسلامية تذكر أن عثمان بن عفان هو أول من اتخذ صاحب الشرطة، وأن صاحب شرطته عبد الله بن قنفذ التميمي العرشي، وظهر كذلك في عهد عثمان أصحاب للشرط في الولايات. فكان زيد بن جبلة السعدي صاحباً للشرطة في البصرة، وعبد الرحمن بن خنيس الأسدي ثم زرارة بن يزيد بن عمر، ثم ثابت بن قيس أصحاب للشرط في الكوفة، نصير بن عبد الرحمن بن يزيد صاحباً للشرط في بلاد الشام، وخارجة بن حذافة صاحباً لها في مصر.

وفي عهد علي بن أبي طالب ظهر نوع جديد من الشرطة، وهو ما سمي بشرطة الخميس، وهو ما دفع ببعض اللغويين إلى تعريف الشرطة بأنها أول طائفة من الجيش تشهد الوقعة، وسموا بشرطة الخميس لأن الجيش هو الخميس، ولما شهروا أنفسهم من بين سائر الجيش بالتبع له والقتال معه، وصاروا أعلاماً في ذلك، ويبدو انهم يماثلون ما يعرف بعصرنا الحالي بجهاز الشرطة العسكرية.

وهكذا ظهرت في عهد علي بن أبي طالب شرطتان في وقت واحد، الأولى الشرطة المعروفة وكان صاحبها في عهده معقل بن قيس الرياحي ثم مالك بن حبيب اليربوعي، والثانية شرطة الخميس (الشرطة العسكريّة) وكان صاحبها الأصبغ بن نباتة المجاشعي.

ويعتبر علي بن أبي طالب أول من بنى السجن في الإسلام وأجرى على أهله ما يقوتهم من طعام وكسوة في الشتاء والصيف، وذلك في العراق، في حين كان من قبله من الخلفاء يحبسون في الآبار أو في المساجد.

الاسباب الموجبة لظهور الشرطة:

تعددت الاسباب التي أوجبت ظهور الشرطة في الدولة الإسلامية إلاَّ أن جميعها تأتي في سياق تطور الدولة والمجتمع وتطور حاجاتها مما أدى إلى تطور مهام الشرطة ووظائفها، ومن أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الشرطة:

أولاً- حراسة كبار رجال الدولة، والحفاظ على حياتهم وامنهم، وقد حدث هذا الأمر منذ عهد الرسول ﷺ الذي كان يختار مجموعة من الصحابة لحراسته، وخاصة في المعارك، ثم تطور الأمر فأصبح الخلفاء يبالغون في الإكثار من الحرس الشخصي، بسبب كثرة الأعداء وحركات المعارضة.

ثانياً- حراسة مؤسسات الدولة من يد العابثين، واللصوص، والثوار الخارجين على الدولة، وخاصة الدواوين، وبيت المال، ومخازن السلاح.

ثالثاً- حماية السكان من اللصوص ليلاً ونهاراً.

رابعاً- معاونة الحكام وأصحاب المظالم والدواوين في حبس من أمروه بحبسه، وإطلاق من رأوا إطلاقه، وإشخاص من كاتبوه بإشخاصه.

خامساً- النظر في امور الجنايات، وإقامة الحدود والعقوبات، والتفحص عن أهل الريب والعبث والفساد وقمعهم.

سادساً- العمل على تثبيت السلطة الحاكمة، وتتبع الخارجين عن النظام.

سابعاً- إقامة الرصد على الطرق الخارجية للولايات لمراقبتها، ومتابعة العبيد الفارين من أسيادهم، والقبض عليهم وإعادتهم إليهم.

ثامناً: مساعدة عمال الجزية والخراج على تحصيل الأموال من المناطق الخاضعة لنفوذهم.

صفات صاحب الشرطة:

اشترط بمن يتولى منصب صاحب الشرطة التحلي بصفات معينة تميزه عن أقرانه، وتساعده على القيام بعمله، أهمها الولاء والثقة، وسلامة الحواس، بعض الولاة يشترطون شروطاً خاصة في صاحب الشرطة، كالحجاج الذي اشترط في صاحب شرطته أن يكون دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة، لايحنف في الحق على حر أو حرة، تهون عليه سبال الأشراف في الشفاعة [العقد الفريد: ٥/ ٢٥٩]. وجاء في وصية عبدالملك بن مروان لابنه عبد الله عندما ولاه مصر بعض الشروط الواجب توافرها في صاحب الشرطة، "منها" فول شرطتك أوثق قوادك، وأظهرهم نصيحة، وأنفذهم بصيرة في طاعتك، وأقواهم شكيمةً في أمرك، وأكفاهم أمانة، وأصبحهم ضميراً، وأرضاهم في العامة ديناً وأحمدهم عند الجماعة خلقاً، وأن يكون لديه رأي تجربة، وحزم في المكيدة، وصيت في الولاية، معروف البيت، وشهور الحسب" [صبح الأعشى: ١٠/ ٢٢٢].

مهام صاحب الشرطة.

إن المسؤولية العظيمة الملقاه على عاتق الحاكم تفرض عليه أن يستعين بمن يساعده، لأنه يعمل على حماية الكافة بالدفاع عنهم، ويعمل على كف عدوان بعضهم عن بعض، بتنفيذ الأحكام الرادعة فيهم، وكذلك يمنع العدوان على الأموال، فكان لابد من الاهتمام بمن يضبط الامور الداخلية، ويعمل على استتباب الأمن، فكانت وظيفة صاحب الشرطة التي اعتبرت من أهم الوظائف، ومن مهام الشرطة مايلي :

أ- حفظ النظام:

ويتم ذلك بالعمل على منع الفوضى والتجمعات في الطرق والسير في المواكب، ويقوم بمراقبة الأمير في تحركاته لحراسته واظهار هيبته، ومراقبة الدروب والشوارع ليلاً، كما كان يقوم بإغلاق ابواب المدينة بعد العشاء ويقوم بحراستها، كما كان صاحب الشرطة يتصدى للثوار ومحاولاتهم لقلب نظام الحكم، فهذا إياس بن مضارب يقتل وهو يحاول أخماد ثورة المختار، ويقوم كذلك بالقضاء على العناصر غير الموالية للأمير والتي تتهم بالتجسس عليه. وكان أبو عمرة صاحب شرطة المختار يقوم وشرطته بهدم دور المهتمين بالمشاركة في قتل الحسين بن علي، ومصادرة أموالهم.

ب- حفظ الأمن العام:

تصدى صاحب الشرطة للمفسدين واللصوص، فكان يقوم باعتقالهم

ومعاقبتهم عقوبات شديدة لمنع اضرارهم على المجتمع المسلم، فعند ما تولى عبد الرحمن بن عبيد التميمي شرطة البصرة للحجاج أخذ يتبع أهل الفساد، ونتيجة لشدته على المفسدين قل الفساد، فكان ربما أقام أربعين يوماً لايؤتى إليه بأحد. وكان صاحب الشرطة يراقب الطرق، ويضرب على أيدي قطاعها، ولم يقتصر دور صاحب الشرطة على المفسدين واللصوص، بل تعداه إلى محاربة مفاسد المجتمع من خمور وملاهي وغيرها.

ج- مهام حربية:

ظهر دور الشرطة الحربي منذ عهد علي بن أبي طالب، فظهرت شرطة الخميس كقوة ضاربة في وقعة صفين، واستمر دور الشرطة الحربي في العصر الأموي، فهذا صاحب شرطة مروان بن محمد كان معه في معركة الزاب. وكان من صلاحيات أصحاب الشرط حشر المقاتلة في المعسكرات تمهيداً للتوجه إلى المعركة، كما كان من ضمن صلاحياتهم معاقبة المتخلفين عن القتال.

د- إدارة السجون:

سمي الذين يشرفون على السجون بالسجانين وكان من مهمامهم: اتخاذ السجلات التي يثبت فيها أسماء المساجين ومواعيد خروجهم، وبملازمة المساجين وتفتيش ما يدخل إلى السجون من أطعمه وغيرها، وكانت دوريات الشرطة تراقب السجون، وتحفظ النظام بها، ويُذكر أن العقوبة كانت تضاعف لمن يتكرر سجنه.

أصناف الشرطة:

أ- الحرس:

وهم أنواع فمنهم الحرس الشخصي للخليفة وأقربائه، أول من اهتم بهذا النوع بكثرة معاوية بن أبي سفيان، كانوا يسهرون على حماية الخلفاء والأمراء سواء أثناء صلاتهم أو نومهم، أو في مجالسهم ومواكبهم، ومنهم أيضاً حرس الأبواب الرئيسية للبلد وأسواره، ومنهم حرس المساجد، الذين اوكلت إليهم مهمة حماية المساجد، واخراج الناس منها ليلاً واقفالها، ومنهم أيضاً العسس وقد ظهروا منذ عهد أبي بكر وحرس الأسواق والشوارع ومهماتهم حماية المحلات التجارية من التعديات

ب- المعونة:

وهم نوع من الشرطة، وقيل: تطلق على الشرطة لما تحويه من معان فرحاً بما يقومون بمعاونة الحكام فيما يكلفونهم به من الامور، بل ويعاونون أفراد الشعب فيما ينشدون من احقاق الحق أو دفع الضرر.

جـ- الجلواز:

وردت هذه الكلمة مرادفة لكلمة شرطي، فالجلواز بالكسر تعني الشرطة وكان الجلاوزة يقفون بين يدي الخلفاء عند تنفيذ أحكام الموت وعلى رأس القضاة وبأيديهم السياط، وأخذوا اسمهم من جلز وهو العقب المشدود بطرف السياط.

د- أصحاب المآصر:

وهي مواضع خاصة بالمكوس أقيمت في أماكن متفرقة على ضفاف الانهر حيث كان يمد حبل او سلسلة بين ضفتي النهر لمنع مرور السفن قبل اخذ الضريبة (العشور) منها، وكان يتواجد فيها دائماص شرطة مختصون لتسيير الأمور وضبطها.

هـ- السجانون:

يشرفون على السجون، ويحرسونها، ويسهرون على منع السجناء من الفرار منها.

وتبين المعلومات التي تحويها المصادر عن الفترات التاريخية المختلفة للشرطة عن مدى التنظيم الذي كانت عليه مؤسسة الشرطة، ونجاحها في الحفاظ على الأمن والاستقرار في العواصم والمدن، رغم بعض فترات الاضراب السياسي الذي ينجم عنه إضراب في إحلال الأمن والاستقرار.

الجهاز العسكري[1]

المقاتلة

مفهوم المقاتلة

حرّم الله القتال على النبي -ﷺ- وأصحابه قبل الهجرة، بسبب ضعف المسلمين وقلة عددهم، وبعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة وأسسوا فيها

---

(١) أعد هذا العنوان من هذه الوحدة د. نوفان الحمود

دولتهم، أذن الله لهم بالقتال دفاعاً عن دينهم، وتبليغ الناس كلمة التوحيد ودفاعاً عن أنفسهم. فالحرب في الإسلام لم تكن حرباً عدوانية بل حرباً دفاعية. وقد بين القرآن الكريم في مواضع متعددة الأسباب التي من أجلها شرع الله القتال، وأذن للمؤمنين في الحرب والجهاد، قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ (الحج: ٣٩-٤٠)، وقال تعالى: (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (البقرة: ١٩٠-١٩٣)، وقال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (الأنفال: ٣٩).

وقال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها، وحسابهم على الله» (صحيح مسلم: ١: ٣٤).

بواعث القتال

يتضح لنا أن أهم البواعث التي دفعت المسلمين للقتال هي: (القوصي: ٦٧، شلبي: ١٤٧).

١- الدفاع عن النفس عند التعدي.

٢- الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها، بفتنة من آمن، أو بصد من أراد الدخول في الإسلام، أو بمنع الداعية من تبليغ دعوته.

٣- محاربة من ينقض العهد.

أما فيما يتعلق بالمنافقين الذين استمروا على موقفهم من الإسلام، فقد أمر الرسول -ﷺ- أن يقبل ما يعلنون، وتترك سرائرهم وما يخفون إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، كما أمر أن يعرض عنهم وأن يغلظ لهم في القول. ووضع القرآن الكريم المنافقين في موضعهم حين أخبر الله -سبحانه وتعالى- بأنه لن يغفر لهم. وأما أهل البلاد المفتوحة فقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة (النيراوي: ٢٢٠) وقد مثلت وصايا النبي سُنّة يقتدي المسلمون بها في فتوحاتهم، فكان -عليه الصلاة والسلام- يوصي سراياه المقاتلة، فقد روى عنه قوله: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً، ولا تنتهبوا. فمن انتهب نهبة فليس منا ولا تفرقوا بين الولد وأمه». وسار الخلفاء على نهجه عليه الصلاة والسلام في أثناء الفتوحات..

مفهوم القتال

أطلق على المجاهدين الذين تطوعوا للجهاد امتثالاً لأوامر الله وحباً في النصر أو الشهادة اسم المقاتلة.

لم يعرف العرب في جزيرتهم قبل الإسلام نظاماً خاصاً للمقاتلة (الجند) لبداوتهم، فكان كل رجل قادر على حمل السلاح يفزع مع قبيلته غازياً أو مدافعاً، حاملاً سلاحه التقليدي من سيف وترس ورمح وقوس، يقودهم زعيم ألف القتال، وغالباً ما يكون هذا الزعيم رئيس القبيلة. ولم يعرف تنظيم الجيوش من العرب إلا أولئك الذين كانوا على صلة مع الفرس كالمناذرة، أو مع الروم كالغساسنة الذين كانت لهم فرق خاصة للقتال (الرفاعي، ٢٥١).

ولما جاء الإسلام وأذن للمسلمين في القتال في سبيل الله، تطوع كل مسلم قادر على حمل السلاح للمشاركة في القتال، مدفوعين بحب دينهم وتبليغه إلى الناس والاستشهاد في سبيل الله، وقد تكوّن الجيش أيام الرسول -ﷺ- من المهاجرين والأنصار، وسمح الرسول للنساء المؤمنات المشاركة في القتال لخدمة الجند، وتمريضهم وتحميس الجيش، ومنهن من حمل السلاح للدفاع عن النبي عليه الصلاة والسلام (الباشا، ٧٦).

واعتنى الخليفة عمر بن الخطاب بأمر المقاتلة، وبخاصة بعد أن توسعت الفتوحات الإسلامية. ولكي يتفرغ المسلمون لأمر الجهاد، فقد أنشأ ديواناً خاصاً سماه «ديوان الجند» للإشراف على شؤون المقاتلة، مع بيان أسمائهم وأوصافهم وأعمارهم ومقدراً أرزاقهم السنوية، إضافة إلى ما يصيبهم من أسهم الغنائم، مع بقاء باب التطوع مفتوحاً لمن لم يسجل اسمه في الديوان من سكان البوادي والأمصار.

الجيش

عناصر الجيش

تطور الجيش في عهد الخلفاء الراشدين لجعله يتلاءهم وحركة الفتوح، وخاصة أن الفتوحات تطلبت قوة بشرية ومادية استطاع الخلفاء توفيرها، فقد زادت أعداد المقاتلين بعد حروب الردة وتوحيد الجزيرة العربية، إذ ارتفع عدد المقاتلين من عشرة آلاف فارس وعشرين ألفاً من المشاة إلى خمسة أربعين ألف مقاتل، وهم الذين شاركوا في فتوح الشام والعراق وجميعهم من المتطوعة، وقد رتبهم الخليفة أبو بكر الصديق في تنظيمات عسكرية، وجعل على رأس كل تنظيم من الجند قائداً أوصاه بجنده وبأهل البلاد المفتوحة خيراً. (النبراوي، ٢٢٨-٢٢٩).

وحرص قادة الجيوش الإسلامية فيما بعد في أثناء فتوحاتهم على تمثل هذه الوصايا، فكانوا يخاطبون أهل البلاد المفتوحة بدعوتهم إلى الإسلام فإن أجابوا فيها، وإلا طلبوا إليهم دفع الجزية، فإن قبلوها قبلها منهم المسلمون، وأصبحوا في ذمة المسلمين ولهم حق الحماية، وإن رفضوا كان ذلك سبباً في إعلان الحرب حتى يكون الدين كله لله.

وحرص الخليفة عمر كذلك على راحة الجند، وحتى لا يرهقهم المسير إلى أرض العدو وينتقض من قوتهم، فقد أقام الحصون والمعسكرات الدائمة لهم ليستريحوا فيها، وأصبحت فيما بعد أمصاراً؛ كالبصرة والكوفة والفسطاط.

وأبدى الأمويون اهتماماً كبيراً بالجيش وزادوا عدده واعتمدوا على

العنصر العربي، وحافظوا على القواعد التي أرساها الفاروق للجندية والديوان، وأصبح الجيش يأخذ شكلاً نظامياً كانت نواته حرس الخليفة، وكان الجيش المرابط في دمشق من العرب الذين استقروا في بلاد الشام، واعتمد الأمويون في إمداد جيشهم بالعناصر المحاربة على عرب البادية، وربما كانت رغبة الأمويين في إقامة قصور لهم في بادية الشام، وإقامتهم فيما بعض أيام السنة هو لتجنيد عناصر جديدة من البدو، إضافة إلى استمرار البصرة والكوفة كمركزين للتجنيد في الولايات الشرقية، وقاتل في صفوف الجيش إلى جانب العرب أعداد من الموالي الذين انتسبوا إلى القبائل العربية (الباشا، ٧٧)، وعندما شعر الخليفة عبد الملك بن مروان بأن هناك تقاعساً من العرب الذين استقروا في الأمصار، وبأن الروح العسكرية أخذت تخبو، فرض التجنيد الإجباري، ونظم الجيش تنظيماً دقيقاً مستعيناً بخبرة الحجاج بن يوسف الثقفي واليه على العراق. (الرفاعي، ٢٥٢).

وأخذ استخدام العنصر العربي في الجيش يقل أيام الدولة العباسية، مقابل الاعتماد على عناصر جديدة معظمها من الفرس والأتراك، وتم الاستغناء عن العرب نهائياً في عهد الخليفة المعتصم (ت ٢١٨هـ-٨٣٣م) الذي اتخذ جيشاً كل أفراده من الأتراك، واستكثر منهم وانتقل بهم إلى عاصمة جديدة هي سامراء، واستفحل أمر هؤلاء عندما عزل المعتصم القادة العرب والفرس، ومحا أسماءهم من ديوان العطاء، وكانت النهاية أن استأثروا بالحكم وأصبح الخليفة لا سلطان له.

وكان للسلاجقة في المشرق الإسلامي دورهم في صقل النظم العسكرية وصبغها بصبغة ميزتها على غيرها من النظم، ولا شك أن الإقطاع

الحربي كان إحدى السمات الهامة التي ميزت النظام العسكري السلجوقي، حيث خصصت للجند اقطاعات يأخذون ناتجها على أن يؤدوا جزءاً من الإيراد للدولة، وانتقل النظام العسكري السلجوقي إلى بلاد الشام والعراق، وتأصلت في ظل الأتابكة (الأسرة الزنكية) والأسرة الأيوبية الذي نقله صلاح الدين الأيوبي من بلاد الشام إلى مصر (الباشا، ٧٨٠٧٧). وانضم إلى جيش صلاح الدين متطوعون وضعوا أنفسهم تحت تصرف الجيش حباً بالجهاد ورغبة في تحرير الأرض الإسلامية، وكانت مهمتهم الإحاطة بجناحي العدو، أو الإغارة عليه وإزعاجه وعرقلة تجمعاته وتخريب قواعد تموينه أو مطاردته (حسين، ١٥٨).

وقد أولى قادة الجيوش التموين عناية كبيرة، واجتهدوا في تأمينها والمحافظة عليها من التلف وحماية طرق الإمداد، وذلك عن طريق مرافقة القوات العسكرية لقوافل التموين التي تكون عادة بطيئة الحركة. وكانت مسألة التموين تحدد مصير الحملات، بل وتحدد مصائر مدن. (حسين، ١٢٦-١٢٧).

التسليح والتموين

وكان الجيش الإسلامي من حيث التسليح ينقسم إلى ما يأتي:

١- **الفرسان (الخيالة):** كانوا السلاح الطليعي وأداة حسم المعركة، وتألفت منهم معظم الجيوش العربية في العهود الإسلامية الأولى، والفرسان عصب الجيش وكانت مهمتهم الرئيسة الهجوم والاستطلاع

ومطاردة العدو وقطع طرق العودة عليه. وكان يتم اختيارهم من أهل التضحية والنجدة والتجربة في الحرب، ويقوم الفرسان بنجدة المواضع المعرضة للخطر المفاجىء، فيلتفون على العدو ويطوقونه ويتسلح الفرسان بالرماح، وتشكلت منهم فرقة مشهورة لرمي السهام من فوق هور الخيل في العهد العباسي، ومن أسلحة الفرسان في الجيش الأيوبي الحربة والوهق والدبوس، وعرف هؤلاء بالخيالة الثقيلة المدرعة، ومنهم تشكل سرية الطليعة التي تلبس الدروع والخوذ، ويحملون الرماح التي تركّب على أسنتها باقات من ريش النعام تتقدم الجيش بعد أميال لمعرفة أخبار العدو، ومعرفة المسالك خوفاً من هلاك الجيش.

٢- **المشاة (الرجالة)**: يأتي دورهم بعد هجوم الفرسان، يقاتلون العدو ويلتحمون معه لتحطيم قوته الرئيسة، ويؤلف المشاة القسم الأعظم من قوة الجيش، وتقع عليهم أعباء القتال وتحمل مشقاته ونتائجه، أسلحتهم خفيفة لأنهم يسيرون على أقدامهم، فسلاحهم السيوف والأقواس والرماح القصيرة. ومن مهام المشاة حماية الجيش في أثناء المسير للحيلولة دون مداهمته من قبل العدو، وحراسة القوافل التي تحمل المؤن والعتاد في أثناء تنقلها، وامتاز المقاتل العربي بجرأته وثباته في القتال.

٣- **الحرس الخاص**: مهمتهم حراسة الخليفة أو أمير الجيش، وقد شاع استخدام مثل هذه الفرق أيام الدويلات المنفصلة.

٤- **الغلمان**: فرقة مهمتها خدمة الخليفة، تم تشكيلها بعد أن كثر اقتناء

المماليك، وتدربت هذه الفرقة على مختلف الفنون الحربية، وكانت تقيم في ثكنات منفصلة عن ثكنات باقي الجيش.

٥- **النشابون أو الرماة (حملة الأقواس):** اشتهرت منهم فرقة تدعى «رماة الحدق» لمقدرتهم على رمي إحدى عيني الغزال، وكانت هذه المهارة في الرمي مشهورة عند العرب منذ الجاهلية، وتشكلت فرق وسرايا مستقلة من الرماة كانت تجيد الرماية إلى درجة كبيرة، فقد كان لخالد بن الوليد فرقة من الرماة عندما حاصر أهل الأنبار سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م، وطلب من الرماة أن يتوخوا عيون الأعداء، فرموا رشقاً واحداً فأصيبت ألف عين فسميت تلك الوقعة «ذات العيون»، وكان في البصرة فرقة رماة البخارية، وغالباً ما كانت المعارك تبدأ بالتراشق بالنبل لإيقاع أكبر الخسائر في صفوف العدو، ودورهم في الدفاع أكثر منه في الهجوم لأن الرامي يكن في حالة الوقوف والثبات أكثر دقة في الرمي (الجانبي، ١٢٣-١٢٤).

٦- **النفاطون:** الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء.

٧- **المنجنيقيون:** رماة المنجنيق وكانوا يسمون أيضاً المهندسين، وكانت مهمتهم قذف حصون الأعداء وقلاعهم بالمنجنيق في أثناء الهجوم، أو رمي الجيوش المهاجمة.

٨- **العيارون:** وهم رماة الأحجار بوساطة المخالي.

وصنف المقاتلة حسب الرواتب التي كانوا يتقاضونها إلى قسمين هما: (عواد ٥٤-٥٩؛ الباشا ٧٨-٧٩).

١- أهل الديوان: وهم الذين يتقاضون رواتب دائمة من الأعطيات، وكان يطلق عليهم الجيوش الدائمة (المرتزقة).

٢- المتطوعة (الاحتياط): وهم الذين يتطوعون للقتال في الأيام العصيبة، وباستطاعتهم العودة إلى ديارهم عند انتهاء القتال، وكانوا يتقاضون رواتبهم عن مدة التطوع. (الرفاعي: ٢٥٣-٢٥٧).

ومنذ العهد السلجوقي، أصبح أصحاب الاقطاعات الركيزة الأساسية في الجيش، وأصبح يطلق عليهم «الجيش النظامي»، بينما كان الجند المرتزقة يتقاضون رواتبهم نقداً لمدة معينة (النبراوي، ٢٣٣).

الخدمات المساعدة

ارتبط بالجيش مجموعة من الخدمات المساعدة، وكل واحدة منها تؤدي واجباً محدداً يكون الهدف منها تسهيل حركة الجيش وحمايته من المخاطر وإعاقة جيش العدو، وهذه الخدمات:

الأدلاء:

وهم الذين عرفوا المسالك وأماكن المياه، ومهمتهم إرشاد الجيش إلى أفضل الطرق وأيسرها، وقد أدرك العرب منذ أيام الرسول -ﷺ- أهمية الأدلاء في العمليات العسكرية، وفي تأمين المجاهدين قبل الدخول في حرب مع أعدائهم.

الحاشر:

مهمته حشر الجند وعدم السماح لأحدهم بالتخلف وحماية الساقة من الخلف، ويكون موقعه في الساقة في مجموعة من الفرسان.

العيون (الجواسيس):

وهم فرقة استطلاع مهمتها رصد تحركات العدو، والحصول على أخبار عنه لازمة للجيش، فيعرف نيات العدو ويضيف إلى معلوماته معلومات جديدة تفيده في وضع الخطط، واتخاذ قرار صحيح مبني على المعلومات الصحيحة في وقت كاف، ويمكن أن نضيف إلى ذلك البريد الذي أدخل عليه الأمويون تحسينات كثيرة لأهميته في نقل المعلومات والأخبار ويشترط في اتخاذ العيون أن يكونوا أهل ثقة، كما اشترط في بعض عهود الصلح على أهل البلاد المفتوحة أن يكونوا عيوناً ينذرون المسلمين بتحرك أعدائهم، وعلى القائد أن يتحرى عن صحة المعلومات التي يأتي بها العين.

الفعلة (المهندسون، المعماريون، العمال)

كان المسلمون في أول أمرهم يقومون بواجب الجهاد، إضافة إلى الأعمال الزخرى؛ كحفر الخنادق وردمها، وإقامة التحصينات، وهدم جدار مدينة أو حصن، والزراعة ورعي الماشية، وعنمدا توسعت الفتوحات وكثر الرقيق استعانوا بهم على الأعمال الأخريك كتعهد الجمال والخيل وحزم الأمتعة وحراستها في المسير والإقامة، وتمهيد الطرق وحفر الخنادق والقبور، وسد الطرق الجبلية في أثناء عمليات القتال، وإقامة القناطر والجسور على الأنهار، وإزالة الثلوج وغير ذلك.

الشعراء:

كان الجيش يكثر في عهد الرسول -ﷺ- والخلفاء الراشدين من قراءة القرآن الكريم، وكانوا يكثرون من تلاوته في حروبهم عوضاً عن الشعر، فكان القراء يتفرقون بين صفوف المقاتلين ليقرأوا عليهم القرآن الكريم تحميساً لهم على الجهاد. وأضاف بنو أمية إلى القراء طائفة من القصاص والشعراء الذين كانوا ينتشرون بين صفوف الجند ليقصوا عليهم قصص أمجاد أسلافهم، ويلقون الشعر الحماسي، فتسري في الجند عزيمة الأبطال ويسارعون إلى القتال. وكان الجيش يضم بين صفوفه أيضاً الخطباء والوعاظ الذين يثيرون الحماس وينشرون روح الفداء ويرفعون معنويات الجند. وكان يرافق الجيش في حملات صلاح الدين الأيوبي فرقة موسيقية، تسير في مقدمة الجيش المتجه للحرب تضرب على الطبول لاستثارة حماس الجنود. (علي ٩٧-١٦٦).

الخدمات الطبية (مستشفيات الميدان):

اقتصرت مهمة العناية بالجرحى في البداية على النساء المتطوعات اللاتي سمح لهن الرسول الكريم بمرافقة الجند، إضافة إلى مشاركتهن في القتال أحياناً. وبعد توسع الفتوحات أصبح يقوم بهذه المهمة أطباء وممرضون مختصون. فكان الجريح ينقل إلى مكان آمن لتلقي العلاج، وهذا المكان يتكون من مجموعة من الخيام، ويكون في هذا المخيم صيادلة لتركيب الأدوية وإعدادها، إضافة إلى النساء اللواتي يقمن بسقاية المحاربين وحمل الماء لهم وإعداد الطعام للمحاربين، وكان صلاح الدين الأيوبي يصطحب معه في أثناء مقارعته الفرنج عدداً من الأطباء. (النبراوي، ٢٢٤. حسين، ١٦٤-١٦٥).

المعسكرات والثغور:

مر بك -عزيزي الدراس- أن الجيوش الإسلامية عند فتحها العراق ومصر، قد اتخذت لها في هذين البلدين معسكرات خاصة بها في البصرة والكوفة والفسطاط، وكان ذلك نتيجة سياسة اختطها الخليفة عمر بن الخطاب، وهي أن لا يختلط الجند الفاتحون بسكان البلاد المفتوحة، واشترط أن لا يكون بينه وبين هذه المعسكرات بحر أو نهر ليبقى على اتصال مع هذه القوات. ونتيجة لاستمرار توافد القوات العسكرية مع أسرهم واستقرارهم في هذه المعسكرات، فقد أصبحت أشبه بمدن كبيرة. وكانت هذه أول مراكز أقامها الفاتحون العرب في البلاد المفتوحة.

وكان العرب كلما تقدموا في الفتح، أقاموا في نهاية توسعهم معسكراً لتجميع قواتهم ليتولى حراسة الحدود، وقد أطلق على مثل هذه المعسكرات الثغور أو العواصم، وأقام في الثغر علاوة على الجند عائلاتهم، وكان يتولى قيادة الثغر قائد كفء. وكانت الدولة تكثر لهم من الأرزاق والمرتبات، وتزودهم بالأسلحة اللازمة، وأصبحت هذه الثغور بمنزلة معسكرات دائمة بل مدن محصنة، وكان الجند فيها على أهبة الحرب للدفاع عن الحدود العربية، أو للهجوم على العدو وغزو بلاده، وأشهر هذه الثغور: طرسوس، بياس، مرعش، المصيصة، ملطية، زبطرة، منبج في بلاد الشام، رفح، العريش، دمياط، الإسكندرية في مصر.

وكانت الثغور بالأندلس هي تلك المناطق المتاخمة للممالك القشتالية، وعرفت الجيوش المرابطة فيها بجيوش الثغر، كان يتولى قيادتها قائد عسكري قوي عرف أيضاً بأمير الثغر.

وكان عدد الجيش المرابط في الثغر وقت الصيف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة عندما تغزو هذه الثغور بلاد العدو، وقد عرفت مثل هذه الغزوات بالصوائف. وكان قليل منها يتم في الشتاء وتسمى الشواتي، وعلى سبيل المثال بلغ عدد فرسان إحدى الصوائف بالأندلس ٤٦ ألف فارس. وكانت الغاية من هذه الهجمات إنهاك قوى العدو وتدمير اقتصاده وتجميع معلومات عن قواته.

إن الثغور تعطينا فكرة واضحة عما لدى المسلمين من فن استراتيجي، فقد كانت الثغور تقام على أبواب الطرق لتتحكم في أماكن اقتراب العدو، ومحصنة بمنعطفات الجبال أو بالخنادق أو بمواقع طبيعية أو اصطناعية.

الأسلحة

استعمل العرب قبل الإسلام من الأسلحة السيف والرمح والحربة والقوس والسهم (النشاب) والدرع والخوذة، واستمر استخدامها في صدر الإسلام، واهتمت الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ، اهتماماً بالغاً بالسلاح وأعطته كل عنايتها، وبذلت الجهود في سبيل إعداده وتطويره وفقاً لمتطلبات واحتياجات المعارك، وتعهدت الدولة الجند بكل ما يحتاجون إليه من سلاح ومؤن، وأهم الأسلحة الدفاعية والهجومية التي استخدمت:

القوس:

تستخدم لرمي السهام (النبال، النشاب) في أول الحرب، وهو سلاح هجومي ودفاعي، وكان الرماة أهم عناصر المشاة في الجيش، وكان أجود

الأقواس ما صنع من خشب خفيف وصلب، وقد أصاب خالد بن الوليد يوم أحد من المسلمين مقتلاً بوساطة رماته، واشتهرت جزيرة العرب بصناعة السهام. وكان لها سوق بالمسجد النبوي في المدينة. وللسهام حافظة تسمى الكنانة أو الجعبة. وقد اصطنع العرب المسملون لرمي السهام أنبوبة من حديد أو من خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً، ولعلهم أخذوا ذلك عن الفرس.

الرمح:

وهو قضيب من الخشب ركب فيه سنان الحديد، وللرماح أسماء تعبر عن أنواعها فمنها: صعدة وتقال للرمح المستوي، والعنزة إذا كان أقصر من العصا وأطول من الرمح، ومنها النيزك والمطرد ويقال للرمح الطويل السمهرى. وأجود الرماح الصلب المستقيم الذي لا ينثني. والرماح من الأسلحة الهجومية التي يستخدمها المشاة والفرسان.

السيف:

ويعدّ عند العرب من أشرف الأسلحة الحربية، وأحبها إلى نفوسهم، ويعتزون به ويمجدونه، وأطلقوا عليه أسماء متعددة في لغتهم وأشعارهم تجاوزت المائة اسم منها: الأبيض والمهند، المشرفي والسريج. والسيوف على أنواع منها: البصروية واليمانية والقلعية والهندية والسليمانية والخراساني والمشرقية والدمشقية. ومن سيوف الأندلس البرذلية التي اشتهرت بجودتها، وتفنن الأندلسيون بصناعة مقابضها. وكانت السيوف البيزنطية أمتن، لذلك كان العرب إذا أصابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره وتوارثوه كسيف ذي الفقار لعلي بن أبي طالب الذي توارثه آل أبي طالب إلى

أن أخذه المهدي ثم الهادي فالرشيد، والصمصامة لعمرو بن معدي كرب، ومن ملحقات السيف التي تستخدم عند الالتحام بصفوف العدو: الخنجر والسكين والفأس والبلطة والدبوس.

الدرع (الجوشن):

وهو سلاح وقائي عرفه المسلمون واستخدموه، والدرع هو القميص الذي يلبسه المحارب، ويسنع من حلقات حديدية رفيعة، ومن صفائح الحديد التي تغطيه من الرقبة إلى الركبتين، ويصمد الدرع أمام ضربات السيوف وطعنات الرماح ورميات السهام، ويحمي المقاتل. ويكمل الدرع البيضة (الخوذة) التي يلبسها المحارب على رأسه ويلبس تحتها قلنسوة من الزرد وتسمى المغفرة.

الترس:

ويسمى أيضاً المجن وهو سلاح وقائي عرفه العرب منذ القدم، وكانوا يصنعونه من جلد الإبل أو البقر أو الخشب وينقشون عليه عبارات لتزيينه. وفي الأندلس اتخذ المسلمون دروعاً مستديرة من الفولاذ تحمل باليد لتلقي ضربة السيف، ومن أنواع التروس الدرق، واشتهر في الأندلس الترس الغرناطي والترس السلطاني.

واستعمل العرب في عصر الحروب الصليبية الترس المستدير الذي يسهل حمله، وتفنن الصناع في صنعه وزينوه بنقش الآيات القرآنية عليه والحكم والأشعار، واستخدموا تروساً استعملها الأفرنج عرفت بالطارقيات.

الحسك (المثلثات):

وهو سلاح وقائي وفعال في إعاقة العدو، يفرش الحسك حول المواضع القريبة من الجيش للحيلولة دون اقتراب العدو، وكان الحسك في البداية أداة خشبية، ثم أصبح أداة حديدية ذات شعب ثلاث أو أكثر مستدق الأطراف شبيه بأشواك الحسك الإبرية، تغرز شعب منها في بطن الأرض، وتبقى باقي الشعب فوق الأرض لتعيق تقدم المهاجمين من خيالة أو مشاة، وكانت تزرع حول الخنادق وفي الأماكن الضيقة والممرات.

المنجنيق:

استخدم هذا السلاح منذ أيام الفينقيين، وهو آلة هجومية تستخدم في حرب الأسوار والتحصينات لردمها وخلق ثغرات فيها، بوساطة قذفها بالحجارة بصورة متتالية، وأول من استخدمه في الإسلام الرسول ﷺ في أثناء حصاره الطائف في السنة الثامنة من الهجرة (٦٢٩م)، وكثر استعماله في فتوحات الأمويين، وكان المنجنيق يرافق الحملات العسكري محمولاً على ظهور الجمال أو الخيل، وعظم خطر المنجنيق بعد أن استخدم في قذف النار الإغريقية، فقد أرعبت مجانيق جيش صلاح الدين الصليبيين؛ إذ وصفه أحد مؤرخيهم بقوله: «كان يبدو ذلك كأنه صاعقة تسقط من السماء، كأنما تنين يتطاير في الهواء، وكان يقذف نوراً باهراً لدرجة أنه كان يضيء داخل عظمنا كالنهار لشدة ما كان هناك من لهب شديد»، وقد وصل المنجنيق درجة كبيرة من الدقة في العصر المملوكي، وصار بوسع الرماة أن يتحكموا في رميه بوساطة تحديد المسافة.

أفضل طريقة للوقاية من خطر المنجنيق هو عمل خنادق واسعة لإبعاده

عن الحصون، أو أن يكسى الجزء العلوي من السور بالخشب الصلب الذي لا تخترقه الحجارة.

الدبابة:

كان استخدامها أقدم من المنجنيق، فقد استعملها المصريون القدماء والآشوريون واليونان والرومان والفرس والعرب، وترد إشارات تاريخية إلى أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أوفد جماعة من أصحابه إلى اليمن ليتعلموا صنع الدبابة والمجانيق وأدخل عليها المسلمون تحسينات كثيرة. والدبابة مغطاة باللبود والجلود المنقعة في الخل حتى لا تؤثر فيها النار، وتركب على عجلات ويصعد الند إلى أعلاها للنزول فوق الأسوار، كما تستخدم في هدم الحصون بوساطة خشبة عظيمة موصولة بحبال تجري على بكرة، وفي طرف الخشبة رأس مصنوع من المعدن الصلب يدفعه الجنود وهم داخل الدبابة بقوة نحو السور، فيضرب الرأس السور ضربات قوية متوالية عدة محدثاً به ضرراً بالغاً. وكان يتم اتقاء خطر الدبابة بوساطة الخنادق العريضة، أو رميها بالنار من فوق الأسوار، أو صب الزيت الحار عليها.

الخيل:

الخيل سيدة الميدان، صالحة للقتال في الأراضي المشكوفة، وظهورها حصون لراكبيها عند الكر والفر لما تمتاز به من سرعة، ولها استخدامات عديدة في الميدان، ونقل البريد بسرعة فائقة. وأدت الخيل دوراً رئيساً في حروب المسلمين مع أعدائهم. ولأهمية الخيل في الحروب، فقد خصص لها موظف كبير في الأندلس سمي «صاحب الخيل» أوكل إليه أمر رعايتها وتنظيمها وتجهيزها، ومن التعديلات التي أضافها المسلمون للمحافظة على

الخيل التجافيف، وهو لباس يغطي جسم الفرس، وأحياناً يبطن باللبود بعد نقعها بالخل لحمايتها من الضربات أو الحريق.

الإبل:

كانت الإبل عماد حياة العربي في السلم والحرب نتيجة لظروفه الطبيعية، فهي تساعدهم على عبور الصحراء، ومن وبرها تصنع الخيام، وتقدم غذاء للمقاتلين، وتحفظ الماء بداخلها لإروائهم في أثناء عبورهم الصحراء والمسافات الطويلة، تدرب على القتال ويُحتمى بها من الأسلحة، حيث توضع حول المعسكر كالحصن وعلى ظهورها تم نقل معدات القتال والمؤن والأمتعة، وقد عرف أحد أقسام الجيش الأموي بالإبالة؛ أي المحاربين على ظهور الإبل.

الأسطول

تطور الأسطول الإسلامي

سمى العرب مجموع السفن أسطولاً، وهو تعريب للفظة "Stolos" اليونانية، كما أطلقوه على المركب الواحد. وقد عرف العرب في جنوب الجزيرة وشرقها وغربها قبل الإسلام بناء السفن وركوب البحر نظراً لإحاطة البحار ببلادهم: البحر الأحمر من الغرب، والمحيط الهندي من الجنوب، والخليج العربي من الشرق. وكان لهم دور مميز في التجارة البحرية؛ إذ تاجروا مع الهند والصين وشرق أفريقيا. وحدث أن أغار عرب البحرين في عام ٣١٠م بحراً على الإمبراطورية الفارسية، وكانت أول غزوة بحرية في

الإسلام تلك التي قادها العلاء الحضرمي والي الخليفة عمر بن الخطاب على البحرين وعمان على بلاد فارس، لكنها فشلت بسبب تحطم معظم سفنه، وكانت من الأسباب التي دعت الخليفة أن لا يسمح لولاته أو عماله أن يغزوا عن طريق البحر.

اهتم العرب المسلمون بالبحر بعد فتحهم بلاد الشام ومصر؛ إذ كانت سواحل هذه البلاد معرضة لهجوم سفن البيزنطيين بصورة مستمرة، فأرادوا الدفاع عن هذه السواحل، مع رغبتهم في غزو بلاد أعدائهم بحراً وملاحقة سفنهم في عرض البحر، وكان أكثر الولاة حماساً لذلك معاوية بن أبي سفيان والي الشام، فقد كتب إلى الخليفة يطلب منه ذلك إلا أن طلبه رفض، وأعاد معاوية طلبه مرة ثانية أيام عثمان بن عفان ولإلحاح معاوية وافق الخليفة له بركوب البحر شريطة أن يركب معاوية وزوجته مع المسلمين، وكان ذلك في سنة ٢٨هـ/ ٦٤٨م فأقلع أسطولان بقيادة معاوية، أحدهما من عكا والآخر من الإسكندرية، متوجهان إلى قبرص ففتحها وصالح أهلها. وأدرك المسلمون أنهم قادرون على مجاراة أعدائهم في البحر كما في البر والتغلب عليهم، وقد تحقق لهم ذلك سنة ٣٤هـ/ ٦٤٥م عندما حطم الأسطول الإسلامي الذي بلغ عدد سفنه ٢٠٠ سفينة الأسطول البيزنطي وألحق به خسارة فادحة في معركة «ذات الصواري» فزاد هذا النصر من معنوية المسلمين وجدتهم لركوب البحر، وأوحى إليهم بفكرة صنع أسطول كبير ليكونوا أسياد البحر.

وشهد الأسطول الإسلامي تطوراً كبيراً في العهد الأموي، وأصبحت له السيادة في البحر الأبيض المتوسط، وقد حاصروا القسطنطينية عاصمة

البيزنطيين بحراً مرات عدة لكنهم لم يفلحوا بفتحها.

وزادت قوة المسلمين البحرية في العصر العباسي، واستمرت سيادتهم على البحر المتوسط وغزوا سواحل الهند سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م، عبر المحيط الهندي وفرض الخليفة المتوكل على الله الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر. واهتم العرب في الأندلس بأمر البحرية، وخاصة بعد أن غزا النورمان السواحل الأندلسية سنة ٢٢٩هـ/ ٣٨٣م؛ إذ أمر عبد الرحمن الأوسط بتحصين السواحل وإقامة المراقب والمحارس فيها، وإنشاء دار لصناعة السفن في أشبيلية، ودار لصناعة الأسلحة اللازمة للسفن في قرمونه. ووصل عدد السفن في عهده إلى سبعمائة سفينة من نوع الغراب وهو الاسم الذي يطلق على القطعة البحرية، وكانت عناية عبد الرحمن الناصر بالأسطول كبيرة جداً حتى عد المؤسس الحقيقي للأسطول الأندلسي، وتركزت الأساطيل الأندلسية المهمة في قاعدتين هما: مرية بجانة التي اتخذت لحماية السواحل الأندلسية المطلة على البحر المتوسط، أشلبيلية التي اتخذت لحماية السواحل الأندلسية المطلة على المحيط الأطلسي.

واهتم الطولونيون في مصر ببناء المراكب البحرية، واتخذوا من جزيرة الروضة والفسطاط قاعدتين لبناء هذه المراكب، وبنى الفاطميون أسطولاً قوياً وأصبحت القاهرة والإسكندرية ودمياط في عدهم أهم الدور لصناعة السفن، وأفردوا خاصاً للأسطول أطلقوا عليه «ديوان الجهاد»، «وديوان العمائر». وجاء اهتمام الأيوبيين ليكمل جهود الفاطميين في هذا المجال، وانصب اهتمام القائد صلاح الدين الأيوبي على تقوية الأسطول لمواجهة الصليبيين بحراً كجزء من استراتيجيته في التصدي لهم، وعدم تمكينهم من

النوزل في الموانىء العربية. وقد استطاعت سفنه في البحر الأحمر مهاجمة السفن الصليبية في خليج العقبة والاستيلاء عليها.

وغزا الأغالبة في أفريقيا (جزيرتي سردينيا وصقلية). واشتهر الموحدون والمرابطون بالمغرب بالأعمال الحربية، ووصلت سفنهم الجزر الخالدات في المحيط الأطلسي، واستولوا على جزر ميورقة ومنورقة وكورسيكا في البحر الأبيض المتوسط، كما نقلت جيوشهم إلى الأندلس ووقفوا بوجه الفرنج. وقد أدى الاهتمام بالسفن والصناعة البحرية إلى علو يد المسلمين على غيرهم من أمم البحر المتوسط، فسيطروا على طرقه وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وكان المسلمون قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات والطيار أو الطيارة والعشاري والغراب والشذا وغيرها كثير».

وكانت عكا وصور وطرابلس وحيفا على الساحل الشرقي، وزيرة الروضة والفسطاط والقاهرة والإسكندرية ودمياط وعيذاب في مصر، وأشبيلية والمرية ومالقة وطرطوشة وشنتمرية ودانية والجزيرة الخضراء في الأندلس، وتونس وسوسة وطنجة في شمال أفريقيا، والبصرة وسيران وعُمان على الخليج العربي أهم دور لصناعة السفن.

وكانت الأسلحة المستخدمة في الأسطول الإسلامي في أثناء غزواته وفتوحاته، القسي والرماح والسيوف والتروس والكلاليب واللجام، والباسليقات والمجانيق والنار البحرية (النار الإغريقية) وجرار النورة.

ولحماية السفن من النار الإغريقية، يتم لفها من الخارج بالجلود واللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنطرون لدفع أذى النفط. وللتعمية على العدو فإنهم لا يشعلون قناديل المراكب ليلاً ولا يتركون فيها دبكاً، أما في النهار فإنهم كانوا قلوعاً زرقاء كيلا تظهر عن بعد.

وقد اختلفت أشكال السفن حسب المناطق والبحار والعادات؛ فسفن البحر المتوسط كانت ذات دفتين، وهي لا تصنع إلا في البحر، وتستعمل المسامير في تثبيت الألواح الخشبية، وهي أكبر من مراكب المحيط، وتحمل بضعة آلاف من الرجال، وتقطع البحر من غربه إلى شرقه في ٣٦ يوماً، أما سفن البحر الأحمر فيطلق عليها اسم جلبات جمع جلبة، وكانت تصنع في عيذاب على الساحل المصري، وتحاط الأخشاب بأحبال الليف لأنهم لا يستعملون فيها المسامير، ويصنعون خلالها دسراً من عيدان النخيل ثم يطلون السفينة بالشحوم، وأما سفن المحيط الهندي والخلج العربي فهي دون السفن السابقة في المستوى، وكانت تطلى بدهن الحوت، وهي ذات طبقة واحدة وشراع واحد في معظم الأحيان.

أسماء السفن الحربية وأشهر انواعها

استعمل العرب في معاركهم البحرية مراكب متعددة تتفاوت في حجومها وأشكالها وقوتها، ومنها:

السفينة: اسم عام للمراكب وردت في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم.

البارجة: سفينة حربية كبيرة هندية الأصل.

الطراد: سفينة صغيرة سريعة السير والجري، تستعمل لحمل الفرسان والخيول وتتسع لأربعين فارساً.

الحراقة: تحمل المنجنيقات وتلقي النيران على العدو، وكان للخليفة الأمين خمس حراقات في نهر دجلة.

العشاري: مركب نهري كثر استعماله في النيل.

السميريات: من مراكب البحر والنهر معدة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين فيها أربعون مجدافاً.

الغراب: مراكب بحرية رأسها على شكل غراب، عدد مجاذيفها ١٨٠ مجذافاً، شديدة البأس.

الشواني: مفردها شونة وهي: سفينة حربية ضخمة، تمتاز بالطول، وتجذف بـ١٤٠ مجدافاً، ومن أهم الأسلحة التي تزود بها: الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم وتقوم بمحاصرة العدو ورميه بالنفط وتحطم السفن بقوة. أما بحارتها فيقسمون إلى مجموعة التجذيف، ومجموعة القتال، ومجموعة الإشراف والشؤون العامة، وتحتوي على مخازن

للقمح وصهاريج للماء العذب، مما يساعدها على البقاء فترة طويلة في عرض البحر.

الحربية: مركب صغير الحجم سريع الحركة.

المسطح: مركب بحري كبير ذو سطح واسع، يجر في وقت الحرب خلف المراكب الصغيرة لإنقاذ ركابها من الغرق.

الشلندي (صندل): سفينة مخصصة لنقل البضائع، كبيرة الحجم وسطحها واسع، تتكون من طابقين وتستعمل لحمل السلاح والمؤن والذخائر أو كسفينة قتال.

البطسة: سفينة حربية كبيرة مخصصة لنقل المحاربين مع ذخيرتهم ومؤنهم ومجانيقهم، وتتكون من طوابق.

القرقور: سفينة كبيرة تحمل مؤونة الأسطول وأمتعته وهي ثلاثة طوابق، وأشرعتها متعددة.

الحمالة: مركب بحري يحمل الصناع المنوط بهم صناعة سفن الأسطول، كما تحمل الغلال والذخيرة.

القارب: سفن صغيرة، ترافق السفن الكبيرة وتلازمها، وتستخدم لنقل حوائج الركاب، وتوكل إليها أعمال أخرى.

البريد

يعتبر البريد مؤسسة مهمة من مؤسسات الحضارة العربية الإسلامية، وجانب مهم من جوانب النظام الإداري السائد في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، وكان تقدمه وتطوره مرهوناً بتقدم مؤسسات الدولة وتطورها وازدهارها، ويمكن القول أن الدولة الاسلاميّة أنشأت وطوّرت نظاماً بريدياً دقيقاً جداً، ومنظماً بشكل لافت للنظر، ربط المناطق المتباعدة بالعاصمة العربية، أصبح واجبه جمع اخبار هذه الولايات وتقديمها إلى الخليفة.

وقد اختلف في أصل لفظة بريد؛ فقيل أنها فارسية معربة أصلها بالفارسية (بريده دم) أي محذوفة الذنب، لأن بغال البريد في الحضارة الفارسيّة كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها فعُرِّبت وخففت، وكان الروم يستخدوم البراذين محذوفة الأذناب في البريد كذلك. وقيل: أنه لفظ عربي خالص، مشتق من اللفظة العربيّة برد أو أبرد بمعنى أرسل، كما في قولهم بردت الحديد إذا أرسلت مايخرج منه، وقيل من ابردت اذا ارسلته، وهناك رأي آخر يقول إن لفظة بريد استعيرت من الكلمة اللاتينية (Veredus), ومعناها دابة البريد، أو حصان البريد، ومن ثم أصبحت تدل على ناقل البريد، ثم أصبحت تدل على نظام البريد.

ودلالة كلمة بريد في العربية انها مسافة معلومة مُقدَّرة باثني عشر ميلاً، اربعة فراسخ، وقد عرفه العرب القدماء، فقال امروء القيس:

على كلٍّ مقصوص الذنابي معاود بريد السُّرى بالليلِ من خيل بربرا

والمعنى الاصطلاحي للبريد. هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة

محطات متساوية البعد عن بعضها على طول الطريق المخصوص، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى محطة منها تحول عن فرسه المتعب وركب آخر مستريحاً من خيول المحطة وكذلك يفعل في بقية المحطات، حتى يصل إلى الى وجهته بالسرعة القصوى.

وظهر البريد في الاسلام نتيجة حاجة الدولة الإسلامية بعد توسعها الكبير إلى معرفة مايجري في الأقاليم، لاتخاذ الاجراءات المناسبة والسريعة حيالها، وقد اقتضت الضرورة وجود الرسائل والرسل الذين يتولون ايصال الرسائل والأوامر من القيادة المركزية المتمثلة بالرسول ﷺ إلى باقي انحاء الجزيرة العربية أو إلى خارجها لنشر الدعوة الإسلامية وايصالها للأمم الاخرى.

ولما توسعت الدولة بشكل أكبر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد الاهتمام بالبريد، فعمل على تنظيم مؤسسة مهمتها الرئيسة أن تكون حلقة وصل وربط بين العاصمة والولايات، وظهر في عهده مراكز للبريد في الأمصار مثل دار البريد في الكوفة، كانت رسل البريد تنزل بها إذا حضرت إلى الأمراء، وأصبح موظفو البريد في عهده موظفون رسميون في الدولة، فقام بفرض العطاء لهم حين نظم ماليته الدولة الاسلامية ووضع اسس رواتب العاملين بها. ولم تقتصر خدمة البريد في عهده على نقل الرسائل الرسمية بل تعدتها إلى نقل الرسائل الخاصة بالناس، فكان عمر اذا أبرد بريداً نادى مناديه من له حاجة إلى بلد كذا. وفي عهد عثمان وعلي بن أبي طالب تطورت اساليب البريد في نقل الرسائل إذا استخدمت أنابيب الرصاص المختومة لوضع الرسائل بها.

وفي عصر الخلافة الأمويّة تطور البريد تطوراً ملحوظاً، نظراً لرغبة الخلفاء الأمويين في ربط اقاليم الدولة بشبكة منظمة من البريد تكون مهمتها ايصال الأخبار من الولايات بالسرعة القصوى، خاصة فيما يتعلق بالوضع الامني في الدولة للعمل على تلافي اي خطر قبل استحكام أمره، كما استخدم جهاز البريد في تأمين نقل الامدادات العسكرية بصورة سريعة إلى مناطق الثورات وجبهات القتال، إضافة إلى وظيفته التقليدية وفي نقل الرسائل والكتب والأوامر من عاصمة الخلافة دمشق إلى بقية أقاليم الدولة وبالعكس، فقد قام معاوية بن أبي سفيان بإعادة تنظيم مؤسسة البريد فقسمت المسالك الرئيسة في الدولة إلى مراحل، وفي نهاية كل مرحلة خيل معدة لحمل البريد واستخدمت الإبل في بلاد العرب والشام، والعداءون في فارس، والخيول والجمال في الولايات الغربية، وكان يوجد في كل محطة، إضافة إلى الخيول والجمال، الماء والطعام والعلف لدواب البريد وزود بأسباب الراحة للبريدي، وتم الإهتمام بعمارة الطرق، ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل حتى يعرف الرسول المسافة التي اجتازها، وقد استعان معاوية في تنظيم البريد بخبرات الفرس، الذين كان لهم دراية ومعرفة كبيرة في ذلك.

سار خلفاء الدولة الاموية على سياسة معاوية بالاهتمام بالبريد، حتى أن عبد الملك بن مروان أمر أن يدخل صاحب البريد عليه ساعة يحضر في أي وقت من الأوقات ليلاً أو نهاراً، خاصة أن التنظيم الذي بلغه نظام البريد في عهده ساعده بشكل ملحوظ بتحقيق الانتصار على معارضيه في الداخل، او أعدائه في الخارج. وعزز الحجاج بن يوسف والي العراق البريد بنظام سريع

من المراسلات ببناء المنارات والمناظر بين واسط والثغور النائية، فكانت إشارتها الضوئية في الليل والدخان المنبعث عنها في النهار يدلان على الوضع في الأقاليم المتاخمة للأعداء وحاجاتها إلى المدد.

وعمل عمر بن عبد العزيز على تعزيز شبكة البريد بالمحطات على الطرق الرئيسة إلى خراسان، وانفق عليها أربعة ملايين درهم، وأصدر تعليماته بضرورة تقديم محطات البريد المساعدة للمسافرين من المسلمين. وعثر على وثيقة بريدية تعود إلى عهده كشفت عنها التنقيبات الأثرية التي جرت قرب سمرقند مؤرخة بسنة ٩٩هـ، وقد نشر تلك الوثيقة حسين الداقوقي[١] ونص الوثيقة مايلي: "بسم الله الرحمن الرحيم للأمير الجراح بن عبد الله من مولاه ديواستي، السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد: أصلح الله الأمير وأمتع به فإني . . . للأمير حاجتي وحاجة ابن طرخون وابن الأمير امتع الله به ذكر ابن طرخون بخير فإن رأى الأمير من الرأي أن يكتب إلى سليمان بن أبي السرى فبعث بهما إلى الأمير فليفعل أو يأمر لي الأمير بدابة من دواب البريد فأبعث عليها غلامي يأت بها الأمير فإن الله جعل قدم الأمير لأهل . . . غياث ورحمة". واستمر الاهتمام بالبريد في عهد متأخري بني أمية، ورغم أن البريد خصص أولاً لحاجات الدولة، إلا أنه أبيح للرعيّة كذلك.

ولما انتقل الحكم إلي بني العباس زادت العناية بالبريد، واهتموا بتنظيمه وتطويره، وبدأ ذلك بشكل واسع وكبير في عهد الخليفة أبي جعفر

---

(١) في بحثه نظام البريد في الحضارة العربيّة، مجلة المورد، مجلد ١٨، ربيع ١٩٨٩.

المنصور، الذي اهتم به ليصبح أداة فعّالة في الحجم والإدارة، وجعل صاحب ديوان البريد أحد الأركان الأساسية في الدولة، خاصة وأنه اعتبر عدم اهتمام مروان بن محمد بالبريد من الأسباب الرئيسة لانهيار حكمه وسقوط دولة بني أمية، إذا تغيبت عنه أخبار الدولة والولايات ولذلك اهتم أبو جعفر بأخبار كل ولاية من ولايات الخلافة، وكان ولاة البريد في هذه الولايات مصدر معلومات اذا كانوا يكتبون إليه بأخبار ولاياتهم كل يوم من سعر القمح والحبوب والأدم وسعر كل مأكول، وبكل مايقضي به القاضي في نواحيهم، وبما يعمل به الوالي، وبما يرد بيت المال من المال، وكل حدث جل أو صغر. وكان ولاة البريد يرسلون بعد صلاة المغرب من كل يوم إلى المنصور بكل ماجرى في اليوم السابق والذي كان يبادر فوراً بالنظر فيما يرسلونه، ويأمر بشأنها بما هو مناسب، وقد تمكن ولاة البريد من القيام بمهامهم بفاعلية، إذ قام أبو جعفر بربطهم مباشرة بالعاصمة الأمر الذي أدى إلى تمردهم من نفوذ ولاة الأقاليم.

وتابع خلفاء المنصور الاهتمام بالبريد من حيث إقامة المحطات البريدية الجديدة، أو تزويد المحطات الموجودة بالبغال والابل والخيل، أوترتيب محطات خاصة بالغزو، كما حدث عندما رتب المهدي بريداً خاصاً بينه وبين ولده الرشيد قائد جيوش الدولة ضد الروم.

وقد تنبه البويهيون إلى خطورة البريد وأهميته، فقاموا بحجب البريد عن الخليفة العباسي أثناء دولتهم، حتى لايعلم بأفعالهم وتحركاتهم، فبقي يستعين بهم دون أن يعلم مقاصدهم لانقطاع البريد عنه. وبلغ البريد في عصرهم مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة فاستخدموا الحجازات لنقل البريد

أثناء الحروب، وهي شبيهة بالعربات التي تجرها الخيل السريعة، يركبها عمال البريد ورجال الحرب وغيرهم ممن يتطلب عملهم السرعة.

واستمرت الدول الإسلامية بالاهتمام بالبريد وتقوية قدراته على إيصال المعلومات بشكل سريع وآمن، وخاصة بعد تعرض البلاد الإسلامية للغزوتين الصليبية والمغولية، الأمر الذي أعطى البريد الطابع العسكري لاستخدامه الضخم في سبيل خدمة القوات الإسلامية، وخاصة للانذار من هجمات العدو الصليبي أوالمغولي. فعملت الدولة الزنكية على تحسين نظمه وتطويره، فأنشئت السكك وحسنت طرق البريد، وأعدت له الدواب الخاصة لنقله، وتوسع نور الدين زنكي في استخدام الحمام الزاجل كوسيلة مواصلات بريدية رئيسية، وذلك لاتساع دولته التي أصبحت تمتد من الموصل في شمال العراق حتى النوبة واليمن، بالإضافة إلى رغبته بالإنذار المبكر لمتاخمة دولته لحدود الإمارات الصليبية وبسبب الكبير للبريد في عهده التوسع عدَّهُ العمري في المصطلح الشريف أول ملك من ملوك المسلمين قام باتخاذ البريد.

وبلغ الاهتمام بالبريد أوجه في عصر المماليك وخاصة في عهد السلطان بيبرس، الذي قام بإعادة تنظيم البريد وترتيبه، ويعود السبب في ذلك الى كثرة الأعداء المتحفزين للانقضاض على الدولة الإسلامية، فكانت الأساطيل الاوروبية في البحر المتوسط تنتهز الفرصة للهجوم، والصليبيون في الساحل الشام، وبقايا البيت الأيوبي في بلاد الشام، والمغول على حدود دولته الشرقية (العراق)، فوضع خيلاً للبريد من أجل سرعة وصول الأخبار اليه، فكانت الأخبار مثلاً، ترد إليه من الشام مرتين في الاسبوع، الأمر الذي

أتاح له الاطلاع الدقيق على أمور الدولة وهو جالس في قلعته بالقاهرة.

صاحب البريد:

كان صاحب البريد، نظراً لإشرافه وإدارته لمؤسسة أمنية هامة في الدولة، يعد من أكثر رجال الدولة أهمية، حتى أنه كان يطلع على مضمون الرسائل قبل أن يعمل الخليفة بفحواها. ولم يكن عرض الرسائل والتقارير، أو انفاذها إلى الجهات المختصة، هي المهمة الوحيدة لصاحب البريد، وانما كان من مهامه تعيين الموظفين المحليين في المدن المختلفة، والأشخاص المناسبين في المحطات على الطريق، وتعيين السعاة، والاهتمام بدفع المرتبات والارزاق لهم، وبتدبير أمر الدواب وبراذعها ومن يتولى العناية بها، كان في كل ولاية عامل للبريد، وله أعوان ووكلاء في المراكز التابعة لولايته، وقد بلغت نفقات ديوان البريد على سبيل المثال لا الحصر، في عهد يوسف بن عمر والي العراق لهشام بن عبد الملك أربعة ملايين درهم.

وبسبب المنزلة الرفيعة التي تمتع بها صاحب البريد، كونه صاحب الأخبار الرسمي، والمشرف على جميع الطرق والمسالك المهمة في الدولة، وله عيون يوافونه بكل جديد، كان الخلفاء لايختارون لهذا المنصب إلا من يرونه أهلاً للثقة، وقد وضع أبو يوسف في كتابه الخراج الشروط الواجب توافرها في صاحب البريد فقال: "وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار، . . . ، وتتقدم إليهم في أن لايستروا عنك خبراً. عن رعيتك ولاعن ولاتك، ولايزيدوا فيما يكتبون به عليك خبراً وحدد قدامة بن جعفر بعض الشروط الواجب توافرها في صاحب

البريد" فقال: والذي يحتاج إليه في هذا الديوان هو أن يكون ثقة، أما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل مايحتاج معه إلى الكافي المتصفح، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ، . . . ، وما سأله عنه الخليفة فيوقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره، وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى عمل الطرق بسببه، وُجِد عتيداً عنده ومضبوطاً قبله، ولم يحتج إلى تكلف عمله والمسألة عنه.

ولأهمية مهام صاحب البريد كان ارتباطه مع الخليفة مباشرة فلم يكن بينهما واسطة، حتى لايسمح لأحد بالاطلاع على الأخبار قبل انهائها إلى الخليفة، الذي يقرر نشرها أو كتمانها بحسب مصلحة الدولة.

ولايقتصر عمل صاحب البريد على نقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولاة، بل أوكلت إليه واجبات عديدة، أهمها مايلي:

١ . مراقبة العمال والموظفين في المركز والولايات.

٢ . الالمام التام بمعرفة الطرق والمنافذ وصيانتها.

٣ . معرفة طرق الاعداء ومناطق تعرضهم وتسللهم.

٤ . معرفة حيل الجواسيس في الدخول والخروج والتخفي.

٥ . التجسس على الأعداء الخارجين، والمعارضة الداخلية.

٦ . دراسة كتب اصحاب البريد في الثغور والولايات وعرضها على الخليفة.

٧ . الاشراف على السعاة والموظفين في محطات البريد، وصرف ارزاقهم

وأرزاق دوابهم.

٨. تعيين أصحاب الخرائط في سائر الأمصار.

٩. نقل أوامر الخليفة إلى ولاة الأمصار وقادة الجيوش.

وإلى جانب صاحب البريد الذي كان مقره دمشق ثم بغداد، كان هناك مجموعة من الموظفين يساعدونه في إدارة شؤون البريد، فكان في كل ولاية عامل بريد، يتبعه عمال موزعون في انحاء الولاية، ابرزهم:

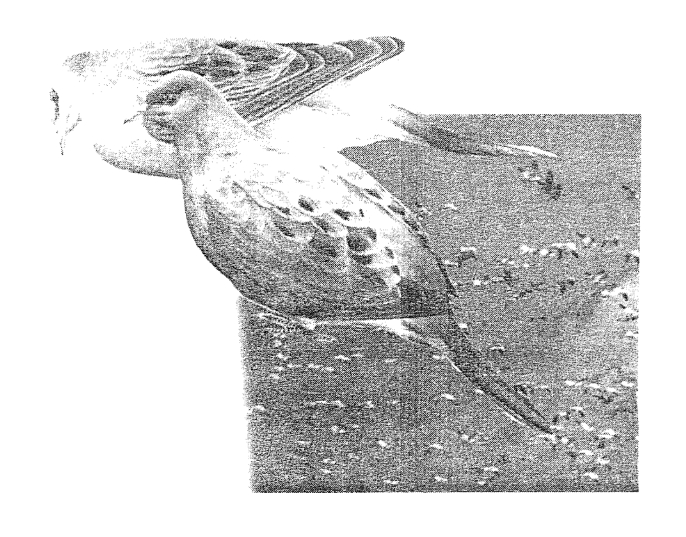
أ- **المرتبون**: مهمتهم تنحصر في حمل الرسائل في خرائط خاصة (وعاء من ادم أو ديباج يسرج على ما فيه ويوضع فيه كتب البريد)، والإسراع بتوصيلها، وكان مقرهم في سكك البريد.

ب- **الموقعون**: يقومون بتثبيت أوقات انطلاق السعاة، وأوقات وصولهم، من أجل ضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي يجب أن يرد إلى السكة في مثلها، وكان يوقع سجلات خاصة بهذا الأمر.

جـ- **الفيوج**: مجموعة من السعاة المتعودين على الجري السريع والصبر عليه، حتى أن أحدهم يقطع ثلاث مراحل في زمن مرحلة واحدة.

د- **الفرانقيون**: يتولون مسؤولية مراقبة سكك البريد والسعاة والخيالة، وكانوا يقدمون تقاريرهم عن كل ذلك إلى صاحب الديوان في العاصمة.

هـ- **الوكلاء والمخبرون**: مهمتهم مساعدة عامل البريد بجمع المعلومات والأخبار في الولاية وفي المراكز.



وسائل نقل البريد

استخدم في نقل الرسائل وسائل متعددة حرصاً ايصالها بسرعة فائقة، وبشكل آمن يحفظ سريتها ويضمن عدم اطلاع غير المعنيين عليها، وقد تنوعت تلك الوسائل بين: البرية المتمثلة بدواب البريد والسعاة، والجوية المتمثلة بالحمام الزاجل، والبحرية المتمثلة باستخدام السفن البحرية والنهرية، وأهم الوسائل المستخدمة في نقل البريد:

١- دواب البريد:

استخدم العرب الخيول والابل بشكل واسع في نقل البريد بين مختلف اقاليم الدولة، ومُيِّزت خيول البريد بقص أذنابها، وكانت الخيول والابل موزعة على سكك البريد المنتشرة على طول الطرق الرئيسة للدولة، وبمسافة تتراوح بين ثلاثة اميال إلى اثني عشر ميلاً بين سكة وأخرى.

أما في المناطق الجبلية فقد استخدمت فيها البغال كوسيلة لنقل البريد، وذلك لعدم امكان استخدام الخيول أو الأبل فيها، بسبب قدرة البغال على تحمل الأثقال، والصبر على طول المسافات، وتمكنها من السير في الطرق الجبلية بعكس الخيل والأبل.

٢- السعاة:

استخدم السعاة عند الضرورة لنقل الأخبار عن المعارك، بدلاً من استخدام الدواب التي قد تتعرض لاضرار، أو قد يكشف امرها، الامر الذي قد تكون عواقبه وخيمه خاصة إذا كان البريد يحمل خبراً سرياً، لذلك كان السعاة في تلك الأوقات الحرجة ينطلقون بالأخبار سراً لئلا يتم اكتشاف

أمرهم، إضافة إلى قدرتهم على السير في مناطق لا تتمكن الدواب من اجتيازها، ولذلك كانت أجور السعاة عالية.

وتوسعت الدولة العباسية في استخدام السعاة الذين قاموا بنقل الرسائل بين القادة العسكريين، كما حدث في حملة المعتصم على عمورية إذ تولى السعاة مهمة نقل الأخبار من الخليفة إلى قادته العسكريين.

توسع معز الدولة بن بويه في اتخاذ السعاة، بعد دخوله لابلاغ أخيه ركن الدولة في أصبهان بما يستجد من أمور بالسرعة الفائقة، واشتهر في زمنه ساعيان: فضل ومرعوش، اللذين فاقا سائر السعاة، وبلغ من سرعتها أن كل منهما كان يسير في كل يوم أكثر من أربعين فرسخاً.

وقد تهافت شباب بغداد على هذه الحرفة، واقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم إلى معز الدولة لتدريبهم على ذلك العمل، ليكسبوا الأموال ويحصلوا على الامتيازات التي كانت تمنح للسعاة.

والسعاة أنواع أهمهم الفروانقيون، وكانوا يتولون نقل الرسائل بين الولاة وكبار الموظفين في الأمور المهمة التي تستدعي السرية، ومنهم أيضاً الشعوذي والشعاوذة رسل الأمراء إلى أصحاب البريد في الأقاليم مهمتهم نقل الأخبار بشكل سريع، ومنهم الفيوج وهم رسل البريد الذين ينقلون الأخبار والرسائل من بلد إلى آخر، ولا يشترط بهم أن يكونوا سعاة على ارجلهم طوال الوقت بل قد يستخدموا الدواب احياناً. والكوهبانية: وهم أصحاب الأخبار المكلفون بنقلها بين قادة الجند، تبليغ امراء الوحدات العسكرية بالأوامر الصادرة اليهم عن القيادة وإعطائهم الاشارات بقوم العدو.

٣- الحمام الزاجل:

يلمس المدقق في ثنايا كتب التراث العربي الإسلامي شذرات تشير إلى استخدام الحمام الزاجل ومعرفته منذ العصر العباسي الاول على الأقل، واستخدام الحمام الزاجل في نقل الرسائل، كما استخدمه البعض في عمليات اللهو ولعل أول شاهد تاريخي على استخدام الحمام الزاجل في الدولة الإسلامية لنقل الأخبار يعود إلى عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي استعان بالحمام الزاجل للتعرف على أخبار الأقاليم المختلفة للدولة، وكذلك استخدم في عهد الخليفة المعتصم في نقل أخبار الثائر بابك الخرمي من ميادين الحرب إلى العاصمة، واستخدم بشكل واسع من قبل القرامطة لأغراض الدعاية، إذ نظم رئيس فرقة القرامطة بالعراق الحمام الزاجل واستخدمه على نطاق واسع لنقل الأخبار من جميع النواحي بالعراق قبل إذاعتها بين الناس، وهكذا استعان بها زعيم القرامطة لإيهام الناس أنه يعلم الغيب وتقدير المقادير.

ولعل الدليل الأقوى على وجود الحمام الزاجل واستخدامه بشكل واسع في الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، إسهاب الجاحظ في كتابه الحيوان عن الحمام واعتناء الناس به، وتقسيمه الحمام إلى نوعين عادي وسائلي (الزاجل)، وشرح الشروط والصفات الواجب توافرها فيه وطرق تدريبه.

وبلغ استخدام الحمام الزاجل في البريد اوجه في عهد السلطان نور الدين زنكي، الذي قام بتشييد ابراج للحمام الزاجل، واقام عليها الحراس يحرسونها ويراقبون وصول المحمل منه بالرسائل ليل نهار، ونظم شبكة

واسعة من بريد الحمام الزاجل، لتربط أجزاء مملكته الواسعة بين الشام ومصر، خاصة انها متاخمة لحدود الممالك الصليبية على الساحل الشامي وفي فلسطين، الامر الذي يستلزم نقل التحذيرات من غارات الصليبيين على مناطق مملكته بسرعة قصوى، ونظراً لعناية نور الدين البالغة بالحمام الزاجل، وتوسعه في استخدامه، عددته المصادر العربية الاسلامية اول من ادخل الحمام الزاجل الى البريده.

٤- **النار والدخان:**

استخدم المسلمون النار والدخان في مراسلاتهم منذ العصر الراشدي، واعتبرت من وسائل ايصال البريد السريعة والتي تعتمد على المشاهدة، وانشأ من أجلها المناظر والأبراج العالية على المرتفعات تكون مقابلة بعضها بعضاً، وكانت النار تستخدم في الليل، والدخان في النهار، وكان للإشارات النارية أو الدخانية رموز خاصة (شيفرة) لا يتسطيع فكها إلاّ الموظفون المختصون بها، وذلك لضمان سرية المراسلات التي يستطيع مشاهدتها أي شخص الشيفرة.

واستخدمت هذه الوسيلة في فترة مبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية فقد أمر عمر بن الخطاب باتخاذ المواقد على سواحل بلاد الشام، لنقل أخبارها الى والي الشام في دمشق، وكان ذلك في المرحلة التي سبقت انشاء الاسطول الاسلامي، كما اتخذ الحجاج بن يوسف الثقفي المناظر لنقل الأخبار بسرعة بين واسط وقزوين، وذلك باشعال النار عليها ليلاً.

وقام ابراهيم بن الاغلب والي افريقية في سنة ٢٦١هـ بربط المدن الاسلامية على البحر المتوسط من سبته الى الاسكندرية، بشبكة واسعة جداً

في المواقد الناريّة والدخانية، حتى كان الخبر يصل من سبته الى الاسكندرية في ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر، كما كانت الأخبار تصل طرابلس الغرب من الاسكندرية في ثلاث ساعات.

٥- البريد النهري:

استخدم المسلمون السفن في البريد، سواء اكان لايصال الرسائل والكتب والتعليمات، او في الاغراض الامنية، وفي بعض الاحيان كانت الرسائل توضع في قصبة وتربط بحزمة من الحشيش وترمي في النهر، ثم تجمع من قبل محطات خاصة، وترسل إلى جهات إرسالها.

وهكذا نرى تعدد مظاهر الإدارة العربية الاسلامية وأنها شملت الواجبات الاساسية للدولة وقامت على حماية المجتمع وتنظيمه، وأنها جميعها كانت تتطور حسب حاجات المجتمع الإسلامي، وجاءت في معظمها تفاعلات الأمة مع حاجاتها ثم جاء الفقهاء ليتخذوا من تلك التطبيقات اسبقيات تاريخية ويقوموا بعملية تعقيدها فقهياً.

نص الصحيفة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

١- هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل) يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢- إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣- المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥- وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف.

٦- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧- وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي

---

(١) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٥٩.

عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢- ان المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل.

١٢ب- وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣- وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم، أو اثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

١٥- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦- وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧- وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في

سبيل الله، إلاّ على سواء وعدل بينهم.

١٨- وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

١٩- وإن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

٢٠ب- وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١- وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢- وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٣- وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

٢٤- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩- وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم واثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣٢- وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣- وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وأن البر دون الإثم.

٣٤- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥- وإن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦- وإنه لا يخرج منهم أحداً إلا بإذن محمد.

٣٦ب- وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك بنفسه وأهل بيته، إلا من ظلم وإن الله على أبَرِّ هذا.

٣٧- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٣٧ب- وإنه لا يأثم أمرء بحليفه وإن النصر للمظلوم.

٣٨- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٣٩- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤١- وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

٤٢- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى اللّه وإلى محمد رسول الله ، وإن اللّه على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

٤٣- وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها .

٤٤- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دَعْوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في

المصادر

- القرآن الكريم
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- سنن أبي داود.
- سنن الترمذي.
- تاريخ الطبري.
- الكامل في التاريخ لابن الاثير.
- أنساب الأشراف للبلاذري.
- شرح نهج البلاغة، لابن ابي الحديد.
- السيرة النبوية لابن هشام.
- الإمامة والسياسة لمجهول.
- ولاة مصر وقضاتها للكندي.
- الفتوح لأبي اعثم
- مروج الذهب للمسعودي.
- تاريخ اليعقوبي.
- صبح الأعشى للقلقشندي.
- رسائل ابن الموصلايا.

- رسائل الصابي.
- الطبقات، لابن سعد.
- لسان العرب لابن منظور.
- القاموس المحيط للفيروز أبادي.
- تاج العروس، للزبيدي.
- الصحاح للجوهري.
- تكملة المعاجم العربية لدوزي.
- الوزراء للثعالبي.
- قوانين الوزارة للماوردي.
- الأحكام السلطانية للماوردي.
- الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء.
- مقدمة ابن خلدون.
- موطأ مالك.
- سنن البيهقي.
- صحيح ابن حبان.
- الاقتضاب في شرح ادب الكتاب، للبطليوسي.
- الفهرست، للنديم.

المراجع

- عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية.
- توفيق اليوزبكي، الوزارة.
- توفيق اليوزبكي، دراسات في النظم الإسلامية.
- فاروق عمر فوزي، الجذور التاريخية للوزارة.
- مصطفى الحياري، مقدمة تحقيق منزلة الدواوين من كتاب الخراج.
- حسين الكساسة، المؤسسات الإدارية في مركز الخلافة العباسية.
- محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية.
- خالد الجنابي، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني.
- نجده خماش، الادارة في العصر الاموي.
- الكتاني، التراتيب الإدارية.
- ناجي، معروف، عبد العزيز الدوري، موجز تاريخ الحضارة.
- حسان حلاق، تعريب النقود والدواوين في العصر الاموي.
- ارسن ارشيد، الشرطة في العصر الأموي.
- ادم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الربع الهجري.
- هاني حسين، العطاء في صدر الإسلام.
- جواد علي، المفصل.
- صبحي الصالح، النظم الإسلامية.

- ابراهيم الخطيب، النظم الإسلامية.
- انور الرفاعي، النظم الإسلامية.
- حسين حسن، النظم الإسلامية.
- حسن ابراهيم، النظم الإسلامية.
- وقائع ندوة النظم الإسلامية، ابو ظبي، ١٩٨٤م.
- فاروق عمر، النظم الإسلامية.
- صالح العلي، الدولة في عهد الرسول.
- اكرم العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة.
- محمد العربي، دولة الرسول في المدينة.
- الباشا، حسن، دراسات في الحضارة الإسلامية.
- البطاينة، محمد ضيف الله، تاريخ الحضارة الإسلامية.
- الجنابي، خالد جاسم، تنظميات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي.
- الحسين، قصي، م ن، معالم الحضارة العربية الإسلامية.
- حسين، محسن محمد، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين.
- الرفاعي، أنور، الإنسان العربي والحضارة.
- ريسلر، جاك، الحضارة العربية، تعريب: خليل أحمد خليل.
- سويد، ياسين، الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره.
- شلبي، أبو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي.
- علي، أحمد التعبئة عند الأمويين.

- عواد، محمد أحمد، الجيش في العصر الأموي (٤٠-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٤٩م).
- القوصي، عطية، الحضارة الإسلامية.
- ماهر، سعاد، البحرية في مصر الإسلامية.
- متز، آدم، الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد أو ريدة.
- المجالي، سحر عبد المجيد، تطور الجيش العربي في الأندلس ١٣٨-٤٤٢هـ/ ٧٦-١٠٣١م.
- النبراوي، فتحية، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية.

المقالات:

- حياة ناصر حجي: القضاة والقضاء في مصر في عهد الناصر محمد/ الدراسات الأردنية ١٩٨٦.
- بطاينة، محمد ضيف الله، القضاء في الإسلام.
- صالح درادكة: الحرس والشرطة في صدر الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، دراسات ١٩٨٧م.
- دريد نوري، الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول، المؤرخ العربي، ١٩٨٦م.
- فاروق عمر فوزي، النظم العسكرية ضمن أبحاث ندوة ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي، ١٩٨٤.
- حمدان الكبيس، مؤسسة الوزارة في الدولة العربية الإسلامية، المؤرخ العربي. ج٢ ١٩٨٦م.

- خالد الجنابي، البريد العسكري في العصر العباسي، المؤرخ العربي ١٩٨٨م.
- حسين الداقوقي، نظام البريد في الحضارة العربية، المورد، ١٩٨٩م.

الوحدة الثالثة

التنظيمات المالية

التنظيمات المالية[1]

مرت التنظيمات المالية للدولة الإسلامية بمرحلتين أساسيتين، المرحلة الأولى وهي مرحلة تأسيسية هامة، كان للرسول ﷺ وللخليفة عمر بن الخطاب دور واضح في وضع أصولها. وتابع الأمويون إجراءات الراشدين وعملوا على تعميمها وتطويرها حسب الظروف الجديدة، أما المرحلة الثانية من التنظيم فتبدأ بمجيء العباسيين، وهي مرحلة تميزت بالتوسع في الاعتماد على آراء الفقهاء والوزراء والكتّاب.

وتشكل الضرائب جانباً أساسياً في التنظيمات المالية للدولة، وقد مرت بفترات نمو وتطور تبعاً لتطور الدولة وتوسع احتياجاتها، ويفترض الاطلاع على واقع نظام الضرائب منذ أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، ثم متابعة تطور هذا النظام في العصر الأموي واستقراره في العصر العباسي الأول، لفهم الأساس المالي للدولة، وسياسة الخلفاء في إدارة الضرائب وتنظيمها.

أ) الضرائب في عصر الرسول ﷺ:

١- الزكاة: فرض الرسول ﷺ على الأغنياء من المسلمين إخراج جزء من أموالهم إلى الفقراء لقوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)، [التوبة: ١٠٣]. وتوزع أموال الزكاة على الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين

(١) أعد هذه الوحدة، د. غيداء خزنة كاتبي.

عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) (التوبة: ٦٠).

٢- الغنائم: وهي ما يستولي عليه المسلمون في الحرب (من سبي وأرض ومال) فيذهب خمسها لبيت المال، وتوزع الأخماس الأربعة الباقية على المقاتلين.

٣- الجزية: ضريبة يدفعها أهل الكتاب اعترافاً بسيادة الدولة، ولقاء حمايتها لهم. وقد حددها الرسول ﷺ على كل رجل دينار واحد في السنة (البلاذري، فتوح البلدان ص٧١).

ب) الضرائب في عصر الخلفاء الراشدين:

توسعت الدولة في أيام الراشدين وخاصة في خلافة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٣م)، فكان لا بد من تنظيم الإدارة وخاصة الضرائب في البلاد المفتوحة. وجاءت تدابير عمر بن الخطاب الضريبية مستندة إلى أسس ومفاهيم إسلامية إلى جانب الإفادة من الواقع المحلي أحياناً. (عبد العزيز الدوري، التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب، ج٢، ص١٥٣، ١٥٤).

ويفترض الاطلاع على بعض التدابير التي اتخذها عمر بن الخطاب، قبل الحديث عن إجراءاته المالية.

١- النظرة إلى البلاد المفتوحة:

اختلفت نظرة الخلافة للبلاد المفتوحة عن نظرة المقاتلة، فقد طلب

المقاتلة اعتبار البلاد المفتوحة غنيمة تقسم بين الفاتحين دون سائر المسلمين (أبو يوسف، الخراج، ص٢٣-٢٤، ٢٦). ولم تستبعد الخلافة فكرة الغنيمة بالنسبة للأرض في بادىء الأمر (ابن عساكر، تاريخ ج١، ص٥٨٢) إلاّ أن الخلافة تبنت اتجاهاً جديداً يقضي باعتبار الأرض فيئاً موقوفاً لعامة المسلمين. وهذا يعني إلغاء فكرة تقسيم الأرض، وإبقاءها بيد أصحابها مقابل دفع ضريبة الخراج على الأرض، (أبو عبيد، ص٣٠٥)، مع ملاحظة معنى الوقف هنا، وهي بقاء الأرض لجميع المسلمين، يؤخذ خراجها ويصرف في مصالحهم، ولا يختص أحد بملك شيء منها، (ابن قدامة، المغني، ج٢، ص٥٨٣). وكان نتيجة هذا القرار، ظهور مفهوم جديد للفيء، وهو الأراضي التي فتحت عنوة، إذ أصبحت بالمفهوم الجديد فيئاً موقوفاً لصالح المسلمين كافة (أبو يوسف، ص٢٥). أما الغنيمة فقد اقتصر تطبيقها على الأموال المنقولة مثل الذهب والفضة والسلاح والكراع.

وكانت دوافع عمر ومؤيديه من كبار الصحابة أساسية تنطلق من ضرورة توفير مورد ثابت للمقاتلة (عبد العزيز الدوري، التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب، ص١٦٤) وتأمين الثغور البرية والبحرية المنتشرة على حدود الدولة الإسلامية (الطبري، تاريخ، ج٤، ص٢٣٠). إلى جانب خوف عمر من انفراد المقاتلة وأبنائهم بالسواد دون سائر المسلمين، مع احتمال توقف عملية الفتوح، وبالتالي توقف مصدر تموين الجيوش، وتأثير ذلك على الأفواج القادمة. وعبر عن ذلك قائلاً: «لولا أن يترك آخر الناس لا شيء لهم، ما فتح الله على المسلمين قرية إلاّ قسمتها كما قسمت خيبر سهماناً، ولكني أخشى أن يبقى الناس لا شيء لهم» (يحيى بن آدم،

الخراج، ص٤٤).

٢- **أصناف الأراضي:**

قسم عمر بن الخطاب الأراضي إلى ثلاثة أصناف:

* **ارض صلح:** وهي بضعة قرى في السواد (بانقيا وأُلَّيس والحيرة) فرض على أهلها دفع مبلغ محدد من المال سنوياً، أما الأرض فلم يفرض عليها شيء (الطبري، تاريخ، ج٣ ص٣٤٣-٣٤٤). وهذا إجراء خاص اتخذه عمر بن الخطاب مكافأة لهم على مساعدتهم للفاتحين المسلمين.

* **الصوافي:** وهي الأراضي التي لم يكن لها مالك عند الفتح، فاعتبرت فيئاً للمقاتلة ابتداءً، ويدخل ضمن هذا المفهوم أراضي الأسر الحاكمة والنبلاء، وأراضي من قتل أو هرب في الحرب، إضافةً إلى أراضي البريد (البلاذري، الفتوح، ص٣٣٤، تاريخ، ج٣، ص٥٨٦. وانظر: أبو يوسف، الخراج، ص٥٧).

وكان عمر بن الخطاب قد اعتبر الصوافي فيئاً للمقاتلة، وأقر قسمتها أربعة أخماسها للمقاتلة وخمساً للدولة، (الطبري، تاريخ، ج٤، ص٣١-٣٢) ولكنها تركت دون أن تقسم بين المقاتلة لاعتبارات استراتيجية، واكتفى بتوزيع واردها عليهم بعد أخذ الخمس للدولة (الطبري، تاريخ، ج٤، ص٣١-٣٢).

* **الأرض الخراجية:** وهي عامة الأراضي المفتوحة، وتعتبر ملكاً مشتركاً للمسلمين ولكنها تركت بيد أصحابها يؤدون عنها ضريبة الأرض،

الخراج (ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص٥٨٥).

إجراءات عمر بن الخطاب الضريبية:

* **الإجراءات في العراق:**

اتجه عمر بن الخطاب إلى تنظيم الضرائب بعد أن استقر الفتح في السواد، في سنة ٢١هـ، حيث فرض ضريبتين أساسيتين هما الخراج والجزية.

أ- الخراج:

وهي ضريبة الأرض فرضها عمر بن الخطاب على الأراضي المزروعة بالقمح (الحنطة) والشعير، حيث وضع على كل جريب (الجريب مقياس للأرض يساوي ١٥٩٢م٢)، درهماً، وقفيزاً (القفيز وحدة كيل، ويساوي ٢١٢٥,٤ لتر (فالتر هنتس، المقاييس والمكاييل، ص٦٦، ص٩٦). وهذا لا يعني أن الخراج فرض على الحنطة فقط دون سائر الحاصلات، بل ربما اعتبرت الضريبة عليهما وهما من الحاصلات الواسعة الانتشار، نموذجاً لسائر الحاصلات في السواد (العراق) كالنخل والكرم والرطبة والأشجار التي خضعت لضريبة الخراج تدريجياً (أبو يوسف، الخراج، ص٣٨).

وتذكر بعض المصادر أن عمر بن الخطاب سار في إجراءاته الضريبية وفق نظام الضرائب الذي وضعه كسرى أنو شروان، ولم يخالف ما وضعه على جريب الأرض من زرع، وعلى النخل، والزيتون، (الطبري، تاريخ، ج٢، ص١٥١).

ولما كان نظام الضرائب الساساني في السواد على المقاسمة بنسب تتراوح بين الثلث والنصف والعشر، تعتمد على طريقة الري، وعلى البعد والقرب من المدن، وعلى جودة الحاصل، (الطبري، تاريخ، ج٢، ص١٥٠، الجهشياري، ص٢٤، الدينوري، ص٧١)، فإن هذه النسب تبدو مستوحاة من الفترات الإسلامية وما استقر عليه الخراج في القرن الثاني للهجرة. (عبد العزيز الدوري، التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب، ج٢، ص١٦١، ١٦٢)، كما أن نظام المقاسمة أبطل في السواد في مطلع القرن السادس، وحل محله نظام فرض الخراج على وحدة المساحة، نتيجة للأزمة الاقتصادية التي مرت بها الدولة، وحاجتها إلى النقد.

هذا إلى أن الحاصلات التي فرض عمر عليها الخراج، تتجاوز الحاصلات السبعة، (الحنطة والشعير والأرز والكرم والرطبة والنخل والزيتون)، التي فرضها الساسانيون.

إن تنظيمات عمر بن الخطاب في السواد تنطلق من المفاهيم الإسلامية، وأنه راعى فيما فرضه في الخراج إمكانيات الزراع مع الإنصاف.

ب- الجزية:

فرض عمر بن الخطاب الجزية على السكان في العراق، وجعلها نقدية، ومتدرجة حسب الإمكانيات المالية لدافعي الضريبة، فوضع على الأغنياء ٤٨ درهماً، وعلى متوسطي الحال ٢٤ درهماً، وعلى الفقراء ١٢ درهماً في السنة، وأعفى النساء والشيوخ والأطفال وأصحاب الأمراض المزمنة منها.

* **الإجراءات في الشام:**

اتخذت الإجراءات المالية في الشام، طابعاً خاصاً اقتضته طبيعة التنظيمات الإدارية القائمة فيها. حيث قسمت إلى مناطق عسكرية إدارية تحولت إلى وحدات إدارية مالية عرفت بالأجناد، هي: جند دمشق، وفلسطين، والأردن، وحمص مع قنسرين. (البلاذري، فتوح البلدان، ص١٥٦).

وربما كان للتقسيمات الإدارية البيزنطية أثرها، حيث تشكل الوحدات البيزنطية في مجموعها خطوط دفاع أمامية لحماية الإمبراطورية من أية هجمات محتملة، ولكن تأمين احتياجاتها كان يتطلب ميزانية يتحمل الأفراد (دافعي الضريبة) الجانب الأكبر منه، وهذا أمر لا يلاحظ في نظام الأجناد، حيث اعتبر كل جند من الأجناد وحدة إدارية مالية مستقلة، يَسد وارد الضرائب فيها احتياجات الجند (البلاذري، فتوح، ص١٥٦).

واستقرت الأوضاع العسكرية نسبياً في بلاد الشام، بعد معركة اليرموك سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، وابتدأ العمل في سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م لوضع أسس التنظيم الإداري والمالي بعد زيارة عمر بن الخطاب للجابية، فجنّد الأجناد ومصرّ الأمصار، ثم فرض الأعطيات (الطبري، تاريخ، ج٤، ص٦٥، ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص٥٥٣).

أ- **الخراج:**

أما عن واقع تنظيم ضريبة الأرض (الخراج) في الشام، فيمكن القول أن الخراج المفروض لم يكن محدداً، يتصل بطبيعة البلاد التي تعتمد على

الأمطار، مما يجعل التحديد على وحدة المساحة غير ممكن. وبعد ذلك فإن تقدير الخراج يتأثر ببعض الاعتبارات كحالة الأمطار، وأنواع المزروعات التي خضعت للخراج، فكانت مقادير من الحنطة والشعير، ثم بالتدريج تم فرض مقادير من زيت وخل (زيتون وكرم) (البلاذري، فتوح، ص١٤٨، أبو يوسف، الخراج، ص٤١).

ومرة أخرى ترد بعض الإشارات أن المسلمين ساروا على النظام الضريبي البيزنطي (دينيت، الجزية، ص٣٣، ٣٤. فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ص٢٦٥). ولكن من خلال ملاحظة بعض خطوط هذا النظام، القائم على تقدير موحد للالتزامات الضريبية، (الأرض والأفراد) ولا فصل بين أي منهما، فإن تنظيمات عمر بن الخطاب لم تنطلق من النظام الضريبي البيزنطي بل من مفاهيم إسلامية، حيث فرضت ضريبتان منفصلتان، الجزية على غير المسلمين، والخراج على الأرض، مع اعتبار الفلاح حراً.

ب- الجزية:

فرض عمر بن الخطاب الجزية على السكان في الشام، وجعلها نقدية مقدارها ديناراً على كل رجل، يستثنى من ذلك النساء والأطفال والشيوخ، مع ضيافة ثلاثة أيام لمن يمر بهم من المسلمين.

إجراءات الأمويين الضريبية:

* **الإجراءات في العراق:**

كانت الإجراءات الضريبية في السواد (العراق) استمراراً لما جرى عليه الأمر في عهد عمر بن الخطاب، مع بعض التعديل الذي اقتضته الظروف الجديدة للدولة.

فقد ارتبط تنظيم الخراج ومشاكله مع الولاة مباشرة، وأصبح عمال الخراج مسؤولين أمام الوالي باعتباره مشرفاً على اختيارهم (البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٥٥-٣٥٦). ويلاحظ أنه في أيام معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦١-٦٦٩م) وابنه يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/ ٦٧٩-٦٨٣م) لم تحصل تغييرات على تقديرات الخراج، تختلف عما استقر عليه الأمر في أيام الراشدين.

ولكن واجهت الدولة الأموية في أيام عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٥هـ/ ٦٨٥-٧٠٤م) أزمة مالية حادة، تناقصت فيها مواردها المالية تناقصاً ملحوظاً.

وكان للحجاج وهو أبرز ولاة عبد الملك دوره الواضح في إعادة الاستقرار للدولة في المشرق. فعمل أولاً على توفير المستلزمات الرئيسية للزراعة، الماء، والمال، والأيدي العاملة. فأمّن مصادر الري من حيث شق الترع والجداول (البلاذري، فتوح، ص٣٥٥)، وأمدّ الفلاحين بالقروض الزراعية بلغت قيمتها ألفي ألف درهم (٢ مليون) (ابن رسته، الأعلاق، ص١٠٥). أما تغطية النقص في الأيدي العاملة فقد غطاه بالاعتماد على

الأيدي العاملة من الخارج، ولم يتساهل في موضوع هجرة الفلاحين إلى قراهم، بل أصدر أمره بعودتهم إليها (البلاذري، أنساب مخطوط، ق٢، ص٢٢، ٢٣) وتشدد في ذلك بعد انتشار ظاهرة الهجرة، وما كان لها من أثر على الخراج وتراجعه. (اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢٩١).

وحاول عامل الكوفة في أيام عمر بن عبد العزيز، وهو عبد الحميد بن عبد الرحمن معالجة ظاهرة انكسار الخراج، باستصفاء أراضي الفلاحين المهاجرين، فلم يوافقه الخليفة على ذلك. وأكد حق من يسلم في الهجرة إلى الأمصار الأخرى، ومسؤوليته بالنسبة لأرض الخراج، فالخراج يؤخذ على الأرض لا من العامل على الأرض، (عبد العزيز الدوري، الضرائب في السواد، ص٥٩).

كما أكد عمر بن عبد العزيز على أن الأرض فيء للمسلمين -وهذا ما أقره الخليفة عمر بن الخطاب منذ بدأ التنظيم- ودعا إلى إقرار مبدأ هام هو أن الخراج على الأرض، بغض النظر عن مالكها سواء كان مسلماً أم ذمياً، فالإسلام يعفي من الجزية فقط. (أبو عبيد، الأموال، ص٩٥، ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٧٩، مالك بن أنس، الموطأ، ص٢٢٥).

* **الإجراءات في الشام:**

من الواضح في البداية أن الإدارة الأموية استمرت على إجراءات عمر بن الخطاب، إذ دفع أهل القرى (في نطاق الجزية)، الخل والزيت لأرزاق المسلمين، وكانت هناك محاولات لأخذ الجزية بالنقد، إلاّ أن المحاولات لم تكن جادة، فتركت للدافعين حرية اختيار طريقة دفع الجزية المقررة، إما عيناً

وإما نقداً.

أما المعلومات الخاصة بالخراج وتقديراته، فيمكن القول إن مجموع وارد الخراج في أيام معاوية كان ١,٨٨,٠٠٠ دينار، موزعاً على أجناد الشام كالتاي:

جند دمشق	٤٥٠ ألف دينار
جند الأردن	١٨٠ ألف دينار
جند فلسطين	٤٥٠ ألف دينار
جند حمص	٣٥٠ ألف دينار
جند قنسرين والعواصم	٤٥٠ ألف دينار (اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ٢٣٣)

وسار عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٥هـ/ ٦٨٥-٧٠٤م) في بادىء الأمر على نهج أسلافه في فرض الضرائب، فكانت الجزية تدفع عيناً ابتداءً، ولكنه قرر بعد ذلك إعادة النظر في تقدير الضرائب من جديد، وابتدأ بالجزية إذ فرض على كل فرد من أهل القرى جزية نقدية محددة بأربعة دنانير. (أبو يوسف، الخراج، ص٤١).

أما عن التدابير الخاصة بالأرض فيلاحظ أنه فرض الخراج على الأرض مع مراعاة قرب الأماكن المزروعة أو بعدها، (دينيت، الجزية، ص٨٩). كما أن مجموع الوارد في أيامه أصبح قريباً من وارد الدولة في بداية تكوينها، فكان ١,٧٣٠,٠٠٠ دينار. (البلاذري، فتوح، ص٢٣٠).

ويبقى موضوع الإصلاح النقدي الذي أشرف عليه عبد الملك في العراق، وتولاه بنفسه في دمشق، من الأساسيات التي يفترض ذكرها في إطار الحديث عن الإنجازات المالية في أيام عبد الملك بن مروان.

اهتم الإصلاح النقدي بالدرجة الأولى بتغيير الأوزان، وليس بإلغاء الصور وتغيير الكتابة فقط. فأصبح وزن الدينار الإسلامي ٤,٢٥غم، في حين كان وزن الدينار البيزنطي ٤,٥٥غم. ويبدو أن الدافع الأساسي للإصلاح، ينطلق من مبدأ التعامل مع وزن يوافق وزن المعايير المحلية، فكان المعيار الجديد للدينار هو المثقال العربي، وهو وزن مألوف للعرب قبل الإسلام.

وضرب الدرهم الإسلامي الجديد في سنة ٧٩هـ/ ٦٦٨م، وجعل وزنه ٢,٩٧غم بدلاً من ٣,٩٠٦ (وزن الدرهم الساساني)، وهذا الوزن الجديد هو وزن الدرهم الشـــــرعي. (انظر Grierson, The Monetary Reforms of Abd Al-Malik, p: ٢٥٠-٢٥٣).

* **الضرائب غير الشرعية:**

أضاف بعض عمال الخراج في العصر الأموي على دافعي الضرائب، عدداً من الضرائب الإضافية كانت في الغالب فوق طاقة دافعيها، كهدايا النيروز والمهرجان (وهي هدايا نوعية اعتاد أهالي الإمبراطورية الساسانية تقديمها للملك على شكل هدايا في النيروز «أول الاعتدال الربيعي»، أو المهرجان «الاعتدال الخريفي» وألغاها عمر بن الخطاب)، وثمن الصحف والقراطيس التي تحسب فيها مقادير الخراج وإيصالاته، ورسوم أجرة المخازن المحلية التي توضع فيها المواد العينية، ودراهم النكاح وهي رسوم يأخذها

العمال من أهل الخراج إذا تزوجوا. وقد أصدر عمر بن عبد العزيز تعميماً إلى عماله، باتخاذ الإجراءات اللازمة لإلغائها أحكاماً للعدل.

هذا إلى جانب رسوم أخرى مرتبطة بالنقود مثل أجور الضرّابين، (أجور ضرب النقود)، وهي رسوم أقرها الحجاج لكف أيدي الصناع والطباعين عن النقود، وقد أضافت عبئاً جديداً على دافعي الخراج، فدعى عمر بن عبد العزيز إلى إلغائها أيضاً.

إجراءات العباسيين الضريبية:

* الإجراءات في العراق:

أ- الجزية:

كان الخراج يومئذ نقداً على المساحة، ولكن تقلص الأراضي الزراعية وانخفاض أسعار الحاجيات، جعلت هذا النظام مرهقاً، وفكر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م) بتجاوز فرض الخراج وفقاً للمساحة إلى نظام يعتمد الإنتاج أساساً للتقدير. إلاّ أن هذا النظام لم ينفذ إلاّ في خلافة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م) بعد الوقوف على فعالية النظام الجديد من خلال الدراسة التي قدمها كاتبه ووزيره معاوية بن عبيد الله بن يسار.

وكانت المقاسمة تقوم على أساس أخذ نسبة من الحاصل مقدارها النصف إذا سقي الزرع سيحاً، والثلث إذا سقي بالدوالي، والربع إذا سقي بالدواليب. ثم زاد المهدي نسبة المقاسمة فأصبحت ٦٠٪ (انظر البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣٣، عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي،

ص٦٢، قدامة بن جعفر، الخراج ص٢٢٣، الطبري، تاريخ، ج٨، ص٢٣٦).

واهتم هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م) بالأرض الخراجية وجبايتها، وأوكل إلى قاضي القضاة أبي يوسف، أن يضع له كتاباً جامعاً للإفادة منه في تنظيم الضرائب وجبايتها، فوضع كتاب «الخراج» وهو وثيقة مالية جامعة، اجتهد أبو يوسف في إخراجها بما يتوافق وأحكام الشرع، مع بعض الاجتهادات التي اقتضتها ظروف العصر.

واقترح أبو يوسف على الخليفة، تطبيق نظام المقاسمة على جميع الغلاّت والأشجار، فلم يستثنى منها شيئاً. كما اقترح نسب مقاسمة، تختلف عن النسب التي اقترحها معاوية بن عبيد الله من قبل. فأشار أبو يوسف بمقاسمة الحنطة والشعير وفقاً لوسائل الري، فعلى الخمسين إذا سقي الزرع سيحاً، وعلى خمس ونصف للدوالي، وأشار بمقاسمة النخل والكرم والرطاب والبساتين على الثلث، وغلال الصيف على الربع، واستثنى أبو يوسف بعض المنتجات الحيوية كالحطب والحشيش والتبن من ضريبة الخراج، ربما كان ذلك لأن الحطب والعشب مشاعة (أبو يوسف، الخراج، ص٤٩، ٥٠، ٥٥).

هذا، وقد خفض الرشيد نسبة المقاسمة إلى ٥٠٪ بعد أن كانت ٦٠٪، في حين أمر المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) بمقاسمة أهل السواد على الخمسين أو ٤٠٪ وينطوي هذا الإجراء على دوافع سياسية، ربما كان أوضحها استمالة أهل بغداد واسترضائهم بعد انتهاء أزمة الحكم التي كانت قائمة بين الأمين والمأمون (الطبري، تاريخ، ج٨، ص٢٣٦، ٥٧٦).

ولم يحدث تغيير يذكر في الخراج خلال الفترة الممتدة من عهد المعتصم إلى عهد المتوكل، باستثناء الإشارة إلى محاولة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٣٦-٨٦١م)، إعادة النظر في مواعيد جباية الخراج، تجنباً للأخطار الناجمة عن استفتاح الخراج في النيروز (وهو موعد الجباية في العراق) والزرع أخضر، فأمر بتأخير النيروز إلى وقت يتناسب وموعد نضج الغلات، إلاّ أن مقتله حال دون تطبيق تلك الإجراءات. (المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٢-٢٣).

ويجدر الانتباه أن خراج المقاسمة طبق على بعض نواحي السواد، وبقيت نواح أخرى تدفع ما عليها من خراج نقداً وعيناً.

* **الإجراءات في الشام:**

كانت بلاد الشام مركز الخلافة زمن الأمويين، وبمجيء العباسيين أصبحت الشام ولاية تابعة لمركز الخلافة.

ويلاحظ في الشام آنذاك، إجراءات التعديل في زمن المنصور، لتثبيت وضع الأرض الخراجية، ووضع حد للتجاوزات على حقوق بيت المال.

ومرت إجراءات التعديل بمرحلتين، المرحلة الأولى عندما أرسل المنصور المعدلين إلى كور الشام، في سنة (١٤٠-١٤١هـ/ ٧٥٧-٧٥٨م) لتعديل الأراضي التي أصبحت تدفع العشر ولا خراج عليها، مثل أراضي حمص وبعلبك، والمرحلة الثانية إجراء التعديل في أراضي الغوطة حفظاً لحقوق بيت المال.

أمّا فلسطين فالإشارات عنها محدودة في تلك الفترة، إلاّ أن ثورة أهلها على عامل المنصور، تشعر بوجود تظلم لم تحدد أسبابه. (ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١، ص٥٩٦)، وواجه الرشيد أمرين هامين أولهما: هجر أصحاب الضياع في فلسطين لضياعهم.

ويبدو أن الدولة قررت على الضياع خراجاً مجحفاً، فترك أصحاب الضياع ضياعهم، ثم رجعوا إليها بعد التخفيف من خراجهم. (البلاذري، فتوح البلدان، ١٧١).

أما الأمر الثاني فهو ثورة أبي الهيذام في الشام (١٧٠-١٧٧هـ/ ٧٨٦-٧٩٣م) وهي ثورة قبلية وقعت في غوطة دمشق بين قبائل قيسية وقبائل يمانية، حاول فيها القيسيون زيادة هيمنتهم على الغوطة في دمشق للاستفادة من الإنتاج.

وسعى والي دمشق إلى تهدئة الأوضاع على حساب القيسيين ودعم اليمانيين مما أدى إلى استمرار المواجهات بينهما لمدة سبع سنوات، إلى أن اختار أبو الهيذام الانسحاب، وأرسل إلى والي دمشق قائلاً: «إنما خفت على أهل دمشق أن يغير عليهم اليمن، فإن رأيت قوتك وضعفهم فأنا منصرف» (انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص٣٩٣).

ويظهر أن المشكلة كانت ذات وجهة اقتصادية ترتبط بالأرض وملكيتها، كذلك بنظام الضرائب وطرق توزيعها، إذا أخذ بالاعتبار قرار الرشيد التخفيف عن أصحاب الأراضي في فلسطين، دون المناطق الأخرى مثل دمشق، التي بقيت تتحمل الأعباء الضريبية أكثر من غيرها من الأجناد.

وحاول المأمون معالجة الوضع، بتعديل أجناد الشام ومساحتها من جديد. وأثار التعديل الاضطرابات في الشام، والأردن، لأنها لم تكن في صالح الناس، واستمرت الثورات الأهلية فيها لفترات طويلة. (الدوري، العصر العباسي الأول، ص١٧٠).

* **الضرائب غير الشرعية:**

هناك ضرائب أخرى عديدة تدعى ضرائب غير شرعية، أضيفت إلى الضرائب الشرعية. وقد أشار أبو يوسف إلى مجموعة من هذه الضرائب التي أصبحت مألوفة عرفاً، ودعى إلى إلغائها كهدايا النوروز والمهرجان. فقد صار النوروز سنّة حرص بعض الخلفاء العباسيين على تطبيق بعض المراسم الخاصة بها، (المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠) وأجرة كيل الحاصل ونقله، وأجور الكيالين، والرسوم الإضافية الطارئة وتسمى النائبة، ويبدو أن هذه الضريبة كان عينية، فلما طبق نظام المقاسمة صارت عبئاً إضافياً يفترض إلغاؤه.

وهناك ضرائب أخرى غير شرعية كالضريبة التي وضعها المنصور على دور الكوفة، وضريبة المستغلات التي تفرض على الحوانيت والطواحين، وكانت إيراداتها مرتفعة وتشكل مورداً لا بأس به للخزينة.

وعلى ما يبدو فقد كانت تلك الضرائب فوق طاقة دافعيها، مما اضطرهم إلى بيع ممتلكاتهم لتأمين دفعها.

سياسة الخلفاء في إدارة الضرائب وتنظيمها:

ترتبط سياسة الخلفاء في إدارة الضرائب بأمرين اثنين: الأرض وأهل الأرض. ويبدو أن توجه الخلافة الإسلامية هو مراعاة قدرة الأرض على الاحتمال، ومراعاة أوضاع الزراع وإمكاناتهم أيضاً.

وكانت توجيهات عمر بن الخطاب إلى أصحاب الأرض صريحة للمحافظة عليها، وأن لا يحملوها فوق طاقتها. ومن هنا كانت الضرائب على السواد (العراق) محددة نظراً لاعتماد أراضيه على الري، أمّا في الشام فلم تكن الضرائب محددة بل ترتبط بمياه الأمطار.

أما الزراع فقد اهتم الخلفاء الراشدون بأوضاعهم، ودعوا إلى مراعاتهم والرأفة بهم لإدرار الخراج. فقد حث عمر بن الخطاب عماله على الرأفة بأهل الخراج عند الجباية، وأوصى الخليفة من بعده بأهل الذمة خيراً (البلاذري، أنساب الأشراف، الشيخان ص٢٦٤).

وتابع علي بن أبي طالب إجراءات عمر، فأوصى عماله على الخراج، أن يهتموا بالأرض قبل الاهتمام باستجلاب الخراج. كما أوصى أن يأخذوا حالة الزرع بعين الاعتبار أيضاً. إذ يذكر أنه وضع خراجاً على جريب البر الرقيق يختلف عما وضعه على جريب البر الغليظ مثلاً (البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣٢).

ودعا علي بن أبي طالب إلى إنصاف دافعي الضريبة وجبايتهم بالحق، (المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٨، ص٨٨). كما دعا إلى التخفيف عن أهل الخراج في حال إصابة الغلة بآفات.

وتابع الأمويون إجراءات الراشدين، مع ظهور بعض التغييرات التي اقتضتها ظروف الدولة الجديدة. فقد أولى معاوية الأرض ومن عليها عناية متزايدة، فاستصلح البطائح (أراضي واسعة مغمورة بالمياه)، وسعى إلى إنصاف دافعي الضريبة، باختيار عماله ومتابعته لهم، فقد عزل أحد العمال لأنه اشتد في أمر الخراج مثلاً، ولم يقبل من عامل آخر جباية الخراج قبل موعده المحدد (البلاذري، أنساب الأشراف، ج١، ق٤، ص١٣٧، ١٩٣).

وأثرت حالة الاضطراب التي تلت وفاة معاوية، حتى انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير في العراق، في الزراعة، كما كان للأوبئة تأثير مباشر أيضاً، وكان على عبد الملك وولاته إعادة النظر في الأوضاع. فاهتم الحجاج وهو والي العراق أيام عبد الملك، بأمر الخراج، وعمل على إعمار أراضي في السواد عن طريق حفر الأنهار، واستصلاح ما حولها من أراضي، كما لجأ إلى الإقطاع من أراضي الموات لإحيائها.

وراعى الحجاج حالة الفلاحين، وعمل على مساعدتهم بالقروض المالية، واستثنى الضعفاء من مسؤولية تراجع الخراج في حال الأزمات والكوارث الطبيعية. لكنه بالمقابل لم يتهاون مع المقصرين أو المتهاونين في أمر الخراج. (انظر البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٤٣، ابن رسته، الأعلاق، ص١٠٥، أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج١، ص٣٠).

وراعى عمر بن عبد العزيز في سياسته المالية، طاقة الأرض، وظروف دافعي الضريبة، فميز بين نوعين من الأراضي، هي الأرض الخراب، والأرض العامرة. ودعا إلى الرفق بدافعي الضريبة والاكتفاء منهم بالفضل.

(ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٥٣). كما دعا إلى الابتعاد عن الأساليب السيئة في الجباية لما فيها من ظلم بحقهم، وأمر بتسليف أهل الذمة من فضول بيت المال دعماً لهم، وحرصاً على وارد الخراج.

واهتم الأمويون بعد عمر بن عبد العزيز بسلامة الوارد، فقد عمل عمر بن هبيرة عامل يزيد بن عبد الملك في العراق، على إعادة النظر في ضريبة الخراج، آخذاً بعين الاعتبار ظروف دافعي الضريبة، وإن حصلت بعض التجاوزات من بعض عماله.

وحرص هشام بن عبد الملك على إعمار الأرض وإصلاحها، بمنح التسهيلات لحفر الأنهار، وفي نفس الوقت الرأفة بأهل الذمة.

وكان حريصاً على مراقبة وجوه تحصيل الأموال وصرفها، حتى أصبحت دواوينه مثلاً يشار إليه بالدقة والتنظيم.

وسعى العباسيون لعمارة الأرض ومراقبة دافعي الضريبة. وحرصت الدولة على تضمن من خلالها حقوق بيت المال. فعمل أبو العباس ١٤ توفير معدلات معقولة في الجباية، على تنظيم سجلات الخراج، فجعلها في دفاتر بعد أن كان صحفاً مدرجة (الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٨٩).

واهتم المنصور بعمارة الأرض، وإنصاف من عليها، بتخفيف الخراج عنهم، وكان شديداً في مراقبة العمال والكتاب حتى سمي بأبي الدوانيق. إلاّ أن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك إغفال لحق الناس أحياناً، (انظر: الخطيب، تاريخ بغداد، ج٢، ص٢٩٩) فانتشر الاحتكار، كما انتشر الإلجاء أيضاً. (والإلجاء أن يلجىء الضعيف ضيعته إلى قوي ليؤدي الخراج عن

الأرض ويتخلص من تعسف العمال).

وابتدأ المهدي حكمه برد المظالم، وأصدر أمره إلى العمال برفع العذاب عن أهل الخراج، (الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٤٢-١٤٣).

وكان المهدي يتشدد في محاسبة جباة الخراج لتحصيل الأموال منهم. وترد الإشارات إلى استحداث المهدي دواوين الأزمة، ثم زمام الأزمة سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م، للإشراف على الدواوين، ومراقبة الأمور المالية خاصة.

واهتم الرشيد بتنظيم الخراج، وإصلاح طرق الجباية. وطلب إلى قاضي القضاة أبي يوسف أن يضع له قواعد ضريبة الخراج، الواجبات والحقوق وفقاً للأصول الشرعية.

وابتدأ أبو يوسف الرسالة بالدعوة إلى العدل وتجنب الظلم، ودعا الخليفة إلى النظر في مظالم الرعية مرة كل شهر أو شهرين.

وتعرّض أبو يوسف لأساليب الجباية وطرقها، فنهى عن القبالة في الجباية أي أن يدفع رجل ما يجب على منطقة من خراج ويمنح سلطة جبايتها عند الحصاد، الأمر الذي يؤدي إلى ظلم الفلاحين، لأنه يجبي أكثر مما يعطي. وأجاز الضمان في حالة رضى أهل البلد عن تضمين خراج بلدهم إلى رجل منهم.

واقترح أبو يوسف إرسال مجموعة من الجند من أهل الديوان عرفوا بصلاحهم ونصحهم للخليفة لمراقبة العمال وأعوانهم، على أن توفى أرزاقهم من ديوانهم، فلا يأخذوا من الخراج شيئاً.

ودعا أبو يوسف إلى الرأفة بأهل الخراج والإمتناع عن تعذيبهم، كما دعا إلى تنفيذ كل ما فيه مصلحة لأهل الخراج في أرضهم. (أبو يوسف، الخراج، ص١٠٦-١٠٧، ١١١-١١٢).

واهتم الأمين بأمر الرعية رغم أحداث الفتنة التي عمت البلاد، (وسببها عهد الرشيد إلى أبنائه من بعده الأمين أولاً ثم المأمون ثم المؤتمن، وتوزيع ولايات الخلافة بينهم مما جعل وضع الأمين صعباً) فدعا إلى حمايتهم وحماية مزروعاتهم. كما اهتم بأمر الجند وأمر بأن تؤدى أرزاقهم كاملة.

واتجه المأمون بعد انتهاء الفتنة الداخلية، إلى استصفاء قلوب الرعية بالجلوس إلى المظالم والنظر فيها. وكانت الشكوى في الغالب من عسف العمال وتشددهم في الجباية. وعمل المأمون على تخفيف الخراج عن بعض المناطق كالري وخراسان، مكافأة لها لوقوفها إلى جانبه في الفتنة، في الوقت الذي ظهر فيه تشدداً في الجباية في مناطق أخرى مثل قم. وظهرت أصوات تندد بتصرف المأمون في حقوق المسلمين وإنفاقه المال في غير محله (الطبري، تاريخ، ج٨، ص٥٦٨).

أما المعتصم فلم يتهاون في أمر الخراج، وأظهر حزماً في متابعة الولاة لعجزهم عن دفع الأموال المطلوبة منهم للدولة (التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٢، ص٦٠-٦١).

الوحدة الرابعة

الحياة الاقتصادية في الحضارة العربية الإسلامية

الحياة الاقتصادية في الحضارة العربية الإسلامية

تشمل التجارة -الزراعة- الصناعة[1]

١- التجارة:

مرفق اقتصادي عرفته معظم الحضارات والدول والمجتمعات المستقرة، ومنهم العرب منذ قبل الإسلام، الذين كان اعتماد حياتهم الاقتصادية على الرعي، ثم على التجارة لأن العوامل الطبيعية كانت غير ملائمة بوجه عام للزراعة والصناعة.

وساعد على ازدهار تجارة العرب موقع الجزيرة العربية المتوسط بين الشرق والغرب في العالم القديم. وهو ما تشير إليه المصادر المصرية القديمة واليونانية والرومانية، والعربية.

وقد لعبت اليمن وقريش دوراً هاماً في التجارة، وتعاونتا في تنظيم وتأمين الرحلات التجارية بين اليمن وبلاد الشام والعراق ومصر والحبشة، مما يعرف برحلات الشتاء والصيف التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة قريش. وهي رحلات تنقل بضائع الهند والشرق الأقصى والجزيرة العربية إلى المناطق المجاورة كالعراق وبلاد الشام ومصر والحبشة.

وتحدثنا المصادر وأولها القرآن الكريم عن إيلاف قريش، وهو تحالفات أمنية تجارية عقدها زعماء قريش مع القبائل التي تمر القوافل التجارية في أراضيها، لضمان أمنها وعدم الاعتداء عليها، مقابل خدمات تجارية تؤديها القوافل لهذه القبائل. بالإضافة إلى محالفات تجارية، وتسهيل إقامة التجار

---

(١) أعد هذه الوحدة، د. غيداء خزنة كاتبي.

العرب والقوافل، وبيع بضائعها مع السلطات البيزنطية في بلاد الشام ومصر ومحالفات مماثلة مع السلطات الفارسية التي كانت تستولي على العراق. ومحالفات مماثلة مع بلاد الحبشة واليمن.

وكانت قوافل التجارة العربية بين اليمن وبلاد الشام تضم أحياناً عشرة آلاف وأحياناً عشرين ألف جمل وتسمى قطار، مما يدل على مبلغ وأهمية التجارة والبضائع التي كانت تنقلها بين البلدين. وقد اشتغل الرسول ﷺ بالتجارة قبل البعثة، كما اشتغل فيها عدد كبير من الصحابة قبل الإسلام وبعده.

وكانت هناك أسواق تجارية تزدهر في مواسم الحج، إذ يتوافد التجار من جميع أنحاء الجزيرة لعرض بضائعهم فيها، ومن أبرز هذه الأسواق: سوق عكاظ، ذو المجاز، ودومة الجندل، والمشقر بهجر، وصحار بعمان، وسوق عدن، وصنعاء.

أمّا أهم ما تنتجه بلاد العرب فهو التمر، كذلك الدهون على اختلافها مثل اللبان والمر والبن والعود، كما كانت تستخرج بعض المعادن الثمينة والأحجار الكريمة. (مصطفى الرافعي، حضارة العرب، ص٦١). أما الخيول فتنشأ في البقاع الخصبة كسهول العراق وسوريا ونجد، وفي نجد وحدها أعز الخيول العربية وأرهفها (غوستاف لوبون، ص ٦٢).

تطور التجارة في صدر الإسلام:

توقفت تجارة قريش إلى اليمن بعد الهجرة، بسبب محاولة

الرسول ﷺ فرض حصار اقتصادي على قريش لمعاداتها الإسلام، وبهدف فتح مكة سلمياً وإدخال أهلها في الإسلام. كما انشغل العرب المسلمون في صدر الإسلام بالفتوح عن التجارة، ولكن استقرار الفتوح ودخول الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها في الإسلام، ساعد في عودة التجارة العربية إلى سابق عهدها، ثم نمت واتسعت بازدياد مساحة الدولة الإسلامية، لذلك أصبح مألوفاً وجود معاملات تجارية للعرب في أواخر العصر الأموي.

وبلغت التجارة أوجها في العصر العباسي، وأصبح التاجر في هذا العصر رمزاً للحضارة العربية الإسلامية.

وألفت عدة كتب في الحضارة العربية الإسلامية عن التجارة، وهذا يدل على أهميتها خاصة إذا قورن بقلة ما كتب عن النواحي الأخرى للحياة الاقتصادية.

وقد تناولت كتب الجغرافيين المعاصرين للفترة مثل ابن خرداذبة، وقدامة ابن جعفر، وابن رسته، واليعقوبي، والمسعودي، والاصطخري وصفاً دقيقاً لطرق المواصلات إضافةً إلى المعلومات عن المنتجات المحلية، ومزايا الفعاليات التجارية.

ويظهر أن المركز الجغرافي للعراق قد ساعد على تشجيع التجارة وتوسيع أفقها، فهو جسر تجاري بين إيران والهند وآسيا الوسطى والصين من جهة، وبين الجزيرة العربية والشام ومصر من جهة أخرى، كما يطل على خليج البصرة الذي كان طرف الخط البحري التجاري من الصين من جهة وشرقي إفريقية من جهة أخرى. كذلك شجع الخلفاء العباسيين التجارة لطلباتهم الكثيرة على الكماليات، وإعفاء التجار من الضرائب لتوسيع

أعمالهم. (انظر: عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع هـ، ص١٣٧، ١٣٨).

وتعددت المراكز التجارية البرية والبحرية في العالم الإسلامي مثل البصرة، وبغداد، ودمشق، وحلب، والقاهرة، والإسكندرية، وأصفهان، وسيراف، وموانيء الشام مثل طرابلس، وصيدا، وبيروت.

وكان يوجد في كل مركز من هذه المراكز رئيس للتجار سمي أحياناً شاه بندر التجار يراقب المعاملات التجارية ويمنع الغش والتدليس، كما وجدت وكالات تجارية لإقامة التجار الغرباء وحمايتهم مع بضائعهم.

ووجدت أنواع من التجارة، منها ما هو داخلي أي تبادل تجاري داخل أقاليم ودول العالم الإسلامي. ومنها ما هو خارجي أي نقل وتصدير المنتجات العربية الإسلامية إلى خارج الدولة الإسلامية. بالإضافة إلى تجارة المرور (الترانزيت) أي نقل البضائع من الشرق والغرب مروراً بالعالم الإسلامي.

وليس أدل على بلوغ التجارة العربية إلى مناطق بعيدة من العالم من العثور على عملات نقدية إسلامية في دول شمال أوروبا كالسويد والنرويج والدنمارك.

وكان طبيعياً أن تنمو المؤسسات الصيرفية، وأن تتوسع وسائل الاعتماد التجاري أيضاً. وكان الصرافون في هذا الدور يقرضون التجار ويحفظون ما يودعه هؤلاء عندهم من أموال. وكثيراً ما كان التجار يكتبون الصكوك على الصرافين بدلاً من أن يدفعوا النقود رأساً، فيقوم الصراف

بالدفع (عبد العزيز الدوري، المرجع السابق نفسه، ص١٥١).

الطرق التجارية:

استعمل التجار الطرق التجارية البرية والنهرية والبحرية.

أ) الطرق البرية:

تعمل الحكومة على إنشاء الطرق وصيانتها وحمايتها، مع ملاحظة أن التجار لم يطالبوا بدفع المكوس (تجاوزات في ضرائب التجارة) داخل الدولة.

وكانت الطرق البرية تحت إشراف صاحب البريد، ويفترض فيه معرفتها بصورة جيدة، وأهم الطرق البرية:

١- الطريق الشرقي من بغداد إلى همذان وقزوين والري ونيسابور ومرو وبخارى، ثم يتشعب الخط التجاري فيذهب الشمالي إلى خوارزم، والشرقي إلى الصين، وكانت خوارزم مركزاً للتجارة الإسلامية مع الترك وأواسط آسيا وأوروبا الشرقية.

٢- الطريق الشمالي إلى الموصل والجزيرة ثم إلى بلاد الروم.

٣- الطريق الجنوبي الغربي إلى الكوفة والحجاز وجنوبي الجزيرة وكانت هذه الطريق مهمة في أوقات الحج.

٤- الطريق الغربي إلى الرقة ومنها إلى سورية ومصر وشمال إفريقيا. (عبد العزيز الدوري، المرجع السابق نفسه، ص١٦٦).

ب) الطرق النهرية:

وهي أنسب من البرية وأسرع في كثير من الأحيان، وكان دجلة والفرات أهم ممرين في البلاد، فيصلان الطرق بالخليج العربي، ويربطان بين المدن المختلفة.

وكان دجلة صالحاً للملاحة في أقسامه العليا، حيث أن السير فيه من بغداد إلى الخليج العربي أسهل منه في بقية أجزائه، لاتساع النهر في هذا الجزء.

واستخدم دجلة للنقل شمالاً في اتجاه معاكس لتيار النهر حتى مدينة الموصل. ويفهم من بعض الإشارات أن مجرى دجلة بعد واسط ضحل، ولذلك لا تستعمل فيه قوارب صغيرة.

أما الفرات، فكانت القوارب تصعد شمالاً حتى الرقة، مع ملاحظة أن السير في الفرات كان يأخذ اتجاه مجرى النهر.

جـ) الطرق البحرية:

كانت ملاحة العرب في البحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندي، وقد استعملوا المراكب الصغيرة للملاحة الساحلية، بينما استعملوا مراكب كبيرة بعرض البحار.

واسترشد التجار بخرائط في رحلاتهم، أما البوصلة فلم تكن معروفة في القرن الرابع الهجري، فكان التجار يوجهون سفنهم مستعينين بالشمس

والقمر والنجوم.

وأهم الطرق البحرية فهي:

١- الطريق إلى الهند والصين ثم إلى موانيء ساحل الهند الغربي، ثم إلى سيلان وخليج البنغال، ثم إلى سومطرة وبحر الصين وينتهي في كانتون.

٢- ويسير الطريق البحري الثاني حول سواحل الجزيرة إلى البحر الأحمر، ويذهب فرع منه إلى سواحل إفريقيا الشرقية حتى موازمبيق، ويسلكه التجار بحثاً عن الذهب والرقيق (عبد العزيز الدوري، المرجع السابق نفسه، ص١٦٤-١٦٥ . ١٦٨-١٧٣).

الصادرات والواردات:

تشكل المنسوجات القطنية والحريرية والعطور الزيتية، كذلك الأواني الخزفية والتمور والحنطة والعسل والملح أهم صادرات الخلافة. في حين يتم استيراد الورق من سمرقند، والأنسجة الحريرية والمسك والعقاقير والرقيق من الصين، والتوابل والأحجار الكريمة من الهند، والمنسوجات الحريرية وزيت الزيتون والسكر والزجاج من سوريا.

ويستورد الخيل والجمال من الجزيرة العربية، والمنسوجات والعنبر والسيوف من اليمن، والنسيج الكتاني والبرادي من مصر. إضافة إلى الديباج والسجاد من بلاد الروم.

واتبعت عدة طرق للتبادل التجاري بين الأقطار المختلفة، فقد اتبعت

طريقة المبادلة (المقايضة) وأحياناً النقود الإسلامية، أو الصكوك دون اللجوء إلى النقود.

وكانت العملة في العراق ثنائية تستند إلى الدينار والدرهم، ولم يكن سعر الدرهم بالنسبة للدينار ثابتاً، بل يرتفع ويهبط تبعاً لقيمة الفضة والذهب في السوق، إضافةً للتطورات التجارية، وكان التعامل في مصر والشام بالدينار، وفي إيران بالدرهم.

وشاع استعمال أنصاف الدراهم أيضاً، وقطع عملة صغيرة كالقيراط (يساوي القيراط دائماً ١/ ٢٤ من المثقال، أو ١/ ١٦ من الدرهم) والدانق (وحدة وزن ونقد تساوي ١/ ٦ درهم أو في كثير من الأحيان ١/ ٦ دينار)، والفلس للمشتريات القليلة. (عبد العزيز الدوري، المرجع السابق نفسه، ص١٧٨-١٧٩. فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٢٩، ٤٤).

٢- الزراعة:

يرتبط الاهتمام بالزراعة في جميع الحضارات باستقرار الإنسان الأول، باعتبارها مصدر قوت الناس. وساعدت البيئات النهرية، توافر الأمطار في بعض المناطق بما فيها العالم الإسلمي، على تكوين تراث حضاري زراعي قديم أفادت منه الحضارات ومنها الحضارة العربية الإسلامية وقد عرفت بعض مناطق الجزيرة العربية الزراعة منذ قبل الإسلام، وبخاصة في اليمن، وعُمان، وشرق الجزيرة، وبعض الواحات في الحجاز ونجد وغيرها، كما عرف العرب السدود كسد مأرب وغيره، وقال أحد الشعراء في ذلك:

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب   ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً

حتى أطلق قديماً على بلاد اليمن، بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) لخصبها وتجارتها.

وقد وردت آيات عديدة حول الجنان والحدائق والنباتات والحبوب والفواكه، بالإضافة إلى أحاديث نبوية تشجع على الغرس والزراعة وإحياء موات الأرض.

ويعتمد تطور الزراعة على نظام الأراضي وأنواعها من جهة، وعلى تنظيم الري من جهة أخرى.

* **نظام الأراضي وأنواعها:**

١- ضياع الخلافة: وهي في الأصل من الصوافي التي اصطفاها عمر بن الخطاب من أراضي الفرس والبيزنطيين، ثم وسعها الأمويون ومن بعدهم العباسيون فأضافوا إليها أراضي جديدة بالشراء وتجفيف المستنقعات «في جنوب العراق تحديداً»، والأراضي المصادرة.

٢- الإقطاع: وكان الخليفة هو صاحب الحق في الإقطاع، ويمكن تمييز أربعة أنواعه من الإقطاع:

أ. إقطاعيات لكبار الموظفين بدل رواتبهم، ليست وراثية.

ب. إقطاعيات خاصة لبعض الأفراد، كالشعراء مثلاً.

جـ. إقطاع من أراضي الموات لإصلاحها، ويدعى هذا الإقطاع

بإقطاع تمليك يرثه الأولاد من الآباء.

د. إقطاعات عسكرية لرجال الجيش بدل رواتبهم. وهي إقطاعات شخصية وليست وراثية، إلاّ أن الجند تصرفوا بها كإقطاعات خاصة عند ضعف الدولة.

٣- أراضي الوقف: الوقف لغةً الحبس، وشرعاً حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه، وسمي وقفاً لأن المالك وقف تصرفه فيه. (السمناني، روضة القضاة، ج٥٢، ص٧٧).

هناك نوعان من أراضي الوقف، أوقاف رسمية، وأوقاف غير رسمية. فالأوقاف الرسمية هي الأراضي التي أقطعها الخلفاء أو الوزراء (ابن بطوطة، تحفة النظار، ج٢، ص٧١١. اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٤٦٤)، أما غير الرسمية فيوقفها الناس من أملاكهم الخاصة (السمناني، السنن، ج٦، ص٢٣٣، ٢٣٤)، وتوضع تحت إدارة القاضي لإصلاحها وتنمية مواردها (ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١، ص٦٦).

تنظيم الري:

اعتنى العرب بالري كثيراً، وجعلوه تحت إشراف الدولة، فهي المسؤولة عن إنشاء القنوات والسدود والمحافظة عليها.

ولما كانت أراضي السواد تعتمد على الري المنظم، فإن تأمين مصادر الري والعناية بها، كانت أساسية لإعمار السواد وتنظيم الزراعة فيه.

وقد بذل الخلفاء الأمويون جهوداً موفقة في إعمار الأرض

وإصلاحها. فمنحوا ولاتهم التسهيلات اللازمة لحفر الأنهار، وشق الترع والجداول، وكراء الأنهار وإصلاح القناطر وإحياء ما حولها من أراضي (البلاذري، فتوح، ص٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨، علي محمد المياح، أرض السواد، ج١، م٤١، ص٢٣٥)، حتى غدت الزراعة رمزاً للحضارة العربية الإسلامية في العصر الأموي.

واهتم الخلفاء العباسيون بالزراعة وتأمين مصادر الري أيضاً، فقد اقترح أبو يوسف قاضي القضاة آنذاك، على الخليفة الرشيد، أن يعمل على تنفيذ كل ما فيه مصلحة أهل الأرض وأنهارهم شريطة أن لا يضر ذلك بسكان منطقة أخرى. واعتبرها مشاريع تنموية، حدد مسؤولية الإنفاق عليها تبعاً للفوائد.

ويبدو أن الرشيد قد أخذ بهذا الاقتراح، إذ أمر بحفر نهر القاطول وجعل نفقته على بيت المال، كما جعل النفقة على البثوق والمسنيات والبزندات (حواجز على جانبي النهر خلال فترة الفيضانات) من بيت المال أيضاً.

ووزع مسؤولية كري الأنهار التي تأخذ من دجلة والفرات على بيت المال وأهل الخراج معاً. أما الأنهار الخاصة بأراضي الخراج ومزارعهم فجعل كريها عليهم. (أبو يوسف، الخراج، ص١١٠).

وبلغ اهتمام العباسيين بالري أن أنشأوا ديواناً خاصاً به عرف بديوان الماء لتنظيم الري وشق القنوات والجداول للزراعة، حتى قال الاصطخري صاحب المسالك والممالك أنه أصبح «بين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من الفرات. .» (الاصطخري، المسالك والممالك،

ص٨٥)، وضرب المثل بمتنزهات السغد وسمرقند ونهر الإبلة، وغوطة دمشق (المصدر نفسه، ص٣١٧).

ولا يخفى دور العرب في نقل نباتات إلى أوروبا لم تكن معروفة لديهم، مثل الأرز، وقصب السكر، والزيتون، والمشمش، والنخيل، والقطن، والفستق، والزعفران، والبرتقال، والشمام، والأرضي شوكي، والرمان، والياسمين، والقرنفل، والورد الجوري والبنفسج.

هذا، وقد وصل اهتمام العرب بالزراعة في هذه الفترة، إلى ترجمة كتب الأقدمين في الفلاحة مثل كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية، وكتاب الحشائش والنباتات لديسقوريدس اليوناني.

كما ألّفوا العديد من الكتب في هذا الميدان مثل كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، وكتاب الأدوية المفردة لرشيد الدين الصوري، وكتاب الجامع لصفات أشتات النبات للشريف الإدريسي، وكتاب الفلاحة في الأرضين لابن العوام.

٣- الصناعة:

لم يهتم العرب قبل الإسلام في جزيرتهم بالصناعة، لاعتمادهم على التجارة والرعى، ومع ذلك عرفوا نسج الثياب والخيام الصوفية، وصنع بعض الأسلحة كالسيوف، وبخاصة في اليمن وشرق الجزيرة العربية.

وانشغل العرب المسلمون في صدر الإسلام بالفتوح، وبعد هدوء الفتوح تملك العرب الضياع واعتنوا بالزراعة، لكنهم أهملوا احتراف

الصناعة ومالوا إلى الاشتغال بوظائف الدولة أو التجارة أو تملك الأراضي الزراعية، وتركوا الصناعات في أيدي أبناء البلاد المفتوحة. لكن بعض العرب المسلمين عندما أبعدوا عن الجيش والأعمال الإدارية في العصر العباسي، اضطروا إلى تعلم بعض الصناعات والارتزاق منها.

وازدهرت الصناعة في ذلك العصر لارتفاع مستوى المعيشة، وشيوع حياة الترف والبذخ، واعتبر ابن خلدون اتقان الصناعات من دلائل التحضر والعمران وفي ذلك يقول: «وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة (ابن خلدون، المقدمة، ص٤٠١)، وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف، تحدث صنائع، وهي تكون للكماليات». وتقدمت الصناعة في حضارتنا بتوالي الأجيال لوفرة المواد الخام والأيدي العاملة وبخاصة من الموالي وتشجيع الدول للصناعة، واشتهرت كل منطقة إسلامية بصناعات خاصة بها، ومنها:

الصناعات النسيجية: تعتبر من أهم الصناعات، حيث كان الطلب عليها قوياً لارتباطها بالملابس وبأثاث البيوت من ستائر وسجاجيد.

وقد اشتهرت بعض المدن بمنسوجاتها، فكانت بغداد تصنع المنسوجات الحريرية والثياب الحريرية المتعددة الألوان، كذلك الأقمشة القطنية وكانت ثياب بغداد القطنية غاية في الإتقان حتى ضرب بها المثل. (النويري، نهاية الأرب، ج١، ص٣٧٢). كما اشتهرت بغداد بالحرير العتابي نسبة إلى حي العتابية (في الجانب الغربي من بغداد) وهي منسوجات من خيوط القطن والحرير.

واشتهرت البصرة بالخز (نسيج من الحرير والصوف) والبز (نسيج قطني فاخر). في حين اشتهرت الموصل بنسيج قطني عرف في أوروبا باسم الموسلين Muslin، واشتهرت الكوفة بصنع الوشي -نسيج حريري مطرز، وفي صنع الخز أيضاً، إضافة إلى أنسجة حريرية خاصة تسمى الكوفية نسبة إلى الكوفة.

كذلك اشتهرت بلاد الشام بالأنسجة الحريرية ونسبت بعض المنسوجات إلى المدن التي تصنع فيها كالداماساك نسبة إلى دمشق مثلاً.

وعرفت واسط بصناعة السجاد، وكان دليلاً على الثروة في البلاد الشرقية، كما أنه يلبي حاجات عملية. وهناك أنواع جيدة من السجاد، كانوا يتفننون في حياكتها، حيث يزين السجاد الفخم بخيوط الفضة والذهب، ويفرش في قصور الخلافة لإظهار جمالها.

واشتهرت الحيرة ببسطها، وخاصة تلك التي ينسج فيها صور الحيوانات من الفيلة والخيل والجمال والطيور، ويذكر أنه كان لأم الخليفة العباسي المستعين بساط عليه صور مختلف الحيوانات والطيور أنفقت في صنعه (١٣٠) مليون درهم (جرجي زيدان، تاريخ التمدن، ج٢، ص١٣٥، ج٥ ص١٠٦. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٠٢، ١٠٣، ١٠٥).

ورافق صناعة المنسوجات فن الصباغة، حيث تفنن الصباغون في مهنتهم وكانت واسط أشهر محل للصبغ باللون القرمزي خاصة.

ومن الصناعات المهمة صناعة الفخار، فكانت تصنع الجرار الكبيرة

والصغيرة، والأواني والكؤوس، وهي إما بسيطة أو مزينة بالنقوش.

وتفوقت الكوفة والبصرة في صنع الخزف، كذلك الحيرة التي كانت تصنع الجرار ولأواني الزاهية اللون. ويمكن القول أن القرنان الثالث والرابع للهجرة فترة تفوق في تاريخ صناعة الفخار والخزف في العراق.

وتقدم العرب في صناعة الزجاج تقدماً عظيماً، ويصنع الزجاج من الصخور الرملية في مصانع خاصة في البصرة وبغداد وسامراء، وقد حسّن العرب هذه الصناعة بزيادة نسبة الصخور الرملية فيها حتى صار صلباً، فتصنع منه الأقداح والأواني والمصابيح والأوزان.

ويرى كثير من المؤلفين أن مورانو والبندقية مدينتان لصانعي الزجاج من العرب بطرقهما التي اكتسبتا بها شهرة كبيرة في صناعة الزجاج.

وتقدم فن الصياغة لزيادة الترف في المجتمع، وكان لصناع العراق شهرة واسعة، فقد صنعوا إضافة إلى أدوات الزينة للسيدات، بعض الأدوات من الفضة والذهب مرصعة بالجوهر. وكان الخلفاء هم السباقون في الترف، فترد إشارات عن بساط حيك من الذهب والفضة فرشه المأمون يوم زواجه ببوران. وعن ٤٠٠ سرج من الذهب والفضة في اسطبل الخليفة المقتدر، كذلك الشجرة المشهورة أيام المقتدر أيضاً، حيث صنعت من الفضة والذهب بوزن خمسمائة ألف درهم وعليها طيور مصنوعة من الفضة تصفر إذا هبت الريح (الثعالبي، لطائف المعارف، ص٧٣-٧٤، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص٥٢، ٥٤. عبد العزيز الدوري، المرجع السابق نفسه، ص٨٣، ١٢١).

وهناك صناعات أخرى منها الصناعات المعدنية، وقد تقدم العرب كثيراً في صناعة الأسلحة التقليدية وسك النقود، وبلغ إتقانهم لها مبلغاً كبيراً، وتجلت روح الإبداع في ترصيع المعادن الصالحة لصنع الأسلحة والآنية والأباريق وكفاف الموازين وأدوات المنازل، كذلك تطعيم البرونز والنحاس بالذهب والفضة وإيجاد رسوم عليها وزخارف.

وعرفت اليمن ودمشق بصناعة الأسلحة من الحديد والصلب، وامتازت الموصل بصنع الأدوات النحاسية التي تختص بالمائدة (ادم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص٦١٦، ٦١٧).

أما الصناعات الغذائية، فمن أشهرها صناعة السكر، حيث أنشئت لها معامل، واستخرجوا منها أصناف لم يكن لها مثيل، ومن المناطق التي اشتهرت بهذه الصناعة منطقة الاهواز، كما اشتهرت فارس ودمشق بصناعة ماء الورد والعطور (النويري، نهاية الأرب، ج١، ص٣٦٠).

ووصلت المصنوعات الخشبية وترصيعهَا بالصدف والعاج درجة عالية من الإتقان، وبلغت تلك الصناعة درجة الكمال قبل القرن الثاني عشر م/ القرنين الخامس والسادس للهجرة. فكان العرب يتقنون صناعة حفر العاج إتقاناً نادراً، كما يشهد بذلك الصندوق العاجي الذي صنع لأحد ملوك إشبيلية في القرن الحادي عشرم/ الخامس هـ (متز، ص٦١٩).

هذا بالإضافة إلى صناعات مختلفة مثل صناعة الورق الذي اقتبسه العرب عن الصين وطوروه، حيث نقوا الورق من الشوائب في مصانع عدة في مدن إسلامية في المشرق والمغرب والأندلس.

وعرف العالم العربي نظام الطوائف أي النقابات الصناعية، بما يعرف اليوم بنقابات العمال. إذ كان لكل حرفة أو صنعة رئيس أو شيخ أو معلم أو أستاذ، وجرت العادة أن يتدرج في الصنائع من مبتدىء أو صبي صغير إلى صانع مدرب، ويتم انتقاله من درجة إلى أخرى في احتفال خاص يقيمه أبناء هذه الصنعة والمشرفون عليها (عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص٩٢-٩٣).

وقد خضعت الأسواق والحرف لإشراف المحتسب، وهو الذي يقوم بمحاسبة الناس ومراقبة نشاطاتهم الدينية والدنيوية داخل المجتمع الإنساني، بحيث يتمشى مع القيم والمبادىء والآداب والتشريعات الإسلامية.

وقد وجد شكل من نظام الحسبة عند العرب قبل الإسلام، وبخاصة في المجتمع القرشي الذي عهد إلى حكيم بن أمية السلمي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفقاً لقيم وتقاليد قريش قبل الإسلام.

وكان حكيم هذا ينفي من مكة كل من يخرج على قيم قريش وتقاليدها وعاداتها، وفي ذلك يقول أحد سفهاء قريش:

أطوف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشردني حكيم

(إحسان صدقي العمد، نصوص تراثية حول وجود محتسب في المجتمع القرشي قبل الإسلام، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٢، ص٦٦، ٧١).

وقد أكد الإسلام في مبادئه الدعوة إلى الخير والنهي عن المنكر في قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن

المنكر وأولئك هم المفلحون) (سورة آل عمران: ١٠٤).

واعتبرت هذه الآية الكريمة القاعدة الشرعية لأسس الدفاع الاجتماعي في المدن الإسلامية.

الحسبة في صدر الإسلام:

لم يطلق اصطلاح الحسبة على مراقبة سير الحياة الاقتصادية في صدر الإسلام، وإنما استعمل مصطلح العامل على السوق. وقد تولى الرسول ﷺ الحسبة بنفسه وقلدها غيره ضمن معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكان الرسول ﷺ يمر في الأسواق وينهى عن الغش ويقول: «من غش فليس منا» (أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، ص١٣٠). وكذلك استعمل الرسول ﷺ سعيد بن العاص على سوق مكة بعد الفتح (ابن سعد، الطبقات، ج٢ ص١٤٥)، واستعمل عمر بن الخطاب على سوق المدينة أيضاً (الكتاني، التراتيب الإدارية، ج١، ص٢٨٧).

واتبع الخلفاء نهج الرسول ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان عمر بن الخطاب يراقب الأسواق والموازين والمكاييل وأصحاب المهن ويؤدب المخالفين.

وكانت الشفاء بنت عبد الله على سوق النساء في المدينة للإشراف على حسن سيره (ابن حزم، جمهرة، ١٥٠).

وقام علي بن أبي طالب بمراقبة الأسواق في الكوفة وتفقد المكاييل والموازين فيها (الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٤٩).

وفي الخلافة الأموية استمر مصطلح العامل على السوق لمراقبة السوق والنهي عن الغش والتدليس، ومنع الاحتكار تحت طائلة العقاب (البلاذري، أنساب، ص٢٣٩).

وأجمع المؤرخون أن مصطلح الحسبة والمحتسب نشأ في العصر العباسي، ولكنهم اختلفوا في تحديد تاريخ النشأة، فبعضهم جعلها في خلافة الرشيد أو المهدي أو الهادي أو المأمون، وعلى الأرجح أنها كانت في خلافة المنصور، حيث تولى أبو زكريا يحيى بن عبد الله حسبة بغداد والأسواق سنة سبع وخمسين ومائة (الطبري، تاريخ، ج٧، ص٦٥٣).

وكانت الحسبة جزءاً من القضاء، ثم استقلت عنه، نظراً لاختلاف النظر في مهام كل منها. إذ كان القضاء ينظر في الفصل في المنازعات بين الناس، ولا يتعجل الحكم قبل ثبوت الأدلة والقرائن، في حين كانت مهام المحتسب تتطلب التصرف السريع لإزالة المخالفات الاقتصادية فوراً.

وظائف المحتسب ومهامه:

١- مراقبة أداء العبادات على الوجه الصحيح، بما في ذلك نظافة المسجد، والأشخاص المصلين، وعدم إطالة الصلاة، ومنع الدجالين من الوعظ في المساجد، ومعاقبة المفطرين في رمضان، والتزام النساء العدة عند الطلاق أو وفاة الزوج.

٢- الإشراف على الآداب العامة والتقيد بها حسب تعاليم الإسلام، وعدم الجهر بارتكاب الموبقات.

٣- مراقبة نظافة الأماكن العامة، من شوارع وميادين، ومستشفيات، وحمامات، التي كان المحتسب يحرص على نظافتها وطيب رائحتها، ومنع ذوي الأمراض المعدية من دخولها، وتوفير المآزر لستر عورات الناس.

٤- مراقبة الأسواق وضمان عدم الغش فيها وسلامة المكاييل والأوزان والنقود، وعدم التلاعب بالأسعار، ومنع صنع أو بيع المحرمات كالخمر ولحم الخنزير بالنسبة للمسلمين، والحرص على عدم التعامل بالربا، أو إشغال أرصفة الشوارع بالبضائع، وإجبار أهل كل تجارة أو صناعة على اتخاذ سوق خاص بهم، وإبعاد الأفران وحوانيت الحدادة والطبخ عن الأسواق خوفاً من الحرائق وعدم التأذي بالروائح الكريهة. ومراعاة أحمال الحيوانات والسفن.

٥- مراقبة الصحة العامة: مثل التأكد من أهلية الأطباء، وعدم تداول الأدوية الضارة والسامة، والمهضمة، والإشراف على امتحان الأطباء من قبل المختصين، وفرض الدية على الطبيب الذي يتسبب في وفاة المريض.

٦- مراقبة الأطعمة والأشربة، بحيث تكون نظيفة وصالحة، ويفتش على الخبازين والجزارين، والطباخين وغيرها.

٧- مراقبة التعليم العام من حيث سلامة المناهج وحسن سير المعلمين، وعدم ضرب التلاميذ ضرباً مؤذياً أو تسخير المعلم بعض تلاميذه في إنجاز بعض أعماله.

٨- مراقبة المصالح العامة: مثل سلامة المباني، والجسور والقنوات، وحماية العمال والمستخدمين من أصحاب العمل، والعناية بالحيوانات، ومنع التعسف في تطبيق الأحكام الشرعية مثل رفض بعض الآباء تزويج بناتهم من أكفائهم، ومنع التسول من القادرين على العمل، والعناية باللقطاء، وتقديم النصح للمسؤولين إذا لاحظ تقصيراً منهم مثل القضاة وغيرهم (انظر: الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٢، ٢١، ٤٠، ٦٥. يحيى بن عمر، أحكام السوق، ص١٠٤-١١٥. الفاسي، خطة الحسبة، ص١٨).

ويلاحظ أن مدى أعمال المحتسب تشبه ما تقوم به اليوم الصحة والبلدية والتربية والتجارة والمالية من واجبات. وهذا اقتضى من المحتسب أن يتخذ أعواناً ونواباً لمساعدته في عمله خصوصاً في المدن الكبيرة.

مراحل تأديب المحتسب للمخالفين:

١- العُرف والتعريف يبدأ بالتعريف والتبصير والتوعية بأصول التصرف الصحيح.

٢- ثم يتبع الوعظ والنصح والإرشاد مع المخالف للمرة الأولى.

٣- مرحلة التقريع العنيف حتى يرتدع المخالف.

٤- مرحلة التغيير باليد مثل إراقة الخمر، ونزع الذهب من أيدي الرجال وإفساد ملابسهم الحريرية وكسر الملاهي.

٥- مرحلة التهديد والتخويف بما يقدر على تنفيذه.

٦- مرحلة الضرب والحبس والتجريس إذا أصر المخالف على المخالفات، ولم تنفع معه الوسائل السابقة.

وغالباً ما استعان المحتسب بالشرطة والجند إذا كان المخالف ذا بأس وقوة وسلطة (الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٤٣).

قائمة المصادر والمراجع للوحدة الثالثة والرابعة

أ- المصادر:

- الاصطخري، ابراهيم بن محمد (ت ٥٩٧٥)

كتاب مسالك الممالك، ليدن، بريل، ١٩٣٧، تصوير دار صادر، بيروت.

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩هـ)

رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، (٥) مجلدات، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي، الرباط اكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧.

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)

كتاب فتوح البلدان، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، مكتبة النهصة المصرية، د.ت.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ)

لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الأبيار وحسن كامل الصيرفي، دار الكتب العربية، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

- ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ)

تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ، (١٤) جزء، المكتبة السلفية، د.ت.

- ابن خلدون،

مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٧٨.

- ابن سعد، ابو عبدالله محمد بن مينع (ت ٢٣٠هـ)

الطبقات الكبرى، (٩) مجلدات، دار صادر، بيروت، د.ت.

- السمناني، ابو القاسم علي بن محمد (ت ٤٩٩هـ)

روضة القضاة وطريق النجاة، (٤) أجزاء، تحقيق صلاح الدين الناهي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقا، عمان ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- الشيزري، جلال الدين عبد الرحم بن نصر (ت ٥٩٠هـ)

كتا ب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

تاريخ الرسل والملوك، (١١) جزء، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩.

- الغزالي، ابو حامد

احياء علوم الدين، ط٢، دار الفكر، عمان، ١٩٨٦.

- الماوردي ابو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠ هـ)

الاحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٨م.

- النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)

نهاية الارب في فنون الادب، (٢٧) جزء، نسخة مصورة عن طبعة

دار الكتب المصرية، ١٩٥٤، ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥.

- اليافعي، عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان (ت ٧٦٨هـ)

مرآة الجنان وعبرة اليقظان، (٤) أجزاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٠.

- يحيى بن عمر، ابو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف (ت ٢٨٩هـ)

كتاب النظر والأحكام في جميع احوال السوق، تونس، ١٩٧٥.

- ابو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ)

كتاب الخراج، اعتمد في هذه الطبعة على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية رقم ٦٧٤ مع معارضتها بطبعة بولاق، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٠٢هـ.

المراجع والدوريات

- الدوري، عبد العزيز

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع هـ، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤.

- الرافعي، مصطفى

حضارة العرب، ط٤، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٨٨.

- العمد، احسان صدقي

نصوص تراثية حول وجود محتسب في المجتمع القرشي قبل

الإسلام، مجلة مجمع اللغة العربية الاردي، ع، ٤١، ١٩٩١.

- الفاسي، عبد الرحمن

خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- الكتاني، عبد الحي

نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، جزءان، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

- لوبون، غوستاف

حضارة العرب، نقله الى العربية عادل زعيتر، ط٣، دار احياء التراث العربي، ١٩٧٠.

- متز، آدم

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله الى العربية محمد عبد الهادي ابو ريده، جزءان، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧.

- المياح، علي محمد

ارض السواد، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج١، م ٤١، بغداد ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- هنتس، فالتر

المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الاردنية، عمان، ١٩٧٠.

الوحدة الخامسة

الحياة الاجتماعية

تمهيد[1]:

بعد أن اتسعت رقعة الدولة العربية الإسلامية تغير المجتمع نتيجة التأثر بحضارات الأمم التي انطوت تحت لواء هذه الدولة، وقد شمل التغيير جميع جوانب الحياة الاجتماعية للعرب.

وقد رافق الاتساع استقرار العرب في المناطق الجديدة وزاد وجود الأمن وتوقف الفتوحات في انصهار جميع العناصر بعضها ببعض، ونشأ عن ذلك حضارة ناضجة مزدهرة في القرن الرابع الهجري وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على الحياة الاجتماعية.

الفئات الاجتماعية:

كان المجتمع العربي الإسلامي يتكون من حيث الأعراق من عناصر عدة يأتي في مقدمتهم العرب، فقد كانت الدولة في صدر الإسلام وأيام الأمويين عربية الطابع، ونظر العرب إلى غيرهم من أهل البلاد المفتوحة نظرة من يرى أنه أعلى قدراً وأسمى منزلة، على الرغم من اعتناقهم الإسلام، وأطلقوا عليهم اسم الموالي، وكان لإطلاق هذا الاسم عليهم أثر سيء في نفوسهم، ظهر في انضمامهم لثورة العباسيين ضد الأمويين. وعندما قامت دولة بني العباس احتل هؤلاء وبخاصة الفرس مكانة هامة؛ لأن الدولة العباسية قامت على أكتافهم، وهذا الاهتمام أدى إلى تضاؤل وزن العرب

---

(١) أعد هذه الوحدة د. نوفان الحمود

السياسي، ومع ذلك فإن التأثير العربي ظل قوياً في المجتمع الإسلامي، فهو العنصر الذي حافظ على المثل والتقاليد والآداب العربية المرتبطة بالإسلام، وهو أيضاً العنصر الذي حارب الزندقة والشعوبية التي تفشت في المجتمعات الإسلامية.

وشارك الفرس في إدارة الدولة وتقربوا إلى الخلفاء، فكان منهم كبار رجال الدول في مجال السياسة والجيش والإدارة. ووجد تنافس بين العنصرين: العنصر الفارسي الذي كان يحاول أن تكون له السيطرة، والعنصر العربي الذي كان يناضل في سبيل الاحتفاظ بمكانته السابقة، ثم لم يلبث أن ظهر عنصر ثالث منذ عهد المعتصم وهو العنصر التركي الذي استولى على أهم المناصب الإدارية والعسكرية.

وقد شمل عنصر الموالي عناصر من غير الفرس وهم: الترك، والروم، والزنج، والبربر، وتركت تلك العناصر بصماتها الواضحة في الحضارة العربية الإسلامية. ويضاف إلى الموالي أهل الذمة (النصارى واليهود) الذين وضعت عليهم الجزية لحمايتهم مقابل تأمينهم على أرواحهم وأموالهم مع مراعاة رفعها عمن يسلم منهم، ولم تتم مضايقتهم في شيء من أمور دينهم أو دنياهم، قال رسول الله ﷺ: "من قتل معاهداً لم ير رائحة الجنة" وكانت علاقتهم بالمسلمين تقوم على المبدأ الإسلامي الكريم، وهو: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"، فكانت لهم الحرية التامة في إقامة أماكن عبادتهم وشعائرهم الدينية ومزاولة شتى الصنائع والحرف.

كان المجتمع العربي الإسلامي متنوع الأجناس والعناصر والطوائف الدينية وغير الدينية، وقد أدى هذا الخليط البشري المتنوع الأصول والدماء

واللغات والعادات والتقاليد والمذاهب إلى إكساب الحياة الاجتماعية لوناً خاصاً فريداً، وبخاصة بعد أن استقر المجتمع الإسلامي وتوافر له الأمن، فانصهرت هذه العناصر في بوتقة الإسلام ونتج من ذلك حضارة ناضجة، وبلغت ذروة عطائها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

أما من حيث الفئات الاجتماعية فقد تألف المجتمع الإسلامي من فئات اجتماعية عدة تختلف باختلاف أحوالها وأقدارها الاجتماعية من أهمها:

فئة الحكام:

وهي الفئة الخاصة، وكان يأتي على رأسها الخليفة ثم الأمراء والوزراء ثم أفراد أسرته يليهم كبار القواد ورجال الدولة والقضاة، وكانوا يتولون الوظائف الرئيسة والمناصب الكبرى.

وقد استفادت هذه الفئة من مكانتها وشيدت القصور الفخمة التي امتلأت بالذهب والفضة وفاخر الأثاث، كما امتلأت بالجواري والغلمان، وكان لهم أتباع من جند وحرس وندماء وموالي، وكانوا يكثرون من الخدم والرقيق الذين ينتمون في أصولهم إلى شعوب غير مسلمة.

آل البيت النبوي (الأشراف):

حظي البيت النبوي بمكانة خاصة في المجتمع الإسلامي، وأطلق عليهم اسم الأشراف أو السادات، وصاروا فئة اجتماعية مرموقة تشمل بني هاشم من العباسيين والعلويين على السواء، على أن العباسيين صارت لهم المكانة الأولى في العصر العباسي بوصفهم بناة الدولة وحكامها، وقد تولى

بعض أفراد هذه الفئة الإمامة والخطابة في جامع بغداد، وجامع عمرو بن العاص في مصر.

العلماء والأدباء:

امتاز العصر العباسي بتشجيع العلم وتكريم العلماء، وكان لهؤلاء نفوذ أدبي عظيم، وكانوا فئة لها وزنها الاجتماعي، فاحتلوا مكانة مرموقة لدى الخلفاء ورجال الدولة ولدى عامة الناس وبولغ في احترامهم وتكريمهم، وتميزوا في المجتمع بلباسهم ومظهرهم الخاص، وإليهم كان الناس يرجعون في أمور دينهم، وكان لهم الفضل في بث المثل الاجتماعية والخلقية والدينية، ومقاومتهم للمنكر وللانحرافات الفكرية التي تظهر بين حين وآخر.

وقد أغدق الحكام على العلماء والأدباء والشعراء، وخصصوا لبعضهم رواتب ثابتة.

الجند:

كانوا يتميزون بملابسهم ومظهرهم الخاص، ولهم ديوانهم الخاص الذي تدون فيه أسماؤهم وأوصافهم ومهامهم وأرزاقهم.

التجار:

كانوا يمثلون ارستقراطية المال في الدولة الإسلامية زمن ازدهارها وانتعاش الحياة الاقتصادية فيها، وكان من بينهم بعض العلماء. عاش التجار في المدن الكبرى واختصوا في التعامل بالسلع الثمينة؛ كالرقيق والملابس والمجوهرات ونحوها، وارتبط بعضهم بقصر الخلافة والحكام

ورجال الدولة ارتباطاً مباشراً بعكس صغار التجار الذين كان اتصالهم بعامة الشعب، وقد حقق التجار ثروات طائلة، وتميزوا بلباسهم وطرق معيشتهم، وقد تعرض بعض الأثرياء إلى المصادرة من قبل الحكام.

الحرفيون والصناع:

كانوا يؤلفون فئة نشطة في مجتمع المدينة الإسلامية، وكان أفراد كل حرفة أو صناعة ينتظمون في تكتل (طائفة) خاص بهم لتنظيم مصالحهم المشتركة، وقد عاش معظم الحرفيين معيشة متوسطة؛ لا هم بالأغنياء الموسرين ولا هم بالفقراء المحتاجين، وربما أدى ضيق ذات اليد أحياناً إلى المساهمة بدور فعال في الحركات التي قامت ضد الحكام أملاً في تحسين أحوالهم. وكان لكل حرفة شيخها ينظم شؤونها ويحل ما ينشأ بين أفراد الطائفة من مشكلات، ويكون الواسطة بينهم وبين الحكومة.

العامة وسواد الأمة:

وهم أهل الفلاحة وأصحاب المهن المتواضعة وأمثالهم، وكانوا في الأغلب من أهل الذمة ثم شاع بينهم الإسلام واستعربوا.

أهل الذمة:

الذمة في اللغة هي العهد والأمان والضمان، وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام من أهل الكتاب، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أموالهم وأنفسهم وصاروا أمانة في ذمة المسلمين، وهم أهل الكتاب النصارى واليهود، وقد ألحق بهم في زمن عمر بن الخطاب المجوس (الزردشتيون) وفي زمن المأمون ألحق بهم الصابئة. وكانوا يمارسون

شعائرهم الدينية بحرية، ونعموا بالرفاه وشغلوا كثيراً من الوظائف العليا.

الخدم:

وغالبيتهم من الرقيق المجلوبين من الشعوب غير الإسلامية. وقد شاع استخدام الرقيق في عهد الدولة العباسية، وكان للرقيق سوق من أكبرها سوق سمرقند. والرقيق كلمة تطلق على كل من فقد حريته من الناس وأصبحُ ملك غيره. وكان الرقيق من أجناس متعددة وألوان مختلفة، وكان لكل نوع منهم ميزات. ولقد امتلأت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء بأعداد كبيرة من الرقيق. أما المصادر التي يأتي عن طريقها الرقيق فكانت الحروب والتجارة. وقد حضت تعاليم الإسلام على عتق الرقيق وإعطائهم حريتهم.

الدهماء والغوغاء:

وهم من أجناس وأديان مختلفة كانوا مصدر فساد واضطراب في المجتمع، مما جعل الحكومة تتملقهم حيناً، وتحسن إليهم حيناً آخر اتقاءً لشرهم، ومن هؤلاء ظهرت جماعة العيارين والشطار الذين تميزت حركاتهم بطابع ثوري ضد الحكام، ومما زاد من خطرهم، أنه كان لهم تنظيم عسكري يخضع لقيادة موحدة، وتنظيم مدني يرعى أمورهم الخاصة. وسرعان ما احترف بعض أفراد هذه الجماع الشر وصاروا مصدراً للفوضى في الدولة، وشاركوا في الحركات الثورية ضد الخلفاء والحكام.

قصور الخلفاء:

كانت مساكن الخلفاء الراشدين تتكون من حجرات قليلة لا تفترق عن بيوت الناس إلا بما فيها من الدواوين، وعندما توسع العرب في فتوحاتهم، اختلطوا مع سكان البلاد المفتوحة، واستفادوا من خبرتهم وسبقهم في فن العمارة، وأبدع العرب في هذا المجال واتخذوا لأنفسهم طرازاً للبناء والعمارة خاصاً بهم يتلاءم وطبيعتهم وأحوالهم، وظلوا يوالونه بالتهذيب مرة، وبالإبداع أخرى حتى بلغ أسمى درجات الرقي والروعة، وفاقت كلاً من الطرازين الفارسي والبيزنطي من حيث الإتقان وجمال التنسيق والافتتان والإبداع.

وكان خلفاء بني أمية أول من اتخذ القصور، وكانت أشبه بالجبل لكثرة ما فيها من الأبنية وارتفاع أسوارها وأبوابها العديدة التي قد تبلغ عشرة أبواب، وأصبحت تشتمل على أبهاء واسعة وقاعات للجلوس ذات أعمدة عرفت باسم إيوان، ودهاليز ودور خاصة للخلفاء وعائلاتهم ومستخدميهم وحريمهم. كما شيد الأمويون قصوراً لهم خارج العاصمة دمشق كما هو في بادية الأردن وغوره، واتخذوها قصوراً للحكم كما في قصر عمان، وللراحة والاستجمام والاجتماع بأنصارهم من القبائل العربية، وقد وصل بعضها درجة من الدقة والإبداع كقصري عمرة وقصر هشام، حيث استخدمت الرسوم الجدارية والأرضيات الفسيفسائية، وألحق بالقصرين حمامات خاصة لاستخدامها من قبل الخليفة.

وشهد العصر العباسي تنافساً شديداً في بناء القصور والمبالغة في زخرفتها وتأثيثها وزيادة عدد حجراتها وملحقاتها، نتيجة للثروة والبذخ

والتأثر بالحضارة الفارسية، وشيد أول قصر عباسي وسط مدينة بغداد (المدينة المدورة) وعرف هذا القصر بقصر الذهب، وكان يعلوه قبة خضراء، ارتفاعها ٨٠ ذراعاً وفي أعلاها تمثال فارس بيده حربه، وأقيم حول القصر والجامع المجاور له قصور الأمراء ومقار الدواوين، هذا وقد بنى المنصور أيضاً مقراً سمّاه "قصر الخلد" خارج أسوار المدينة.

بلغت بغداد أوج عظمتها في عهد هارون الرشيد، وأكدت انتصاراته الحربية على البيزنطيين عظمة عاصمته التي تسنى لها في عهده أن تنتصر على منافستها الوحيدة (القسطنطينية) في مجال الحضارة والرفاء.

وتمثلت عظمة الدولة في عهده بفخامة بلاطه من حيث العمارة الحاشية والحرس، واستقبال السفراء ودواوين الحكم والإدارة ومجالس العلم والسمر، ومنازل الموظفين والمطابخ والإسطبلات والمخازن، فضلاً عن الحدائق والميادين والملاعب، حيث كونت هذه المباني ثلث المدينة المدورة، وقد بلغ عدد مرافق قصر المأمون ثلاثمائة وستين مرفقاً.

ومما كشفت عنه الحفريات الأثرية في سامراء "آثار قصر الجوسق" وملحقاته، واتضح من هذا الكشف أنه كان للقصر مدخل واحد كبير يسمى "باب العامة" وكان له واجهة تطل على نهر دجلة خلفها ثلاث قاعات تغطيها أقبية نصف أسطوانية، ثم صحن مربع في وسطه نافورة، وعلى كل جانب من جوانبه ثلاث حجرات ثم قاعات الخليفة والحريم، أما قاعة العرش فكان قوامها بهواً مربعاً يحيط به من جهاته الأربع قاعات على شكل حرف (T) وجد على جدرانها كثير من الزخارف الجصية التي امتاز بها الطراز العباسي في سامرا، وظهر تأثيرها في مصر في العصر الطولوني، وعثر في

قسم الحريم بالقصر على بعض قاعات صغيرة للنظافة والغسل، كان الماء الجاري يصل إليها في أنابيب من الرصاص أو الفخار.

وينسب إلى المعتصم والمتوكل في سامراء بناء سبعة عشر قصراً من أشهرها عدا الجوسق: "القصر الهاروني، وقصر العروس، والقصر المختار، والقصر الوحيد، والقصر الجعفري".

وكان المتوكل يجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه، وقد اتبع الناس المتوكل فشاع هذا البناء. وقد كان قصر التاج الذي بني في بغداد بعد ذلك بأربعين سنة صورة مكبرة للطراز الحيري، الذي ابتدعه المتوكل فكان وجهه مبنياً على خمسة عقود، كل واحد منها على عشرة أساطين والأسطوانة على خمسة أذرع.

وكانت في واجهة قصر ابن طولون بمصر ثلاثة أبواب كبيرة تتصل ببعضها، وكانت تفتح في المناسبات؛ كيوم العيد أو في أثناء عرض الجيش أو يوم الصدقة، وفيما عدا ذلك لم تكن تفتح إلا بترتيب معلوم. وقد أثثت القصور بأثمن أنواع السجاد وأفخر الرياش، وجهزت بالستائر، وأضيئت بالثريات والشمعدانات، وزخرفت جدرانها بالصور الجميلة. ويقال إن قصر الخليفة المقتدر كان مفروشاً باثنين وعشرين ألف بساط على الأرض وثمانية وثلاثين ألف بساط على الحائط، منها ١٥٠٠ بساط من الحرير المطرز بالذهب.

وألحقت بالقصور حدائق تفنن المسلمون في زرعها حتى إنه ظهر ما يعرف بالحديقة الإسلامية التي أطلق عليها اسم البستان أو الروضة. ولا شك أن الحديقة الإسلامية ظهرت متأثرة بحدائق الشعوب المفتوحة من

المصريين والفرس، وكان يزيد من جمال الحديقة الإسلامية تبليط مماشيها ووجود البرك والقنوات الجارية فيها.

وأصبحت قصور العباسيين في بغداد محور كثير من القصص التي امتزجت فيه الحقيقة بالخيال، فقد بنى الخليفة المتوكل وحده في سامراء تسعة عشر قصراً، وشق الترع والقنوات لتوصيل الماء إليها وإلى ما حولها من حدائق وبساتين، وهو يردد: "علمت الآن أني ملك"، وكانت قصور الخلافة وبساتينها تفترش مساحة كبيرة، وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة، علاوة على المسطحات المظللة بالأشجار والأروقة والقباب، وكانت تزيد في جمالها البرك والأنهار الجارية، ويحكى أن الخليفة القادر كان يجلس في قصره "بيت الرصاص" وبين يديه نهر يجري فيه الماء إلى دجلة.

ذكر ناصر خسرو عند زيارته القاهرة بأن هناك سراديب تصل قصور الفاطميين بعضها ببعض. وكان في قصر عضد الدولة بشيراز ثلاثمائة وستين حجرة يجلس في كل حجرة يوماً إلى نهاية العام. وظهر في أواخر القرن الثالث التفنن في إعداد القصور، فكان في قصر الطولونيين بمصر بركة من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون، وكان في أركانها أساطين من الفضة الخالصة فيها زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة، وعمل لخمارويه فرش من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة، وتشد زنانير الحرير في حلق الفضة بالأساطين ثم ينام الأمير على ذلك الفرش.

وقد اجمع الباحثون على أن أعظم ما ابتكرته قرطبة في الأندلس في فن العمارة، هو طريقة عمل الأقبية التي تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع

ظاهرة، وهذه الطريقة حلت المعضلة الأساسية في العمارة، وهي عمل الأسقف، وذلك بالطريقة نفسها التي اتبعت في العمارة القرطبية في أوروبا بعد ذلك بقرنين من الزمان.

وقد وصف ابن بشكوال قصر قرطبة بقوله: "ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان -منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها- في قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة، والرياض الأنيقة، وأجروا فيه المياه العذبة والمجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر المكرم، وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص، تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة من الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة، والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة".

وكان غالباً من يحيط بقصر الخليفة أو الأمير ثكنات الجند التي عرفت باسم "القطائع" أو "الحارات" أو "الخطط"، إذ لا يطمئن الحاكم المسلم على دولته إلا بوجود الأجناد بجواره، فمثلاً اشتهرت القاهرة بحاراتها، وكانت كل حارة مخصصة لطائفة معينة من الجند، وهذه المعسكرات كانت أشبه بمدن كاملة يوجد بها البيوت والدكاكين والأسواق والحمامات.

وكانت قصور الكبراء والأغنياء تمتاز بثلاث ميزات:

١- وجود الحريم، وهي كلمة تعني كل ما يتحرم به ويمنع منه ويدافع عنه، وأصبحت تعني عند المسلمين أهل الرجل من نساء وأطفال حتى ولو كانت امرأة واحدة، وقد تفننت النساء في اختيار أزيائهن الثمينة

المحلاة بالذهب والجواهر وعلى رؤوسهن العصائب المرصعة بالدرر والياقوت والخلاخيل الثمينة.

٢- وجود الخصيان، وينسب استخدام هذه الفئة في الإسلام إلى معاوية، نقله عن البزنطيين الذين كانوا يخصون من يعمل من الرجال في أديرة النساء، واستخدموا في القصور الإسلامية وكان يأتي بهم التجار اليهود والمسيحيون، وكان الخصيان أغلبهم من عناصر مسيحية من أصل صقلبي ومن الترك والفرس والهنود والحبشة والنوبة والسودان، وكان الخصيان في قصور الخلفاء طبقات منهم أمراء، ومنهم طبقة دنيا تقوم بالأعمال المنزلية.

٣- وجود الغلمان والجواري، وقد امتلأت القصور بالغلمان والجواري.

ولعل من أهم رسوم قصور الخلفاء الأسمطة (جمع سماط) وهي الولائم التي كانت تقام في الأعياد وشهر رمضان على الخصوص وفي المناسبات، ويبدو أن معاوية أول من مد السماط.

وظهر في قصور المسلمين المضحك وسمي بـ(المساخر) وهو مأخوذ عن الفرس، ونجد في القصور قاعات خاصة للهو مثل: قاعة الأسود كما في قصر الحمراء التي لا تزال ماثلة للعيان، وقاعات خاصة بحفلات الغناء والرقص فيها شرفات تطل على صحن محاط بالأعمدة للمغنيين، وقاعات للشطرنج والنرد وغير ذلك.

وتمد في هذه الحفلات صواني من الذهب الخالص مرصعة بالجوهر، ويأتي الخدم بزنابيل مملوءة بالدراهم والدنانير يصبونها بين أيدي الناس.

الألبسة:

تخلى العرب بعد الفتوحات عن ثيابهم البدوية الخشنة، أو الأقبية الطويلة المربوطة في وسطها بالزنانير والصابرات التي يرتدونها فوق الأقبية، وأقبلوا على التأنق في اللباس متأثرين بالحياة الحضارية في البلاد المفتوحة، حيث ازدهرت صناعة النسيج في البلاد الإسلامية، وعرفت مصانع النسيج بالطراز، والطراز كلمة فارسية الأصل مشتقة من ترازيدان بمعنى التطريز وعمل المدبج أو الزخرفة التي تزين الثوب. وقد أورد لنا المقري ببيتين من الشعر كانا مطرزين في ثوب ولادة بنت المستكفي بالله بالأندلس. الطراز الأيمن نصه:

أنا والله أصلح للمعالي   وأمشي مشيتي وأتيه تيها

والطراز الأيسر نصه:

وأمكن عاشقي من صحن خدي   وأعطي قبلتي من يشتهيها

لقد عرفت مصانع المنسوجات قبل الإسلامي، فكانت في عصر البطالسة والرومان تسمى "جنسيوم" وهي التي تمد الإمبراطور ورجال بلاطه بما يحتاجون إليه من أقمشة. وكانت مصر قبل الإسلام مشهورة بصناعة النسيج، وقد أبدع الأقباط في ذلك، حتى سمي النسيج المصري باسم قباطي. وفي الإسلام شاعت في العراق صناعة نوع من النسيج الحريري اختصت بصناعته محله العتابية ببغداد، كما عرف نوع من الحرير الرقيق الشفاف يسمى الموصلي، وشاع في فارس الحرير الأصبهاني، أما مالقة وغرناطة فاشتهرتا بصناعة الموشى بالذهب. وعرفت في بلاد المغرب الثياب والعمائم السوسية المشهورة التي كانت تحمل إلى الآفاق، واختصت

عدن بصناعة الشروب. واشتهرت اليمن بصناعة الرد، ودمشق في الشام بصناعة الموشى بالذهب، وبيروت بصناعة الحرير.

ونتج من تعدد شعوب الدولة العربية واختلاف تقاليدها في القرن الثالث أن تنوعت أزياؤهم في اللباس، فاختلف باختلاف الأقوام ومهنهم وطبقاتهم الاجتماعية، وعبر عن ذلك الجاحظ بقوله: "لكل منهم زي فللقضاة زي ولأصحاب القضاء زي وللشرطة زي وللكتاب زي ولكتاب الجند زي". وقال: "وكان لحرائر النساء زي وللمماليك والأماء زي"

وظهر التأثير الفارسي في الملبس، سواء أكان في ملابس الرجال كاستعمال القلانس والأقبية والسراويل والجوارب، أم في ملابس النساء اللواتي أكثرن من استعمال الحلي والمجوهرات والأحزمة وغيرها، كما ظهر تأثير التركيات في التأنق في الملبس واستعمال أدوات التجميل وابتكار الأزياء.

وتنقسم أزياء الرجال والنساء بشكل عام إلى لباس الرأس ولباس البدن ومن هذه الأزياء:

العمامة:

هي لباس الرأس عند العرب منذ عصر الجاهلية، ولهذا قال عمر بن الخطاب: "العمائم تيجان العرب" فهي تقي الحر وتدفيء من القر وتقي من الأحداث وتزيد في القامة"

وكان لكل طائفة عمامة؛ فللخلفاء عمة وللفقهاء عمة وللأعراب عمة وللروم والنصارى عمة. وكانت العمامة عادة بيضاء اللون معمولة من

الشاش الموصلي، إلا أنها قد تعمل من أقمشة أخرى من ألوان مختلفة، وأضخم العمائم عمامة القضاة. ولبس العلويون العمائم الخضراء، كما اختص الخلفاء بالرصافية، وهي عمامة سوداء يلبسونها عند توليهم الخلافة. ويمكن أن تعد من مراسم البيعة، وتتخذ الرصافية من نسيج رقيق كالحرير والخز والقصب والوشي.

القلنسوة:

هي الطاقية التي تلبس تحت العمامة وتمسك بالرأس، وهي مظهر من مظاهر كمال الرجولة عند العرب، فقد روي عن علي - رضي الله عنه - قوله: "تمام جمال المرأة، خفها وتمام جمال الرجل في لمته (أي قلنسوته)" وكانت تسمى بأسماء المناطق التي تصنع فيها، وقد وجدت في العصر العباسي قلانس مستديرة تعرف بالدنية لأنها تشبه الدن، والقلانس الدورقية لشبهها بالدروق، والقلانس الشاشية الطويلة، والشاشية نسبة إلى الشاش من بلاد ما وراء النهر قريبة من الطربوش الحالي وأول من لبسها الخليفة المعتصم العباسي، ونسبت إليه فسميت "الشاشية المعتصمية"، وقد لبسها كبار القوم خالية من الأشرطة، بينما كانت شاشات الخدم مشرطة. وكانت قلانس القضاة تتخذ من الفراء أو اللباد، أو من القماش السميك كالصوف والكتان، أما قلانس الخلفاء فكانت سوداء اللون.

وكان هناك نوع طويل من القلانس لبسه الخلفاء والقضاة والأمراء والوجهاء وأهل الأدب، وقد نقلها أهل أوروبا إلى مجتمعاتهم بعد اتصالهم بأهل الشام أيام الحروب الصليبية.

التاج:

عرف العرب التاج إلا أن أحداً من الخلفاء لم يلبسه أو يتخذه زياً رسمياً، لكنهم ألبسوه بعض وزرائهم وقوادهم تكريماً لهم. والتاج طاقية عالية لها هيئة خاصة وهو منسوج من الصوف المكلف بالذهب، وتحف به صفوف من الأحجار الكريمة، وقد استعملت المرأة التاج المصنوع من الذهب والمرصع بالأحجار الكريمة زينة لرأسها، وهو بأشكال متعددة منها: التاج المجنح، والتاج ذو الخبايا.

الدراريع: (جمع دراعة أو مدرعة):

هي جلباب مشقوقة من الصدر وتصنع من الصوف أو الديباج الموشى أو الدبيقي وكانت اللباس الرسمي للكتاب، ثم شاع استخدامها حتى لبسها الخلفاء والوزراء وعامة الناس.

الطيالسة (جمع طيلسان):

وهو ثوب معين يتخذ أشكالاً مختلفة فقد يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن، ثم أصبح نوعان: الأول، الطيلسان المربع الذي يوضع على الرأس كالعمامة أو القلنسوة، يغطى به أكثر الوجه ثم يدار طرفان منه تحت الحنك، إلى أن يحيطا بالرقبة جميعاً، ثم يلقيان على الكتفين، وسمي هذا النوع بالطيلسان المحنك. وقد شاع استعماله في صلوات الجمعة والمحافل، والثاني الطيلسان المقور الذي يعدّ لبسه مكروهاً، وكان على أشكال منها: المدور والمثلث والمربع المسدول، ويختلف هذا النوع لأنه يوضع على الرأس ويرسل طرفاه على الصدر من دون أن يدار من تحت الحنك.

الطرحة:

وهي من أغطيـــة الرأس وتصنع من الشـــاش الموصلي وتلف على العمامة أو تطرح على الكتفين فقط فتتدلى على الظهر، وهي بهذا شبيهة بالطيلسان، وكانت خاصة بالقضاة وهي شعارهم، وقد لبسها الخلفاء أحياناً وكان لونها أسود.

القناع:

وهو نوع من القماش يضعه الجنسان على الرأس، كما تستخدمه النساء خماراً للوجه عن الخروج من المنزل، أو تستخدمه المرأة غطاء تضعه على رأسها وتحيط به رقبتها. أما الرجال فكانوا يتخذونه للتنكر، وكان من عادة الفرسان استخدامه في المواسم والجموع.

العصابة والبرقع والنقاب:

وهي من ألبسة الرأس التي اختصت بها المرأة، والعصابة هي شبه العمامة للمرأة، طرحة من الحرير مربعة الشكل سوداء اللون لها حاشية ملونة حمراء أو صفراء، تلف بها المرأة رأسها وتعقدها من الخلف وقد ترصع بالجوهر. والبرقع قطعة قماش تثقب في موضع العينين تبصر المرأة منهما، ويلحق بالبرقع خيطان تشدهما المرأة خلف الرأس. أما النقاب فهو نوع من البرقع صغير يوضع على الوجه دون المحجر، شفاف أو مخرم تستعمله النساء عند حضور مجالس الوعظ أو الأعراس.

الجباب:

جمع جبة: وهي ثياب أشبه بالمعاطف تحيط بالبدن ولها كمّان، تصنع

من الديباج الموشى والصوف، وكان الخلفاء العباسيون يلبسون الجباب، فقد كان المنصور يكثر من لبس الجباب الهروية. وقد شاعت هذه الأزياء في مصر والأندلس والشام وفارس والمغرب، وأصبحت الأزياء البغدادية نموذجاً لسائر أزياء الرجال في العالم.

الثوب:

وهو ملبوس للرجال والنساء واسع فضفاض، ويصنع من القطن أو الكتان أو الحرير أو الصوف وثياب الوشي هي من الحرير الخالص.

القميص:

هو ثوب يلبس فوق السروال وله كمان واسعان للغاية ويهبطان إلى المعصم ويتدلى القميص إلى منتصف الساقين. يصنع قميص الرجال من القطن أو الكتان أو الحرير أو الشاش الموصلي، ويكون أبيض اللون ويزركش المترفون حواشي قمصانهم ويطرزون فتحاتها. أما قمصان النساء فتكون من الحرير أو القطن الرفيع أو الشاش الموصلي ويلبس القميص عادة تحت الرداء.

السروال:

كان يرتديه الناس عموماً رجالاً ونساءً، والسروال يستر أسفل الجسم، ويكون واسعاً طويلاً، وكان الأمراء والولاة يتخذون سراويلهم من الوشي. ويعد السروال من ملابس الظريفات من النساء لا سيما الجواري والقيان والراقصات، والسروال لباس غير عربي.

الرداء:

وهو نوع من الملاحف يلتحف به أو يُرتدى كلباس مفصل على الجسم، وقد شاع لبسه بين أفراد مختلف طبقات الناس، ويعمل من القماش الصوفي المخطط أو من الحرير، وتكون فتحته عند الصدر دائرية مطرزة بزخارف ونقوش، وكان الأطباء والعلماء يرتدون نوعاً من الأردية تغطي الجسم، وقد يكون الرداء ملوناً، وكانت النساء يلبسن أردية محلاة بالكتابة على أكمامها.

القباء:

ويسمى القفطان أيضاً ويعمل من الحرير وقد لبسه الخلفاء والأمراء والوزراء والجند، وقد ارتدى خلفاء بني العباس وموظفوهم الأقبية السوداء اللون.

الغلالة:

في الأصل لباس المرأة وتكون مفرطة في الشفافية والخفة لونها أصفر، إلا أن الرجال لبسوها أيضاً، فقد لبسها الظرفاء منهم وغيرهم، على أن هناك أنواعاً منها اختصت بها النساء. وكانت الغلالة هي أساس لبس الجواري والقينات.

العباءة:

هي رداء يشبه الكيس مفتوح من الأمام له أكمام، يلبسه الرجال والنساء وكانت عباءة المرأة من الحرير أو الخز، وعباءة الرجل من الصوف أو الوبر.

الإزار:

هو قطعة من النسيج تلتف به النساء عندما يبرزن للناس، بحيث يخفي هذا الثوب الملابس الأخرى. وقد يتخذ من الحرير المزركش بالذهب، وقد يسمى النقاب الذي تضعه المرأة على وجهها إزاراً. والإزار أيضاً نوع من القماش تستر به العورة أو الجزء الأسفل من الجسم.

النطاق أو الوشاح:

وقد اشترك في لبسهما الرجال والنساء، وكان النطاق العريض خاصاً بالرجال.

المِسح:

لباس يشبه الكيس يرتديه الرهبان.

الغَمِزة:

ثوب أسود يرتديه العبيد والإماء.

وكان أهل الظرف والأدب لا يجيزون لبس شيء من الثياب الدنسة مع ثياب مغسولة، ولا المغسول مع الجديد، ولا الكتان مع المروزي؛ وكانوا يرون أن أحسن الزي ما تشاكل وانطبق وتقارب واتفق، وكان البياض من لباس الرجال وبخاصة السراة منهم، وكان أيضاً لبس النساء المهجورات، ولا تلبس النساء الملون من الملابس إلا ما كان لونه طبيعياً، لأن الألوان غير الطبيعية من لبس النساءِ النبطيات والإماء والمغنيات.

كان لون لباس الحداد في المشرق الأزرق، بينما كان في الأندلس الأبيض، وكان طوائف العمال الثلاثة الكبرى تمتاز بلباسها؛ فكان الكتاب

يلبسون الدراريع، وكان العلماء يلبسون الطيلسان، وكان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة.

الأحذية:

كان المسلمون ينتعلون النعال ويتركون للنساء الخفاف (جمع خف)، واعتبروا النعال مظهراً من مظاهر الزينة للرجال، فقد قال الأحنف: "استجيدوا النعال فإنها خلاخيل الرجال". وكان العرب يلهجون بذكر النعال، في حين كان الفرس يلهجون بذكر الخفاف. وكان صحابة الرسول ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصفر، وفي العصر العباسي انتعل الخاصة الخفاف الحمر على عادة الفرس.

المرأة:

كانت المرأة في مجتمعها الجاهلي مجهولة القدر، مجحودة الفضل، ترزح تحت أعباء ظالمة وتقاليد جائرة حتى إذا ما جاء الإسلام أنصفها وبوأها مكاناً سامياً. لم تحظ المرأة في تشريع سماوي أو وضعي بالتقدير والتبجيل بمثل ما حظيت به المرأة. المسلمة وقد تعدد ذكر النساء بالقرآن الكريم، وذكر شؤونهن في سور بأكملها في كتاب الله بلغت عشر سور من أهمها سورة النساء الكبرى وسورة النساء الصغرى (الطلاق) بالإضافة إلى ما جاء في سورة البقرة، وما جاء في سورة التحريم والمجادلة والممتحنة والنور والمائدة والأحزاب.

دور المرأة في التاريخ:

للنساء المسلمات دور مشهود في الجهاد، فقد خرجن غازيات مجاهدات مع رسول الله ﷺ، يقمن على تضميد الجراح ونقل الجرحى من المجاهدين إلى المدينة وسقي الماء للجنود، وحث الجند على الجهاد.

وفي عهد الراشدين اختلطت بالناس لسماع خطب الخلفاء ومناقشتهم ومحاسبتهم، ومع التطور الذي أصاب المجتمع الإسلامي في العصر الأموي، أخذت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق، ودخلت الحريم ابتداء من عهد الوليد بن يزيد إلى القصور جرياً على تقاليد الروم وعاداتهم، وكان نصيب المرأة في الحياة العامة في المجتمع في مرحلة النضج والازدهار كبيراً يسترعي الانتباه على الرغم من القيود الاجتماعية التي فرضتها التقاليد على المرأة، فقد أسهمت بدور بارز يدل عليه ذلك العدد الضخم من تراجم النساء الذي تحتويه تواريخ المدن الإسلامية في العراق ومصر والشام والأندلس، فضلاً عما في كتب التراجم والطبقات من ذكر الشهيرات من النساء اللواتي برزن في مختلف ألوان النشاط السياسي والفكري والديني والاجتماعي؛ فقد أفرد السخاوي، -على سبيل المثال- أحد أجزاء كتابه "الضوء اللامع" للنساء.

وعندما اشتد تيار التصوف سلكت عدد من النساء في القاهرة وغيرها من المدن الإسلامية مسلك المتصوفة من الرجال، فلبست الخرق، ولازمت هؤلاء النسوة المتصوفات الزوايا والرباطات التي خصصت لهن تحت رئاسة شيخهن.

ويتحدث التاريخ عن أسماء نساء كان لهن دور في المجتمع الإسلامي

سواء أكنّ من الحرائر أم من الرقيق؛ ومنهن على سبيل المثال زبيدة زوج الرشيد التي شاركت الخليفة مجده وعظمته، وكانت بطريقة حياتها ومقتنياتها وتحفها الثمينة مصدراً للتقليد والتزيين في عصرها، فقد كانت المترفات من النساء يحرصن على تقليدها، ومنهن: عليّة، والعباسة بنت المهدي، وصبح أم هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر في الأندلس.

وكان للإماء والجواري دور في رفاهية المجتمع لا سيما النابهات منهن، فكان منهن الشاعرات والمغنيات اللاتي يحيين مجالس السمر والطرب واللهو، وأدت الجواري دوراً مهماً في التاريخ، وخاصة في المجتمع العباسي؛ إذ صار بعضهن أمهات الخلفاء والسلاطين والأعيان، ونال بعضهن حظوة كبيرة عند أسيادهن، ومنهن من صارت من السلاطين مثل شجر الدر، وأصبحت بعض الجواري على جانب كبير من الثراء بحيث استطعن أن يشدن عمائر ويوقفنها في أعمال الخير. وأصابت بعض الجواري حظاً وافراً من العلم وبرعن في الفنون والأدب والصناعات.

وكان من النساء عالمات بالدين يقبل الناس على دروسهن مثل: ستيتة بنت القاضي أبي عبد الله الحسن بن إسماعيل الضبي (ت٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، وكان ابنها قاضياً، وتكنى أم الواحد، وكانت فاضلة عالمة ومن أحفظ الناس للقرآن، وكانت تفتي وفق المذهب الشافعي مع العلماء، ونقل عنها الحديث، وأم الفتح بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة (ت٤٩٠هـ، ٩٩٩م) وأخذ عنها كثير من العلماء، وكانت موصوفة بالديانة والفضل. واشتهرت بعلم الحديث كريمة بنت أحمد المروزي بمكة، وقد قرأ عليها الخطيب البغدادي، صحيح البخاري، وجوز بعض الفقهاء أن تجلس

المرزة للقضاء من مثل أبي حنيفة، وأبن جرير، وكان لهن حضور في الحياة العلمية كاللغة والأدب.

وتشير المصادر في القرن الثامن للهجرة إلى نساء باشرن أمور الشراء في الأسواق وإلى نساء ذهبن إلى الحمامات العامة حيث كنّ يأنسن ببعضهن. وخرجت النساء إلى أماكن النزهة والفرجة كغوطة دمشق وشاطىء النيل.

الأعمال التي احتلتها المرأة في المجتمع:

أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة، واعترف لها بمشاركة الرجل في إبقاء الجنس البشري، فهي الزوجة والابنة والأخت، وهي عماد الأسرة والركيزة الأساسية في بناء المجتمع، وقد أوضح الإسلام بأن المرأة والرجل من اصل واحد ومن نفس واحدة، فقال تعالى: "يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَهَا" (النساء: ١). وتشترك المرأة في مسؤوليتها مع الرجل فيما يتعلق ببناء الأسرة وتربية النشء، وهي في الوقت ذاته مسؤولة أمام خالقها بوصفها كائناً عاقلاً مدركاً يحاسب عما يأتي من أعمال قال تعالى: "وَمَن يَعمَلْ منَ الصَّالحَات من ذَكَر أو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ ولاَ يُظلَمُونَ نَقَيراً" (النساء: ١٢٤).

واعترف الإسلام للمرأة بدورها الحيوي في المجتمع، ولها أن تتعلم وأن تعرف الإسلام معرفة حقيقية فهي مكلفة مسؤولة، وإن كان الشرع الحنيف قد خفف عنها القيام ببعض ما يكلف به الرجل، وأن استطاعت أن تؤديها، أو أدتها بالفعل، لما في ذلك من حرج.

وللمرأة حقها الكامل في التصرف في مالها، ولها الأهلية الكاملة في ممارسة البيع والشراء وعقد العقود واختيار الزوج المناسب لها، واعترف الإسلام لها بحقها في الميراث، وعلى أبيها نفقتها حتى تتزوج.

يقول لوبون: "وحقوق الزوجة التي نص عليها القرآن ومفسروه أفضل كثيراً من حقوق الزوجة الأوروبية، فالزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلاً عن مهرها، ولا يطلب إليها أن تشترك في الإنفاق على أمور المنزل، وهي إذا أصبحت طالقاً أخذت نفقة، وهي إذا تأيمت أخذت نفقة سنة واحدة ونالت حصة من تركة زوجها".

وفي تحمل المسؤولية الفردية يستوي كل من الرجل والمرأة. وقد نص القرآن الكريم على ذلك في كثير من آياته مؤكداً استقلال الرجل والمرأة في تحمل هذه المسؤولية، وفي الارتفاع إلى مستوى المحاسبة والتقدير أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعضٍ (آل عمران: ١٩٥).

وتنقسم المسؤولية الفردية إلى قسمين: مسؤولية خاصة تتعلق بالإنسان ذاته من حيث احترامه لعقله ونفسه، ومراعاة ما أمر الله به فيما يرتبط بالعلاقة بين الإنسان وخالقه ورعاية ذاته، ومسؤولية عامة تختص بالدعوة إلى الإصلاح والخير في إطار المبدأ الإسلامي العام الذي حدده القرآن، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويناط بالرجل والمرأة التطبيق العملي لهذه المسؤولية بشقيها الخاص والعام، وفي نطاق قيام الرجل والمرأة بالمسؤولية الملقاة على عاتقيهما وعبر تقديرهما لأبعاد هذه المسؤولية، يتحقق للجميع الصلاح والتقدم والخير،

كما يتحقق للأمة انسجامها وتناسقها.

وتحتم المسؤولية الفردية على المرأة أن تتعلم وعدّ الفقهاء ذلك فرض عين.

وللمرأة المسلمة بكراً كانت أو ثيباً أن تقول رأيها في زواجها، فقد قال رسول الله ﷺ: "الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها وأذنها صمتها".

وللمرأة المسلمة الحق في أن تدلي بشهادتها وأن تُقبل هذه الشهادة ولكن القرآن الكريم حدد ذلك فذكرت الآية الكريمة: "فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان"، وقد فسر ذلك تفسيراً يرفق بحال المرأة حتى إذا نسيت إحداهما تذكرها الأخرى، وكانت النساء الحرائر يتخذن الجواري، وكانت السيدة الحرة حرة التصرف في جاريتها إن شاءت اعتقتها أو أهدتها أو باعتها.

والمرأة شريكة الرجل في تكوين الأسرة، يرعيانها سوياً إلى أن يصل الأبناء إلى مرحلة النضج والاعتماد الكامل على النفس، بما يُتاح لهم من تربية وتعليم ومساندة روحية ومادية في نطاق الأسرة السوية التي يريدها الإسلام.

الأعياد والمواسم:

حفلت الدولة الإسلامية بكثير من الرسوم والمظاهر الاجتماعية، وكان من ضمنها الاهتمام بالأعياد والمواكب وتنظيمها حسب قواعد معينة

وأنظمة محددة إلا أن المجتمعات الإسلامية شهدت كثيراً من الاحتفالات والأعياد منها: الدينية التي يحتفل بها المسلمون ومنها الوطنية أو شبه القومية التي يحتفل بها المسلمون وغير المسلمين، ومنها العائلية.

الاحتفالات الدينية:

كان منها الاحتفال بالمولد النبوي الشريف والاحتفال بإحياء شهر رمضان الكريم، والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى وخروج موكب الحج. لكن أهم هذه الأعياد وأكبرها عيدا الفطر والأضحى لارتباطهما بركنين أساسيين من أركان الدين الإسلامي وهما: الصيام في شهر رمضان، والحج إلى البيت الحرام، ويحتفل بهما المسلمون قاطبة على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم وبلدانهم، وكانوا يحتفلون بهما بفخامة وأبهة تظهر روعتهما في أمهات المدن، وبخاصة المدن التي يكون الشعور الديني بها عميقاً كالديار المقدسة والثغور، وكان المسلمون يرسلون المرابطين في الثغور الحلوى والهدايا تقرباً لله وتكريماً لهم.

وكان الناس في مختلف أقطارهم يتهيأون للعيدين قبل حلولهما، حيث كانوا يعدون الحلوى الخاصة، وكانت تصنع بهذه المناسبة أبراج من السكر توضع في وسط الموائد.

عيد الفطر:

يرجع الاحتفال به إلى أيام رسول الله ﷺ، فبدأ الرسول بصلاة العيد بُعيد انتهاء شهر رمضان ثم جرت العادة أن يخرج الخليفة صباح يوم العيد

إلى المسجد الجامع للصلاة بالناس وإلقاء خطبة العيد، وعندما يعود إلى الدار يأمر بمد السماط للناس، ويستعرض الموكب الذي يمر أمامه، وفيه الأمراء والقواد ومختلف صنوف الجند بكامل أسلحتهم وزينتهم تتقدمهم الأعلام، ويستمر الناس في احتفالهم بالعيد ثلاثة أيام، ويسمى أول يوم من شوال - وهو أول يوم عيد الفطر- يوم الرحمة، وقد جرت العادة في هاذا اليوم أن توزع الخيرات؛ كالفطرة والكسوة والطعام. وكان الخلفاء والسلاطين والحكام يبالغون في التوسعة على العلماء وتوزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين. ويستقبل العيد الجميع بملابس جديدة.

عيد الأضحى وموسم الحج:

يعد موسم الحج أعظم مواسم السنة احتفالاً، إذ تتجمع فيه مواكب الحجاج من مختلف أقاليم الدولة العربية وأمهات مدنها في حاضرة الخلافة تتقدمها المحامل والطبول، وكان موكب الخليفة على رأس هذه المواكب جميعاً أو من ينوب عنه.

ومن الملاحظ أنه لم يخرج خلفاء للحج بعد هارون الرشيد، وكان يخرج من كل قطر موكب، أما موكب بغداد فكان يجمع كثيراً من المسلمين الراغبين في الحج القادمين من الأقطار الشرقية (العراق وفارس وخراسان).

وكان الناس يقيمون الولائم للحجاج، ثم يقلد الخليفة من يختاره لإمارة الحج ويخلع عليه ويجهزه بالدواب لركوبه مع حاشيته فيخرج بالحجاج وهم في طاعته. أما الخلفاء فكانوا يحملون معهم زادهم وتخرج معهم مجموعة من الجند لحراستهم، وقد عرفت وظيفة أمير الحج منذ عصر النبي ﷺ؛ إذ كان ينيب عنه، عند الضرورة أحد الصحابة في رئاسة

المسلمين الذاهبين للحج، وسار الخلفاء والولاة على هذه السنة، فكانوا يضعون نواباً عنهم يرأسون الحجيج الخارج من أقطارهم إلى بيت الله الحرام، وعرف هؤلاء في الدولة الإسلامية باسم "امراء الحاج". وكان من واجب أمير الحج إرشاد الموكب إلى الطريق الصحيح والمحافظة على أمن وسلامة الحجاج، وهو الذي يلقي خطبة عيد الأضحى نيابة عن الخليفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة، وهو الذي يوزع هدايا الخليفة، ويعلق قناديل الذهب والفضة التي يبعث بها الخليفة بالمسجد الحرام، لمدة خمسة أيام ليراها الناس ويشاركوا بالاحتفال في تعليقها، ثم تنقل بعدها إلى داخل المسجد، كما يتولى نصب الأعلام التي عليها اسم الخليفة. وعندما ينتهي الحج وتعود مواكب الحجاج إلى حاضرة الخلافة يتجمع الناس ثانية، ويخفون لاستقبالهم ضاربين الدفوف وحاملين الأعلام، وتتم تهنئتهم بسلامة العودة ويأمر الخليفة بتوزيع الهدايا خاصة على من عاد من الحجاج من رجال الدولة ووجهاء الناس.

ومن أهم مظاهر عيد الأضحى النحر، ويوم النحر هو أول أيام عيد الأضحى وتذبح فيه أعداد كبيرة من الإبل والبقر والغنم، وكان من رسوم دار الخلافة أن توزع على القواد وحاشية الخليفة وموظفي الدولة أعداد كبيرة من البقر والغنم والإبل ليضحوا بها، وإطلاق من يرى الخليفة من المحبوسين، كما يأمر بذبح سبعين ناقة في أبواب دار الخلافة رغبة في الأجر والثواب.

رأس السنة الهجرية:

يعد الأول من المحرم معظماً لأنه غرة الحول ومفتتح السنة، وهو ليس عيداً شعبياً بل اقتصر الاحتفال به على دار الخلافة، واعتاد الناس أن يتهادوا

فيه، إلا أن الفاطميين بالغوا بالاحتفال برأس السنة الهجرية، فكانوا يعملون طعاماً وحلوى في مطبخ القصر، ويوزع على القواد والموظفين من أصحاب الرتب وأرباب السيوف والأقلام، ويعمم ذلك على سائر الناس، وقد احتفلوا به أسوة بالعباسيين في بغداد وسامراء.

الاحتفالات الاجتماعية (غير الدينية):

أول الربيع

يخرج الناس فيه إلى البساتين مصطحبين معهم الجواري والقيان، فيرقصون ويغنون ويقضون نهارهم في طرب ومتعة.

النوروز والمهرجان:

وهذان العيدان في أساسهما من أعياد الفرس، واستمروا على الاحتفال بهما بعد قيام الدولة الإسلامية، فيقع النوروز في أول يوم من السنة الشمسية أي في (٢١ آذار/ مارس من السنة الرومية)، ويقع المهرجان في منتصف السنة الشمسية، كما استمرت أغلب الطقوس التي تجري في هذين العيدين بما لا يتنافى مع تعاليم الإسلام، على أن مشاركة العرب فيهما اقتصرت على تبادل الهدايا والخروج للترويح عن النفس. واعتاد الخلفاء أن يوزعوا هدايا على حاشيتهم، كما كانوا يتلقون هدايا من الوزراء والقادة وأفراد عائلتهم.

كان النوروز عند المصريين هو رأس السنة القبطية، لكنه أصبح زمن المماليك عيداً عاماً يشترك فيه المسلمون وغير المسلمين، فيصنعون الحلوى

ويتبادلون الهدايا وتعطل المتاجر.

تولية الخليفة أو السلطان:

وفيه تتزين المدن وتمد الأسمطة في قصر الحاكم وتضاء الدكاكين والحوانيت بالشموع والقناديل وقد تجري هذه الاحتفالات كذلك بمناسبة شفاء الخليفة أو السلطان من مرضه أو عودته ظافراً من الحرب.

وفاء النيل:

ويكون هذا الاحتفال عندما يصل ارتفاع مستوى النيل ستة عشر ذراعاً، فيخرج الناس ومعهم مشاعل الشموع والقناديل ويستأجرون المراكب ويزينوها، ويخرج السلطان في هذا اليوم بموكب مهيب يحضره كبار رجال الدولة.

أعياد الشيعة:

ومنها الاحتفال بيوم عاشوراء، ويوم غدير خُم وهو الذي يصادف في الثامن عشر من ذي الحجة.

أعياد النصارى:

ومن ذلك احتفالهم بعيد رأس السنة والأعياد الخاصة حسب تعدد الطوائف المسيحية، فكانت الأديرة تحتفل عادة بالأعياد فيخرج رهبانها وقساوستها إلى المذبح متزينين وحولهم فتيانهم، وبأيديهم المجامر والصلبان تتدلى على صدورهم، ويتقلدوا الصلبان، وكان يتجمع حولهم النصارى من الرجال والنساء محتفلين بالطقوس الدينية، وهم يحملون تحف الرياحين والورد، فيخرج المسلمون لمشاركتهم في أفراحهم ومشاهدة طقوسهم.

الزواج والولادة أو الختان:

وهي من المناسبات التي تعرض فيها مظاهر البذخ خاصة احتفالات الزواج، وقد سجل لنا التاريخ بعض هذه المناسبات مثل: زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل، وزواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه -سلطان مصر- حيث وصف العرس الأخير بأنه كان في منتهى الجمال، وفيه وقف العروسان على حصير منسوج من خيط الذهب ومرصع بالدرر والياقوت، ثم نثر عليهما ألف لؤلؤة من صينية ذهبية.

المواكب:

اهتمت الدولة العباسية اهتماماً خاصاً بالمواكب وذلك جرياً على عادتهم الاهتمام بالرسوم والمظاهر التي من أهمها المواكب التي يشترك فيها الخليفة وجرت العادة أن يأخذ موكب الخليفة، مظهراً حربياً، وكان من التقاليد المتبعة في هذه المواكب ظهور الخليفة بشعارات خاصة أو علامات خاصة هي البردة والخاتم والقضيب، وقد كان الخلفاء يخرجون في مناسبات خاصة منها:

١- **مواكب الجمع:** كان الخليفة يخرج لصلاة الجمعة في موكب فخم، إذ كان الحرس من مختلف الطبقات يسيرون في المقدمة وهم يحملون الأعلام، ويأتي بعدهم أمراء بيت الخلافة على ظهور الخيل المزدانة، ثم الخليفة وهو يمتطي جواداً أبيض وحوله كبار رجال الدولة، ويلبس قباء أسود، ويضع على رأسه قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية وبيده قضيب الخلافة وبأصبعه خاتم، ويتدلى من صدره سلسلة طويلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة. وكان الهادي هو أول من أدخل هذا

النظام. وكان يضرب على أبواب قصر الخلافة في بغداد بالطبول في أوقات الصلاة.

٢- **مواكب الحج:** كان الخليفة يخرج على رأسها أو يبعث من ينوب عنه، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في أثناء الحديث عن الاحتفال بعيد الأضحى.

٣- **مواكب الاستقبال:** وفي هذه المناسبات كان الخليفة يخرج في موكب لاستقبال بعض الوفود أو السفراء، ويبالغ في هذه المواكب إلى درجة كبيرة، من أمثلتها موكب استقبال الخليفة المقتدر في بلاطه رسل الإمبراطور قسطنطين السابع سنة ٣٠٤هـ، إذ يقال أنه مشى في موكب الخليفة ١٦٠ ألف فارس وراجل وسبعة آلاف من الخدم وسبعمائة صاحب، وسار رسل الإمبراطور بين صفين من السباع عددها ١٠٠ سبع.

مجالس الغناء والطرب:

يعد الغناء والموسيقى من الفنون التي عرفها العرب في حضارتهم الإسلامية مثل بقية الشعوب، وكما وجد أثر العرب في نواحي متعددة، فإنهم تركوا أثرهم أيضاً في الغناء والموسيقى، فوضعوا الألحان ودرسوها واخترعوا الآلات.

ولقد تطور الغناء والموسيقى في العصر الإسلامي، فالحجاز كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب على حد قول ابن عبد ربه والحقيقة أن الشعر العرب لا يخلو قط من ذكر الشراب والغناء، واشتهرت

الحيرة بالغناء الحيري، كما ذاعت شهرة آلاتها الموسيقية؛ كالعود والمزمار والدف. أما الغساسنة فقد عاشوا عيشة تجمع بين البداوة والتحضر، وفي مجالسهم الشهيرة كانت تغني المغنيات الروميات، وقد عرف العرب أنواعاً من الغناء منها: الحداء الذي يصحب الإبل في قوافل الصحراء وأناشيد الركبان، ونواح الثاكلات، وأراجيز الحروب، وبكاء الحجاج، وغناء الكرائن (أي القيان والمغنيات).

وقد قسم العرب الغناء إلى أقسام عدة:

١- النصب (من الأنصاب): غناء الركبان وهو ضرب من الغناء الديني.

٢- القينان والسناد: وهو الثقيل بالترجيع الكثير النغمات.

٣- الهزج وهو الخفيف الذي يرقص عليه.

ومن الآلات الموسيقية التي اشتهرت عند العرب قبل الإسلام العود والجنك الفارسي والرباب والطنبور والمربع وهذه آلات وترية، أما آلات القرع فهي الدف والطبل والجلاجل، وأما آلات النفخ فهي الناي والمزمار والصدر والناقور. وكانت يثرب أعظم مراكز الغناء والموسيقى في العصر الجاهلي، وانتشرت في مكة القيان بين رجالات قريش وأثريائها.

الغناء والطرب في العصرين الراشدي والأموي:

ولما جاء الإسلام لم يمنع الغناء أو الموسيقى، وإن كان العرب أول أمرهم لم يهتموا بهما لانشغالهم بالفتوح، وبعد استقرارهم مالوا إلى الترف وغلبت عليهم الرقة، وظهر ذلك مع مجيء الأمويين الذين قيل عنهم إنهم

أول من أوجد الملاهي، وأخذ حب الموسيقى يتطور إلى شغف مفرط في عهد الوليد الثاني، وأصبحت الأموال تغدق على المغنين، والواقع أن الموالي مارسوا تأثيرهم في المجتمع الإسلامي العربي آنذاك لأنهم اشتهروا بالغناء. وكان للثريا محبوبة عمر بن أبي ربيعة قصر عظيم يكتظ بالرقيق والجواري، برز من بينهم مغنيان مشهوران هما: الغريض ويحيى، ورافق الترف ضروب من المرح، فكثر اصطناع الملهين والمضحكين في الحجاز، ومن أشهرهم الدرامي الشاعر المضحك في مكة، وأشعب مضحك المدينة.

الغناء والطرب في العصر العباسي:

ولما جاء العباسيون انتعش الغناء والموسيقى على أيديهم انتعاشاً كبيراً، فقد تطور الغناء تطوراً واضحاً في العصر العباسي نتيجة تأثر العباسيين بالفرس والروم من ناحية، وكثرة الجواري من ناحية ثانية، فضلاً عن تقدير الخلفاء للمغنين وتشجعيهم بإغداق المنح والعطايا عليهم من ناحية ثالثة. ومن أشهر المغنين في ذلك العهد إبراهيم الموصلي وابنه إسحق، ومخارق، وزمام الزام. وتطورت الآلات الموسيقية زمن الرشيد الذي كان أول من وضعها تحت رعايته، فارتقت مهنة الغناء في ظله حتى أصبحت مهنة شريفة، وكان الأمراء والأميرات يعملون على رفع شأنها، ومنهم الأميرة "علية" وهي معروفة بفضلها وورعها، وكانت إحدى شهيرات عصرها في الموسيقى، ولها ذوق سليم في وضع الألحان والأنغام، ومما ساعد على تقدم الغناء ظهور أنواع الشعر المغنى من القصائد والموشحات والموال والزجل، لا سيما ما يتعلق منه بالغزل، وبذلك كان العرب أول من غنى شعراً موزوناً.

ولا ننسى دور المهدي في تشجيع الغناء والموسيقى، فقد كان بلاطه يعج بالمغنين وذوي المواهب الفنية أمثال: حكم الوادي وسياط وإبراهيم الموصلي.

ومن العوامل التي ساعدت على ظهور العديد من المغنين والمغنيات اشتغال كثير من الناس بتجارة الرقيق والنخاسة في بغداد، وقيام النخاسين بتعليم الجواري الغناء والموسيقى لإقبال الناس على شرائهن.

وقد شغف الناس بالغناء ومجالس الطرب حتى أصبح الغناء وكأنه ضرورة في المجتمع العراقي في عصر الدولة العباسية، وفي هذا العهد دخلت أنواع جديدة من آلات النغم، فقد أدخل (زلزل) نوعاً من العيدان سمي بالعود الكامل والعود الشبوط، وأدخل زرياب وتراً خامساً على العود، واتخذت آلات جديدة كانت معروفة عند الفرس؛ كالكرج والجنك والناي والكوس، وظهرت التخصصات في الغناء والموسيقى؛ فهناك طائفة من المغنين وطائفة من الموسيقيين.

أما مجالس الطرب فغالباً ما قُرنت بالشراب، وأن كانت هناك مجالس خاصة بالشراب يُعد لها إعداداً خاصاً وتُنفق عليها الأموال الطائلة، وربما يقضي فيها الندماء وقتاً طويلاً يناقشون في أنواع الشراب وخصائص كل نوع. وكان للرقص نصيب وبخاصة في حفلات الأفراح، فترتدي الراقصات الثياب المزركشة، ويحملن الزهور والرياحين، ويؤدين رقصاتهن على إيقاع الموسيقى.

الغناء والطرب في الأندلس:

لقد ازدهرت الموسيقى بالأندلس، وكان بدء ذلك مع وصول أحد تلاميذ الموصلي، واسمه زرياب الذي أخذ عنهم الغناء فأجاد فيه، وانتقل إلى المغرب والتحق بالحكم بن هشام أمير الأندلس الذي بالغ في تكريمه، وركب للقائه وأجزل له الهبات وأدناه من مجلسه ونادمه، فترك بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقله الناس حتى زمن الطوائف، وهو الذي زاد على العود وتراً خامساً، واخترع مضراب العود من قوادم النسر.

الغناء والموسيقى في مصر والمغرب:

اغرم المصريون منذ أقدم العصور بفن الغناء والموسيقى، وليس أدل على ذلك من النقوش الكثيرة التي وصلت إلينا في المعابد والمقابر تمثل الموسيقيين بآلاتهم والمغنين والراقصين وغيرهم، وورث أهل مصر في العصر الإسلامي عن أجدادهم هذا الميل، ويستدل على ذلك من الآثار الباقية من العصر الفاطمي وعلى الأخص اللوحات الخشبية التي كانت تغطي الأفريز العلوي من جدران بعض قاعات القصر الفاطمي؛ إذ حفرت بعض رسوم آدمية تضم صور مطربين ومطربات وعازفات على آلات موسيقية وراقصين وراقصات، وصوراً أخرى لمجالس شرب. وتشير بعض المصادر العربية إلى مجالس الأنس والطرب التي كان يقودها أمراء مصر وملوكها في التاريخ الإسلامي؛ فابن سعيد المغربي يشير إلى مجلس من هذه المجالس فيه غناء ورقص حضره الأمير أحمد بن طولون وبرفقته المغني أبو الذؤيب وكان من أقباط مصر، وكان كافور الأخشيدي يطرب لسماع الموسيقى، وبلغت

الموسيقى والغناء مرتبة كبيرة في عصر المماليك، فكانت مواكب الموسيقيين تجوب الشوارع ويشترك فيها الطبالون والزمارون والمغنون، واعتاد الناس أن يخرجوا إلى المتنزهات مصطحبين معهم آلاتهم الموسيقية ليطربوا ويغنوا.

التسلية وأنواعها:

تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس في المجتمع الإسلامي، ولم يتسم أي شيء منها بالعنف تمشياً مع روح الدين الحنيف، وكانت أهم مظاهر التسلية عند المسلمين:

الفروسية وكرة الصولجان:

يعد سباق الخيل أحد أنواع الفروسية التي كان يمارسها الخلفاء وكبار رجال الدولة من الوزراء والقواد، وقد أقيمت له الميادين. وكان السباق معروفاً لدى عرب الجاهلية وجرى ذلك في أمثالهم، فكانوا يقولون: أحرز فلان قصب السبق، وقد كان العرب في سباقهم يرسلون خيولهم عشرة عشرة، وعندهم أسماء لمراتبها في السباق؛ فأولها السابقة ثم المصلى لأن رأسه عند صلوى السابق، ثم الثالث والرابع إلى التاسع أو العاشر السكيت، وأحب المسلمون السباق بالخيل لأن النبي -ﷺ- ربط بين الجهاد وبين الخيل وهو ما عرف برباط الخيل، ونقلت أحاديث كثيرة عن حب النبي -ﷺ- للخيل حتى قيل إنه كان يمسح فرسه بثوبه ويجري الخيل ويسابق بها.

وقد اتفق المؤرخون على خمسة من أسماء الجياد التي حظيت باهتمام الرسول وهي: لزاز ولحاف والمرتجز والسكب واليعسوب، وأجاز الخلفاء

الراشدون في صدر الإسلام قيام السباق، فأمر عمر بن الخطاب به في الكوفة، كما أقام هشام بن عبد الملك حلبة جمع فيها خيله وخيل غيره وبلغت أربعة آلاف فارس فلم يعرف ذلك في الجاهلية ولا في الإسلام.

وكان أكثر الخلفاء يحضرون ساحة السباق للتفرج على الخيول وهي تسابق بعضها، ومن دلائل اهتمامهم بالفروسية وسباق الخيل أن خصصت في سامراء عند تأسيسها عدة حلبات للسباق.

ومن ألعاب الفروسية الأخرى الكرة أو الصولجان وتعرف الآن بالبولو (Polo) وذلك بضرب الكرة من على ظهر الخيل، وكان لها لباس خاص بها، وكانوا يلعبون في ساحات خاصة اقيمت في قصورهم، وقد اصطدم الوزير عبيد الله بن يحيى في أثناء لعبة كرة الصولجان وسقط عن فرسه ومات أثر ذلك. والصولجان رياضة حسنة تامة وصفها الحكماء لجسد الفارس والخيل معاً، وهي تفيد جميع أعضاء البدن. وكان الخليفة المعتصم بالله يلعب بكرة الصولجان ويقسم أصحابه إلى فرق للعبها، وكان المنتصر ابن المتوكل على الله من هواتها. وقد تقدمت هذه اللعبة تقدماً كبيراً على يد المماليك في مصر، وأصبح عرض الخيل جزءاً من رسوم الخلافة الفاطمية في مصر، فكان يخصص يوم قبل قيام الموكب الرسمي لعرض الخيل يحضره الخليفة وكبار رجال الدولة.

عرف العرب من الخيل أشياء كثيرة، وأطلقوا عليها أسماء متعددة قد تبلغ ألف كلمة في لغتهم، فالحصان أو الفرس أو الفحل هو الذكر من الخيل، والكميت هو السريع، والمسوّم هو الذي خص بعلامة، والأجرد هو قصير الشعر، وعتاق الخيل أو كرامها هي الخيل حسنة الأعضاء. كذلك

عرفوا كثيراً من صفاتها من سائر أعضائها، وفضلوا منها غليظ العنق لإخراج النفس، وطول اللسان لكثرة الريق، وكثرة لحم البطن واتساع الصهوة للركوب، وعظم الحافر والركب وحدة السنبك لصك الأرض واحتمال ما فوقه من الثقل، وكانوا يعرفون في الخيل الرسعة والطاعة وجمال الخلق. ولا تزال الخيل العربية إلى الان هي التي تظهر في السباقات في جميع ميادين السباق، وترجع أصالة هذه الخيل إلى أن العرب منذ القدم كانت تعتني بتجويد الخيل وتحسين نسلها، لذا ولع العرب بالكلام عن الخيل والتأليف عنها وعن طريقة ركوبها واستخدامها في الحرب، وأصبح للحلبات أخبار.

الصيد والقنص:

الصيد الذي عاش عليه الإنسان في أول عهده، أصبح في زمن الحضارة الإسلامية رياضة ومتعة، كونها تعين على الهضم وتحفظ صحة الجسم، وهي تمرين على الركض والكر والفر، وتعويد على الفروسية وتمرين على الرمي بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس، واختبار للخيل، ومعرفة شبقها وجبرها على دوام الركض. وكانت العرب تمارس الصيد في الجاهلية وورد ذلك في كثير من أشعارهم، وقد استمر في الإسلام. وكان يرافق خروج الخلفاء للصيد مظاهر الملك وأبهته، فمثلاً كان يزيد بن معاوية إذا خرج للصيد جعل على كلابه الأساور والأجلة الذهب، ولكل كلب عبد يخدمه، وكان الخليفة العزيز الفاطمي إذا خرج للصيد يخرج معه عشرون جملاً عليها محامل فيها كلاب الصيد، ولولعه بالصيد عرف بالخليفة الصياد. ومما يدل على اهتمام الخلفاء بني أمية في هواية الصيد بناء قصورهم في بادية الشام يخرجون إليها في مواسم معينة، ومن خلفاء العباسيين الذين

مارسوا الصيد: المعتصم بالله والواثق بالله والمعتز بالله. وقد اعتنى الناس بتربية الفهود والكلاب الجيدة الصالحة للصيد.

وقد كان القنص بالطيور الجوارح كالباز والشاهين (جمعها شواهين وهي الصقور البيضاء) والعقاب والصقر معروفاً، كما كانوا يطلقون الطير في الهواء ثم يُلقى لها الحب لتهبط وعندئذ يصيدون منها بالفخ أو بالندق (كلمة فارسية تعني الرصاص والطين أو الحجر تطلق بالزاريق، وهي أنابيب ترسلها بضغط الهواء أو بالنشاب، أو بالأقواص أو بما يسمى أيضاً قوس البندق أو الجلاهق أو الجراوة أو الزبطانية ولعلها البندقية) وكذلك يطلقون النعام والظباء وبقر الوحش والخنازير ويطاردونها بالكلاب أو الفهود أو الخيل.

وبلغت نفقات أصحاب الصيد (وهم الذين يعنون بطيور الصيد والفهود والكلاب، وثمن إطعام الجوارح وعلاجها وأرزاق الأعوان والحمالين وغيرهم ممن يستخدمهم قصر الخلافة) أيام المعتضد بالله ٢٥٠٠ دينار في الشهر وكان مجموع ما ينفق على ذلك في أيام المتوكل على الله خمسمائة ألف درهم في السنة.

وترتب على ذلك أن اهتم علماء المسلمين بدراسة حياة الحيوانات والطير وألفوا فيها الكتب الكثيرة منها كتاب "الحيوان" للجاحظ، و "حياة الحيوان الكبرى" للدميري، وكتاب "الجوارح واللعب بها" للقائد العرب أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وكتاب "الجوارح" لمحمد بن عبد الله البازيار، وكتاب "الصيد والجارح" المنسوب للفتح بن خاقان، و "البيزرة" لابن الحسين.

السباحة والمصارعة:

وكانت تمارس على نطاق واسع حسبما يظهر من تعدد أنواعها، فقد كان هناك أكثر من عشرة أنواع منها: الغمر والاستلقاء، والطاووس والعقرب والموزون والكامل والمقيد.

كما كانت رياضة المصارعة وحمل الأثقال شائعة أيضاً، فقد ذكر عن جيش ابن خمارويه أنه أنصرف إلى اللهو مع رجلين من عامة العيارين الذين يحملون الحجارة الثقال والعمد الحديد ويمارسون المصارعة.

تربية الطيور والحيوانات:

من وسائل اللهو تربية الحمام بأنواعه فقد كان في دار الطيب بختيشوع بن جبرائيل أكثر من مئتي طير من الطيطويات والحصانيات، وما يجري مجراها، ولها مسقاة ماء كبيرة، وقد أظهرت التنقيبات التي أجريت في أطلال سامراء على شواهد لتربية الحمام، في المساكن، وكانت هواية السباق بالحمام معروفة، مثلما فعل الخليفة العزيز الفاطمي الذي سابق بحمام وزيره ابن فاس. وكان لبعض الخلفاء هواية بتربية الحيوانات الأهلية والوحشية، فقد بنى المعتصم بالله ما يشبه حديقة الحيوان سمي "الحير" ووضع فيها الوحش من الظباء والأيائل والكباش والأرانب والنعام والديوك وحمير الوحش والأسود والجاموس وغيرها، وقد وسّع المتوكل على الله هذا الحير وأنشأ فيه حديقة حيوانات واسعة حشد فيها صنوف الطير والحيوانات الأهلية والوحشية، وضع بعضها في أقفاص كبيرة واسعة وأطلق بعضها ليعيش حراً على طبيعته.

الشطرنج والنرد:

يقال إن الشطرنج وضعه أحد الفلاسفة لملك أراد أن يرى الحرب وتدبيرها وهو في خفض ودعة، فلما وضعه له أعجب به وتعجب منه. ولعب الشطرنج يتطلب مهارة ذهنية وليس لإجادة اللعب فيه نهاية؛ إذ لا تكاد تتفق فيه لعبتان متجانستان، وهي لعبة تعلم فن الحرب وتشحذ اللب، وتُدرب الإنسان على التفكير وتعلمه شدة البصيرة، وقد شاع اللعب بالشطرنج بين العامة وبخاصة في العصر العباسي، بعد أن تعلموا لعبها من الفرس، ونبغ كثير من اللاعبين المسلمين في الشطرنج، وكانت لهم الشهرة العظيمة بفضل ما طوروه في طريقة لعبه، وما وضعوا به من خطط جديدة. وأشهر الأسماء في لعب الشطرنج: الصولي والرازي والماوردي والحلاج وغيرهم، وكانت لهؤلاء اللاعبين مكانة خاصة عند الخلفاء العباسيين الذين شغف معظمهم باللعب بالشطرنج، وقربوا رجاله إلى مجالسهم وأجزلوا لهم العطاء.

أما النرد فقد وضع على أساس البخت والرزق؛ أي إن اللعب به يخضع للتقدير لا للتدبير. وقد شبه الحكماء رقعته بالأرض الممهدة لساكنها، وشبهوا منازل الرقعة (٢٤ منزلاً) بساعات الليل والنهار، وبيادقها (٣٠ بيدقاً) بعدد أيام الشهر، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل، وأنها أقيمت على أربع مراتب، وهي الفصول الأربعة، وشبهوا اللاعب في اتباعه ما يخرج بفعل العباد باتباع القضاة، ولم يتحرج الفقهاء من لعب الشطرنج والنرد، فقد سئل ابن سيرين عن اللعب بالشطرنج، فقال: لا بأس وهو رفق، وسئل سعيد بن المسيب عن اللعب بالنرد فقال: إذا لم

يكن قماراً فلا بأس، وقد لعب اللعبتين بعض الخلفاء: كالواثق بالله والمعتز بالله والمعتضد بالله. ومن الوزراء، الفضل بن الربيع، ومن المغنيين إسحق الموصلي. وكان الشطرنج والنرد يلعب بهما في الولائم لحين حلول موعد الطعام كوسيلة للهو وقضاء الوقت. وذكر ابن النديم عدداً من لاعبي الشطرنج المشهورين الذين وضعوا كتباً في هذا الفن.

الخيالة (الدمى، مسرح الطفل):

ظهر هذا النوع من التسلية في مصر وكان يستمتع به الكبار والصغار، وكانت تسمى "شخوص خيال الظل" أو "ظل الخيال"، أو "طيف الخيال" أو "مسرح المدى"، ومنشأ هذه اللعبة غير واضح فربما كان أصلها هندياً، وكان أول من نشرها الفاطميون ثم انتشرت انتشاراً واسعاً، وفيه تعرض تمثيليات في شكل عرائس وصور من الجلد أو الورق المقوى، وتوضع خلف ستارة بيضاء، ومن خلفها مصباح بحيث ينعكس ظلالها على الستارة ليراها الناظر من الوجهة الأخرى، وفي تلك العرائس ثقوب ومفصلات تجعلها سهلة الحركة، ويحركها مُقدم التمثيلية بعصا في يده حسب الحوار الدائر في القصة، وهي تسلية لجميع طبقات المجتمع، وكان صلاح الدين من الشغوفين بها، وكان يشاهدها وقت فراغه مع وزيره القاضي الفاضل.

الغناء والموسيقى:

ومن وسائل التسلية الشائعة في المجتمع الإسلامي الغناء والموسيقى، فلا يقتصر أمرهما على المجالس التي كانت تعقد في القصور وإنما شغف الناس جميعاً بهما على اختلاف فئاتهم، وكثرت أسماء المغنين والمغنيات وغصّت بأسمائهم المصادر التي شاعت.

أنواع أخرى من التسلية:

وكان هناك وسائل وأنواع أخرى من التسلية والترويح، كالخروج إلى المتنزهات التي أصبحت تغص بها المدن الإسلامية الكبيرة، حيث اعتاد أن يلتقي الرجال والنساء فيختلطون في غير كلفة أو حجاب ويتبعهم عدد من الباعة، ومن هذه المتنزهات غوطة دمشق، وشاطىء النيل والبرك في القاهرة.

مستوى المعيشة:

اتسمت حياة العرب في معظم أرجاء الجزيرة العربية بالخشونة وشظف العيش والكفاح المستمر في سبيل الحياة، وقد أصاب هذه الحياة تغيير كبير باستقرار العرب في أرض جديدة واسعة امتازت بتنوع تضاريسها ومناخاتها وحضاراتها، مما هيأت لهم حياة مريحة وعيشاً رغداً.

ولم ينغمس العرب في بداية فتوحاتهم في نعيم الدنيا ولم يغرهم زخرفها كالاحتفاظ ببعض النفائس التي غنموها في الحرب، أو باتخاذ كثير من الرقيق والإماء، أو بعض الدور الحجرية العالية، أو تحسين أنواع الطعام.

كان العصر الأموي عصر نزاع بين حياة البداوة الجافة والحياة المتحضرة والمُنعّمة، فكان هناك خلفاء يشجعون الغناء والموسيقى، ويقضون ساعات في اللهو والمجون؛ كيزيد بن معاوية، ويزيد بن عبد الملك، وخلفاء أتقياء يقضون أيامهم في الجد وإدارة الدولة كمعاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. وكانت وراءهم الرعية تظهر عليها تارة مظاهر التمتع بالحياة، وأخرى تظهر عليها مظاهر الورع والتقوى والزهد بالدنيا. ولما توسعت الدولة أكثر وانتقلت حضارتها إلى بغداد، أخذت

مظاهر الترف والتمتع بالنعيم تأخذ مكاناً في المجتمع، فقد طغى الفرس ثم الأتراك والبويهيون والسلاجقة على السلطان والحكم، وظهرت دويلات شبه مستقلة وقامت دولة الأمويين بالأندلس، وانتشرت التجارة وتحسنت طرق المواصلات وتدفقت الأموال بكميات هائلة.

وتجمع لدى عدد كبير من أفراد الرعية ثروات هائلة وشكلوا طبقة امتازت بغناها، فوجدت طريقها إلى حياة ناعمة مترفة لم تعرف في العصر الإسلامي الأول، وانتشرت عادات وتقاليد وآداب جديدة تتلاءم وهذه المرحلة، وظهر ذلك أكثر وضوحاً في جيل من العرب لم يكن جيلاً عربياً خالصاً، كانت تبدو عليه مظاهر الترف؛ كالعيش في القصور وحضور مجالس الغناء والطرب والشراب، ومعرفة ألوان جديدة من الطعام واللباس والمآدب والترويح عن النفس بمختلف أنواع التسلية، وظهرت حياة اللهو والمجون، ومع ذلك لم تنعدم النزعة الدينية الشديدة لمقاومة هذا التيار والدعوة إلى كبحه، ومحاربة حياة المجون والتهتك، وكثرت مظاهر الفريق الأول في المدن وفي بلاط الخلفاء والأمراء والأغنياء، بينما ظهرت مظاهر الفريق الثاني في الريف والصحراء ودور العلم والمساجد في المدن. ولا نبالغ إذا قلنا إن المدن العربية كبغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة كانت في العصور الوسطى أشبه بعواصم العالم المتمدن اليوم من حيث سعتها وعظمتها واحتوائها على كل المتناقضات، فإلى جانب القصور العظيمة ومظاهر الأبهة، كانت الأكواخ الفقيرة والبيوت الحقيرة المبنية من الحجارة والطين المجفف بالشمس، أو الطين الممزوج بالقش المغطى بسعف النخيل وإلى جانب الطبقة الغنية المترفة كانت الطبقة الفقيرة التي تكدح ليل نهار للحصول على القوت الضروري لحياتها، وإلى جانب مجالس العلم

والأدب والدين والترجمة والنقل والتأليف والمناظرات، كانت مجالس الأنس والشراب والمنادمة.

كان يكفي الرجل من عامة الناس هو وزوجته في عصر الرشيد ثلاثمائة درهم في السنة، وكانت الثروة التي تبلغ سبعمائة دينار غير قليلة. وفي مجال الطعام فقد أكثر الخلفاء والأغنياء من المآدب، وبالغوا بعدد طبّاخيهم وكميات السمن والدقيق والحلوى وأنواع الخضر واللحوم التي يستهلكها كل منهم في الأسبوع، وبرزت مظاهر الترف في المآدب التي تقام في المناسبات وتمد فيها السماطات وفي حفلات الزواج وغيرها من الحفلات الخاصة.

وقد حظي المطبخ باهتمام كبير في البلاد الإسلامية، وألّف فيه العديد من الكتب وخاصة في فن الطبيخ، ويقال أن المعتصم أمر بإقامة مباراة للطبخ، كما أن المتوكل كافأ من أجاد طبخ قدر أعجبه بقدر مملوءة بالدراهم.

وكانت أصناف المواد الغذائية المألوفة الخبز واللحم والأرز والخضروات، وزيت السمسم والدهن، ويكاد اللحم يدخل في جميع أنواع الطبيخ، كما يدخل الأرز في كثير من الأكلات أيضاً، وإلى جانب أنواع الطبخ باللحم كانت هناك أنواع متعددة لطبخ الدجاج والأسماك. ومما كان يزيد في مذاق الطعام ونكهته، إضافة التوابل والبهارات إليه. وعرف الناس أنواعاً عديدة من الطبيخ والمخللات والحلويات والبقول والفواكه والنبيذ. وكان المترفون يتأنقون في طعامهم وشرابهم ويتخذون ما لذ وطاب منها. أما طعام العامة، فكان يقتصر على وجبة واحدة وهو في العادة من التمر والسمك ولحم البقر الرخيص الثمن، والهريسة وحلاوة التمر من لذائذ

الطعام عندهم. أما الفقراء فلهم في لحم البقر وعصيدة التمر ما يكفيهم.

وكانت صور الدعوات إلى المآدب تتناسب وطبيعة المدعوين، فقد كان الوزير أبو الحسن علي بن الفرات يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من الكتّاب الذين اختص بهم، وكان منهم أربعة نصارى فكانوا يقعدون على جانبيه وبين يديه، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة وأجودها، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعة من الفواكه، ومعه طست زجاجي يرمي فيه التفل، فإذا بلغوا حاجتهم رفعت فغسلوا أيديهم ثم يؤتى بمائدة الطعام، ويأخذ القوم في الأكل، وأبو الحسن بن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم، ولا يزال على ذلك، والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين، ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه، ويغسلون أيديهم بماء الورد وهذه عادة مستحدثة، أما العادة الإسلامية القديمة فكانت تقضي بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة، ليأخذ كل واحد منه ما يشتهي.

وكان الشراب منتشراً على الرغم من نهي القرآن الكريم عنه، وانتشرت حانات الخمر في بغداد وكثر الساقون والساقيات، وكذا الحال في مصر وفي بلاد المغرب، وكان في بيوت الكبراء إلى جانب صاحب المطبخ رجل يسمى الشرابي.

ويتجلى إسراف خلفاء العصر العباسي الأول وبذخهم في حفلات الزواج، فعندما زوج المهدي ابنه هارون الرشيد بالسيدة زبيدة أقام ليلة زفافهما وليمة لم يسبقه إليها أحد في الإسلام، ووهب الناس في ذلك اليوم

أواني الذهب والفضة المملوءة بالذهب والمسك والعنبر وزينها بكثير من الحلي والجواهر، وقد قيل أن نفقات زواجه تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون. كما وصف لنا التاريخ بعض هذه الحفلات؛ كزواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل، وزواج الخليفة المعتضد من قطر الندى بنت خمارويه الطولوني.

وكان اقتناء الدور الواسعة وفرشها بأفخر الرياش والأثاث شائعاً عند كل ذي سعة، وبخاصة فيما يتعلق بتأثيث القصور، وروت الأخبار أن السيدة زبيدة زوج الرشيد كانت تصنع أعمالاً تفوق قدرة الملوك، فقد صنعت بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من الذهب وأعينها يواقيت وجواهر، ويقال إنها أنفقت عليها نحو ألف ألف دينار. واستخدمت الآلات المصنوعة من الذهب المرصع بالجوهر، ولبست الثوب المصنوع من الوشي الرفيع الذي يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار، كما لبست الخف المرصع بالجوهر.

وكانت بيوت الأغنياء من الناس تغشى سقوفها بالساج، وتزين تعاريجها بالأبنوس والعاج، وقد يكسون جدران الغرفة بالأقمشة الثمينة كالخز وغيره، ويتألف فرش البيوت المترفة عادة من الزلالي والطنافس والانخاخ والقطف والمقاعد والنمارق والحصر العبادانية التي تطوى كما تطوى الثياب، والدسوت الممزوجة بالذهب ومطارح الديباج المقصب بالذهب والمحشو بالريش، وأحسن أصناف الفرش ما كان يجلب من أرمينيا، أما الأسرة فكانت من الأبنوس المزين بالعاج، ويعلوها المكلل من الألوان الزاهية للوقاية من البعوض. أما الفرش الرخيص الذي يستعمله

سواد الناس فلا يتعدى الزلالي الرخيص والقطف السوادية والمسوح الكردية .

وكانت الأدوات واللوازم البيتية في البيت الاعتيادي هي طست وأبريق وجرة وكيزان وقدور وجامات وسكرجات وغضائر وصواني وأطباق وقناني وأقداح ، ومن هذه الأدوات واللوازم ما هو بسيط ورخيص ، ومنها ما هو جيد وغالي الثمن ، وذلك يتوقف على منزلة صاحب البيت الاجتماعية وحالته المادية .

أما في المسكن (انظر القصور) فقد كشفت الحفريات التي أجريت في أطلال سامراء أن أغلب البيوت كانت مشيدة على طراز واحد هو الطراز المعروف بـ" الحيرى بُكمين " ، وهو طراز أحدثه المتوكل على الله ، وكان قديماً قد أحدثه أحد ملوك الحيرة فنسب إليه ، وهو يتألف من إيوان وعلى جانبيه غرفتان يمتد أمامهما رواق متصل بالأيوان . وقد شاع هذا الطراز في بناء البيوت في بغداد وسامراء .

وكان المترفون من الناس يلجأون في الصيف إلى تبريد بيوتهم باستعمال الخيش ، بوضعه حول الغرف المراد تبريدها ويبلونه بالماء دوماً فيبرد الجو ، أو أن يسكبوا قطع الثلج ، وعليها غلمان يروّحون بمراوح فيبرد هواء المكان الذي وضع الثلج في مدخله أو قريباً من نوافذه ، وكانوا يستخدمون المراوح للتبريد في بعض البيوت ، وهي قطع من القماش السميك شبيهة بشراع السفينة تربط بسقف البيت الذي يراد تبريده ، ويشد بها حبل تجر به بعد أن يرش عليها بالماء فتأتي بتحريكها بنسيم رطب بارد ، وبعضهم كان يتخذ أبنية تحت الأرض ، حيث الماء الجاري تحت الأرض وفي السراديب التي

يستروح الناس فيها أشهر الصيف. وكان أهل بغداد ينامون في ليالي الصيف على سطوح البيوت، وفي المناطق التي يكثر فيها نزول الأمطار تكون فيها سطوح المساكن مسنمة.

واستخدم الناس للإنارة ليلاً السرج والشموع، واستخدم المترفون لأسرجتهم زيتاً لا رائحة له مما يستخدم في الطبخ، بينما استخدم غيرهم أنواعاً رخيصة من الزيوت، وكانت الشموع أنواعاً منها: العادي الذي يستخدمه سواد الناس، ومنها المعنبر والمكفّر أي المخلوط بالعنبر والكافور لكي تلطف رائحة الشمع المحترق، وقد يستخدم الأغنياء أسرجة من الذهب والفضة، ويتخذها غيرهم من النحاس، وهناك أسرجة توقد بالنفط.

وقلدت الأندلس المشرق، فقد كان تأثير الحضارة العباسية الراقية الأنيقة فيها أكثر نفاذاً وأبعد عمقاً، فعلى سبيل المثال اشترى أحد الخلفاء الأمويين في الأندلس عقد زبيدة وقدمه هدية لإحدى زوجاته الأميرة شفاء. وأصبحت طيقة زرياب (الفتى البغدادي) في إعداد الطعام وتقديمه نموذجاً يحتذى من قبل أهل الأندلس.

ويعزى إلى زرياب فن التبرج والتخضيب ونتف الشعر واستعمال معجون الأسنان، وهندمة الرأس ووضع مفكرة للزي تقضي بأن يُلبس الزي الأبيض منذ مطلع حزيران حتى نهاية تشرين الأول، وتلبس ثياب الحرير الخفيفة والسترات ذات الألوان الزاهية في فصل الربيع، أما الفراء المبطن ومعاطف الفراء فتلبس في الشتاء.

وكانت عادة خضاب الشعر منتشرة في بلاد المشرق وذلك باستخدام الحناء والكتم.

أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في انجاز الوحدة الخامسة

- ابن النديم، الفهرست.
- حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية.
- ليڤي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس.
- ناصر خسرو، سفر نامه.
- جاك ريسلر، الحضارة العربية.
- جلال الدين السيوطي، صحيح الجامع الصغير وزيادته.
- ابو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي.
- سعيد عاشور، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية.
- أحمد عبد الباقي، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري.
- عطية القوصي، الحضارة الإسلامية.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب.
- عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.
- أدم متز، الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري.
- المقري، نفخ الطيب.
- فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية.
- محمد عوني ياسين، من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

الوحدة السادسة

الحياة العلمية

الحياة العلمية[1]

علوم العرب قبل الإسلام:

لم يكن عرب الجاهلية في جزيرتهم في عزلة عن العالم المحيط بهم فإن الإمارات التي نشأت على التخوم الشمالية للجزيرة العربية والدول العربية اليمنية القديمة والحركة التجارية الرائجة بين بوادي العرب وواحاتهم من جهة وبين مناطق الحضارة الفارسية والبيزنطية من جهة أخرى ثم دخول كثير من اليهود والنصارى مع كتبهم السماوية وعقائدهم إلى بلاد العرب كل ذلك كان من شأنه أن يخرج عرب الجزيرة من العزلة ويصل بين أفكارهم وبين العالم وهذا الاتصال عمق من معرفتهم وزادها نضجاً وتطوراً. وإنا لنجد أثر حياتهم العقلية المتطورة واضحاً في القرآن الكريم الذي صورهم يجادلون ويخاصمون كأقوى ما يكون الجدل والخصام حول مسائل شائكة كالروح والقدر وصفات الله والمعجزات . . . الخ.

غير أن هذا الاتصال بالأمم الأخرى رغم كثرة وسائله كان ضيقاً بسبب تفاوت المستوى العقلي والاجتماعي بين عرب الصحراء والروم والفرس والاقتباس أكثر ما يكون حين تتقارب مستويات الفكر ثم بسبب انتشار الأمية بين الجاهليين، هذا عدا ما يلحق النقل الشفهي للمعارف والأفكار من تشويه وتحوير واجتزاء وسنجد في بعض معارف عرب الجاهلية شيئاً من الاقتباس يقل ويكثر حسب نوع المعرفة وقابليتهم للاقتباس فيها. ولعل أشهر المعارف العربية قبل الإسلام:

---

(١) أعد هذه الوحدة د. يوسف بني ياسين.

الشعر والخطابة:

يعتبر الشعر اول العلوم التي تهتم بها الشعوب في مرحلة البداوة من حياتها، لأنه تعابير موسيقية لفظية عما يجيش في صدور الناس ومحاولتهم التعبير عنه من خلال الشعر. وإذا كانت الأمم قد عرفت الشعر فإن العرب هم اكثر الامم اعتناءً به واعلاءً لشأنه فهو وسيلة الاعلام في تلك الفترة (الجاهلية) التي تعبر بها القبائل عن مآثرها ومكانتها وايامها (الحروب)، وتفتخر بانجازاتها وترد من خلالها على القبائل الاخرى لدرجة بلغ من تأثيره أن يرفع الوضيع ويضع الشريف لهذا اتقى العرب الشعراء وحاولوا ارضاءهم بشتى الطرق من اموال وهدايا وحسن لقاء وغيرها.

لقد مثل الشعر بالنسبة للعرب ديوانهم الذي حفظوا به لغتهم وتأريخهم وعاداتهم وتقاليدهم بل هو المعبر الحقيقي عن اوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، وهو واضح في صريحه أو مخبوءه.

وبرز في الفترة الجاهلية العديد من الشعراء من مختلف القبائل إلاّ أنَّ ابرزهم شعراء المعلقات وهي من اكمل ما وصلنا من الشعر الجاهلي وهم:

امرؤ القيس، وعمرو بن كلثوم، وعنترة العبسي، والاعشى، وزهير ابن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، والنابغة الذبياني. وتعدد اغراض اصحاب المعلقات الشعرية، فحوت الفخر والمدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والوقوف على الأطلال وأغراض أخرى عديدة.

وكان من اهتمامهم البارز بالشعر أنهم أقاموا له أسواق خاصة من مثل سوق عكاظ، حيث كان الشعراء يجتمعون ويلقون قصائدهم به على شاعر مخصوص يجعلونه حكماً بينهم، يحكم من خلاله على صورهم الفنية

وتراكيبهم والفاظهم، ومن الشعراء الذين تولوا هذا الأمر الشاعر النابغة الذبياني.

ويعد الشعر الجاهلي مصدراً غنياً بالمعلومات عن الفترة الجاهلية فقد ضمنوه اوضاعهم كافة ووصفوا به جميع مظاهر حياتهم فوصفوا الانسان، والحيوان، ومظاهر الطبيعة، وديانتهم وأهم معبوداتهم، ووسائل معيشتهم، وحروبهم، وعاداتهم وقوانينهم المعتمدة وقيمهم التي يعتزون بها، حتى أن العلماء اطلقوا عليه اسم "ديوان العرب" كونه ضم كل معارفهم وثقافتهم.

وأثر عنهم أيضاً مجموعة كبيرة من الخطب التي قيلت في مناسبات مختلفة على ألسنة خطباء مشهورين يمثلون زعامات سياسية واجتماعية وقبلية، عدت رديف نثري للشعر يوازيه من حيث المكانه والأهمية.

ولعل من أبرز الخطباء قس بن ساعدة الايادي التي ما تزال خطبه معيناً لا ينضب فيما يتعلق باحوال العرب الدينية (فترة الاضطراب)، وقدراتهم التعبيرية وأحوالهم الاجتماعية، ومنهم أيضاً قصي بن كلاب جد الرسول ﷺ، وحاجب التميمي وأكثم بن صيفي وغيرهم ممن وصلت خطبهم الينا، وكل هؤلاء قد نالوا مكانةً رفيعة في المجتمع الجاهلي كما نالها الشعراء.

علم الانواء:

أملت طبيعة الجزيرة العربية على سكانها الاهتمام ببعض العلوم التي منها علم الانواء الذي يعني الاهتمام بمطالع النجوم والكواكب وضبط سيرها.

وذلك لأنهم يحتاجون لها فيما يتعلق بتحديد الاتجاهات خاصة ان الصحراء تخلو من علامات بارزة يمكن الاسترشاد والاهتداء بها اثناء التنقل، فكان لا بد من الاهتداء بالنجوم.

كذلك أملت عليهم عبادتهم لبعض الاجرام السماوية الاهتمام بها لامور تتعلق بعبادتهم، واهتموا ايضاً بها لتحديد بدايات الاشهر وخصوصاً الاشهر الحرم وأشهر العبادات التي لا تضبط إلا من خلال مراقبة القمر.

واهتموا كذلك بها لمعرفة مواسم سقوط الامطار واماكن سقوطها لما له من أهمية في حياتهم الرعوية والزراعية لكل هذا كان اهتمام العرب منصباً على علم الانواء. فقد عرف العرب في الجاهلية ما يقارب من خمسمائة اسم نجم جمعها ابو الحسين عبد الرحمن الصوفي في كتابه.

وكان اهتمام العرب بعلم الانواء شفوياً حيث أنهم لم يدونوا هذه المعلومات، وان ضمنوها في أشعارهم، وقد كان هناك مختصون في بعض الاحيان بعلومها يتوارثونها مثل النسأة من تميم الذين كانوا يحددون الاشهر الحرم وبداياتها في الجاهلية.

الطب:

عرف العرب الطب شأنهم في ذلك شأن بقية الأمم لما لهذا العلم من أهيمة عملية في حياة الأمم، وتركزت معارفهم الطبية على:

١. التجربة العملية وهي المستمدة من الخبرة والتجربة والتوارث واعتمدت على الاعشاب والمواد الطبيعية الاخرى المنتشرة في بيئتهم.

٢. المعلومات العلمية وهي المستمدة من خبرة وعلوم ومعارف الامم المجاورة لهم مثل الفرس والروم وذلك نتيجة لاختلاط بعض العرب بهم عن طريق الرحلات التجارية والعلمية ورغبتهم في الاطلاع على بعض معارف هذه الامم. ومن أشهر الاطباء العرب قبل الاسلام الحرث بن كلدة وابنه النضر اللذين رحلا الى فارس وتعلما بها الطب.

٣. العرافة والكهانة: حيث اعتمد عليها العرب فيما يتعلق بالامراض المستعصية التي لا ظواهر حسية لها فيما يعرف بمس الجن لذلك لجأوا الى الغيبيات لمحاولة حل هذه المعضلات الطبية من خلال العرافين والكهنة الذين كانوا يعتقدون بقدرتهم على التواصل مع عالم الجن واشهر العرافين عراف اليمامة وعراف نجد الابلق واشهر الكهان شق وسطيح.

ولم يقف الامر لدى العرب عند المعرفة الطبية الموجهة للانسان ومحاولة حل مشاكله الطبية بل نجد لديهم اهتماماً ايضاً بالطب البيطري الذي يعالج الحيوانات وهي من أهم ممتلكاتهم في هذه البيئة الصحراوية القاسية لذلك اتجهت اهتماماتهم لمعالجة الحيوانات من جمال وخيول وماعز لمحاولة الحفاظ عليها لما لها من اهمية بالغة في حالات السلم والحرب لديهم.

العلوم الدينية

لقد تمحورت الثقافة العربية الإسلامية في بدايتها حول العلوم الدينية وهدفت الى تعليم الناس مبادىء الدين الجديد، وطريقة قراءة القرآن ثم مع تطور المجتمع وتطور حاجاته ظهرت الحاجة لتدوين الحديث النبوي الذي

انبثقت عنه العديد من العلوم، إضافة الى احتياج المجتمع الى فتاوى جديدة دائماً تعالج النوازل الجديدة الطارئة على المجتمع مما أدى الى ظهور علم الفقه وأصوله.

أ- **القرآن الكريم:**

مثل القرآن الكريم العامل الرئيسي الذي شكل الثقافة العربية الاسلامية وطورها، وتمحورت حوله الثقافة العربية بداية، وانبثقت عنه العديد من العلوم.

ولعب القرآن منذ البداية دوراً أساسياً في الثقافة العربية، فتوحيد القرآن الكريم على قراءة واحدة في عهد عثمان بن عفان، وَحَّد اللغة العربية من حيث ظهور لغة موحدة للجميع، وحال التوحيد دون تحول اللغة العربية بلهجاتها المتعددة الى لغات قطرية اقليمية، وساهم في توحيد الحركة الثقافية لأن توحيد القرآن اعتبر المعركة النهائية لتوحيد اللغة العربية ونبذ تعدد اللهجات فيها.

وكان من التطورات المهمة قيام أبو الأسود الدؤلي بتشكيل حروف المصحف الذي عرف بالنقط الاول للقرآن وذلك لفشو ظاهرة اللحن في القراءة خاصة من الداخلين الجدد في الإسلام فكان لا بد من ضبط حركات الحروف، وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان وولاية زياد بن أبيه على البصرة.

ثم حدث التطور الأخير عند ما قام الحجاج بنقط حروف المصحف بعد شيوع التصحيف في القراءة لمفردات القرآن، وبالتالي ما كاد القرن الهجري الاول ينقضي حتى كان المصحف موحد على قراءة واحدة،

وحروفه منقوطة ومضبوطة بالحركات.

ولما كان القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع لذا بدأ الاهتمام من قبل المسلمين بتفسير آياته وتوضيح مبهمه وحلّ مشكلات متشابهه وتبيين ناسخه من منسوخه، مترافقاً مع ضبط قراءته، لذلك بدأ التوجه نحو دراسة الفاظ القرآن وتفسيرها منذ فترة مبكرة، واشتهر في الفترة المبكرة عبدالله بن عباس في هذا المجال، وتابعه من بعده تلاميذه الذين انتشروا في اقطار العالم الاسلامي يبثون علومه فيما يتعلق بتفسير معاني كتاب الله التي اعتمد فيها على الشعر العربي (الجاهلي) والآيات القرآنية بشكل رئيس.

ولم يقتصر نشاط التفسير على ابن عباس بل شارك فيه العديد من الصحابة مثل علي بن ابي طالب وابن عمر ثم حمله عنهم عدد كبير من التابعين، واستقرت له مدارس قائمة على التفسير بالمأثور المعتمد على أقوال الرسول ﷺ واراء الصحابة والتابعين، والتفسير بالرأي القائم على إعمال العقل في تفسير الآيات واستنباط الاحكام الشرعية منها.

ولعل من أهم كتب التفسير هي:

- كتاب التفسير للامام الطبري.
- كتاب التفسير لابن كثير.
- كتاب الفائق للزمخشري.

وانبثق عن القرآن علوم سوى التفسير من مثل علم القراءات الذي اعتنى بحفظ وجوه القراءات المختلفة للقرآن والتي لا تعدو أن تكون تنوعاً في الأداء من حيث الاماله أو الترقيق لبعض الحروف أو التفخيم أو ضبط

المضارع الرباعي مثل (تُنْزِل) أو (تُنَزِّل) تخفيفاً أو تشديداً أو تغاير لفظين والمعنى واحد وهي جميعاً لا تؤدي الى نقض معنى أو تغيير حكم وكلها مسندة اسناداً صحيحاً الى رسول الله ﷺ وهي التي سميت بالحروف السبعة (ابن زنجلة، حجة القراءات: ٨).

ومن أبرز المصنفات في علم القراءات.

- النشر في القراءات العشر للجزري.
- حجة القراءات لابن زنجلة.

وانبثق عنه ايضاً علم الناسخ والمنسوخ ومشكل القرآن واسباب التنزيل وغيرها العديد من العلوم بحيث كان القرآن مدار كل العلوم وكان واسطة العقد للعلوم الاسلامية وللحركة الثقافية ومعظم العلوم ظهرت بهدف خدمته بصورة أو أخرى.

٢- السنة:

السنة في اللغة تعني الطريقة سواء كانت محمودة أو مذمومة. أما في الاصطلاح فهي: ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية أو خُلقية أو سيرة سواء كان قبل البعثة أو بعدها (السباعي: السنة ٤٧).

ومن المعلوم أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع في الاسلام - بعد القرآن الكريم-، ومن هنا جاء الاهتمام الكبير بها، وبمحاولة جمعها وتحرى صحة نقلها خاصة بعد انتشار الوضع في السنة النبوية.

يعود الاهتمام بتدوين السنة الى عصر الرسول ﷺ نفسه فقد كتب بعض الصحابة خُطَبه، وكان بعض الصحابة يدونون الأحاديث مثل الصحيفة

الصادقة التي كانت لعبد الله بن عمرو بن العاص يدون فيها أحاديث الرسول إلاّ أن السنة بقيت دون تدوين كامل وذلك لأسباب منها :

١- الخوف من اختلاط بعض اقوال الرسول ﷺ بالقرآن سهواً من غير عمد .

٢- صعوبة تدوين أقوال الرسول ﷺ بسبب كثرتها وتعدد أغراضها .

لقد بدأ الاهتمام الرسمي بتدوين الاحاديث في زمن عمر بن عبد العزيز الذي امر بجمع بعض الاحاديث ونشرها في امصار العالم الاسلامي انذاك رغبة منه في نشر الاحاديث الصحيحة أمام شيوع العديد من الأحاديث الباطلة والموضوعة .

إلاّ أن التدوين الكبير للسنة بدأ مع العقد الثاني من القرن الثاني الهجري حيث بدأت دواوين السنة الكبرى بالظهور من مثل :

١- الموطأ للإمام مالك .

٢- المصنف للصنعاني .

٣- المسند للإمام احمد بن حنبل .

٤- الصحيح للبخاري .

٥- الصحيح لمسلم .

واراد فيها جامعوها حصر الاحاديث النبوية ومحاولة جمعها في كتاب او كتب إلاّ أن بعضهم أخرج الصحيح والضعيف في حين اكتفى البعض الآخر باخراج ما صح عنده منها مثل البخاري .

هذا ولاتعني عملية الجمع أنه لم تقم عملية نقد وتمحيص شديدة

للأحاديث وهي عملية بدأت من مرحلة مبكرة حيث مرت عملية نقد الحديث بخمسة مراحل:

المرحلة الأولى: نقد المتون وهي مرحلة الصحابة والتابعين، فكان الصحابة يردون على بعضهم عند سماعهم لمتون الاحاديث مثل رد عمر على عائشة ورد عائشة على أبي هريرة.

المرحلة الثانية: مرحلة التبويب والتنظيم وهي مرحلة جمع احاديث كل محدث والحكم عليه من خلال دراستها وهذا واضح من خلال احكام ابن المديني ويحيى بن معين وابن حنبل وغيرهم.

المرحلة الثالثة: الجمع بين اقوال المتقدمين في الرواة وبين جمع حديث الراوي وفحصه واصدار الحكم عليه كما فعل ابن عدي في الكامل في الضعفاء والدار قطني وغيرهم.

المرحلة الرابعة: التأكيد على نقد السند استناداً الى اقوال العلماء من ائمة الجرح والتعديل والموازنة بينها ووضع القواعد الخاصة بهذ الأمر.

المرحلة الخامسة: مرحلة تعتمد على اقوال المتأخرين في نقد الرجال وخاصة اعتماداً على احكام ابن حجر في كتابه تقريب التهذيب [انظر بشار معروف تحرير تقريب التهذيب: ١/١٨-٢٥].

وتفرع عن السنة علوم عديدة منها: تفسير الفاظ الحديث ومشكل الحديث، وعلل الحديث، وعلم الجرح والتعديل، والناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم الاخرى.

٣- الفقه:

لما كان الإسلام دين شامل للدنيا والآخرة كان لا بد من وجود فتاوى جديدة تتكيف مع ظروف الامة في كل عصر من عصورها، ولما كان الرسول ﷺ على قيد الحياة كانت اوامره المتلقاة من الله تشريعاً للأمة ولكن بعد وفاته، واتساع الدولة الاسلامية كان لا بد من ظهور علماء يقومون بالافتاء حسب مقتضيات وظروف كل منطقة من مناطق المسلمين.

ولما كانت النصوص الواردة في القرآن متشابهة في بعض الاحيان اضافة الى اختلاف العلماء حول صحة الاحاديث مما فرض ظهور مذاهب فقهية مختلفة تجاري التطورات الجديدة وعقليات سكان الامصار الاسلامية المختلفة.

والفقه في اللغة: الفهم وقيل العلم، أما اصطلاحاً فهو: فهم الكلام بطريق النظر او العلم بالاحكام الشرعية بطريق النظر والاستنباط.

أما أصوله التي يبنى عليها فهي:

١- الكتاب ٢- السنة ٣- القياس ٤- قول الصحابة على خلاف المذاهب في ذلك ٥- الاجتهاد.

ونتيجة للتباين ظهرت في الاسلام ثلاث مدارس فقهية سادت العالم الاسلامي هي:

١- **مدرسة اهل الاثر:** وهي مدرسة المدينة المنورة بزعامة مالك بن انس وهي قائمة على الاخذ بالاحاديث واثار الصحابة وعمل اهل المدينة والتقليل قدر الامكان من الافتاء بالرأي وتابعه على ذلك الامام احمد

بن حنبل وإن كان أكثر تشدداً من مالك في الالتزام بالأثر وعدم الاعتماد على الرأي.

٢- **مدرسة اهل الراي:** هي مدرسة اهل العراق بزعامة ابو حنيفة وتلاميذه من مثل محمد بن الحسن وابو يوسف وغيرهم وهؤلاء يعتمدون على الاجتهاد العقلي والرأي كثيراً في الافتاء.

٣- **المدرسة التوفيقية:** وهي مدرسة الإمام الشافعي القائمة على التقريب بين اهل الحديث واهل الرأي مع انحياز جزئي لمدرسة اهل الاثر، ولهذا اتسع انتشار هذه المدرسة بين المسلمين السنة اليوم.

وقد دون اصحاب تلك المدارس العديد من المصنفات في نصرة مذاهبهم منها موطأ مالك والمدونة لسحنون على المذهب المالكي، وأصول السرخسي للمذهب الحنفي، وكتاب الأم والرسالة للشافعي، وكذلك الكافي لابن قدامه المقدسي للفقه الحنبلي وغيرها.

أما موسوعات الفقه الكبرى التي ضمت اراء كل المدارس الفقهية فهي كتاب المغني في الفقه لابن قدامه المقدسي وكتاب المحلى لابن حزم.

علوم العربية:

جاء الاسلام وأهم العلوم عند العرب هو علم اللغة فهي التي برعوا بها وتحداهم الله بها في القرآن لذلك كان تطورها طبيعي في الإسلام، وجاء الاهتمام بها من قبيل الاهتمام بالقرآن والدين ولعل علوم العربية في الإسلام تمحورت حول مدرستين هما مدرسة اهل البصرة ومدرسة اهل الكوفة.

وكانت المدرسة البصرية أقدم في الظهور فهي تدين بظهورها لأبي الأسود الدؤلي ولعل أهم ما يميز الخلاف بين المدرستين هو أن المدرسة البصرية كانت ترى أن أهم غرض هو وضع قواعد للغة تلتزمها وتريد أن تسير عليها في دقة وحزم وارادت استبعاد الشواذ فإذا ثبت صحة الشاذ حفظوه ولم يقيسوا عليه أما الكوفيون فرأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة بل يجعلون هذا الشذوذ اساساً لوضع قاعدة عامة [الاسد، مصادر الشعر الجاهلي: ٤٣٤-٤٣٣]. وكذلك كان اهل البصرة اكثر تأثراً بالفلاسفة مما اصبغ عليهم صفة مدرسة المنطق لتأثرهم الكبير بالمناطقة.

ولعل التقعيد للغة والنحو بدأ مع دخول غير العرب الى الدين الاسلامي ومحاولتهم فهم العربية لفهم الدين مما دفع الدؤلي لوضع قواعد عامة مستقاة من الامام علي لتكون قواعد للغة العربية ونحوها وبدأ بعدها محاولات العلماء ضبط مفردات اللغة وتقعيد قواعد عامة لنحوها. ولعل من أبرز علماء العربية:

١- سيبويه صاحب المصنف المشهور الكتاب.

٢- الكسائي.

٣- أبو عمرو بن العلاء.

٤- الخليل بن احمد الفراهيدي.

علم التاريخ:

اهتمام العرب بالتاريخ لم يظهر بظهور الاسلام بل كان اهتمام العرب به قبل الاسلام، فالعرب في الجاهلية اهتموا بتناقل اخبار قبائلهم ووقائعها وايامهم وانسابهم، وبمجيء الاسلام تمحور اهتمام علم التاريخ حول الدين الجديد وحركة تطور هذا الدين.

فأهتم المسلمون بالاشارات القرآنية حول الامم السابقة فحاولوا تفسيرها للاطلاع على المزيد من اخبار تلك الامم هذا من جهة، ومن جهة أخرى تركز اهتمام العرب بمعرفة اخبار الرسول ﷺوأقواله ومغازيه وتدوين تجارب الأمة والاستفادة من خبراتها، والتأريخ لرجالاتها وايامهم ومآثرهم في الاسلام.

ونشأ علم التاريخ عند العرب المسلمين بظهور مدرستي المغازي والسير في المدينة المنورة ومدرسة الاخباريين في العراق، فركزت الاولى على تدوين اخبار الرسول ﷺوحروبه وسيرة حياته، مع اظهار دور الصحابة حسب مواقفهم فيها، فهي بالتالي تمجد اسلافها من الاباء والاجداد او تبين دورهم في تأسيس دولة الاسلام، ومن ابرزهم ابان بن عثمان، والزهري، وعروة بن الزبير وابن اسحاق، وهؤلاء اتبعوا في تدوين التأريخ طرائق المحدثين من حيث اهتمامهم بالاسناد وتشددهم فيه.

في حين ركزت مدرسة الاخباريين على رصد مسيرة الامة وبيان دور القبائل فيها خاصة في الفتوحات الاسلامية خارج الجزيرة العربية، وظهر اهتمام هذه المدرسة بالتاريخ للامصار الاسلامية وتوسعها بعد وفاة الرسول ﷺومن أبرز الاخباريين ابو مخنف وعوانة بن الحكم وسيف بن عمر

والمدائني، واتبع هؤلاء اسلوباً متساهلاً في الاسناد، وظهر لديهم ما يعرف بالاسناد الجمعي.

ومع تطور المجتمع الاسلامي، التقت هاتان المدرستان لتشكلا تياراً واحداً هو تيار المؤرخين الكبار من امثال البلاذري والطبري، والمسعودي، واليعقوبي وغيرهم الذين جمعوا في تدوينهم للتاريخ طرائق المحدثين والاخباريين.

وكان الهدف من الكتابة التاريخية تدوين تجربة الامة ورصد حركتها وتطورها، مع التركيز على دور الاشراف فيها، والتأكيد على وحدة الرسالات وان الاسلام هو خاتم هذه الرسالات.

وتعددت الكتابة التاريخية لدى العرب المسلمين، فكتبوا كتباً في المغازي والسير وكتب الطبقات، والتراجم، وكتب تاريخ البلدان، والتاريخ العام والانساب ومن أهم كتب التاريخ:

مغازي الواقدي، طبقات ابن سعد، ووفيات الاعيان لابن خلكان، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ الرسل والملوك للطبري، وتاريخ الاشراف للبلاذري

علوم الأوائل والترجمة

الترجمة:

عرف العرب قبل الإسلام شيئاً من الترجمة، حيث أنهم عرفوا أشياء من التوراة والإنجيل باللغة العربية فتذكر المصادر أن ورقة بن نوفل كان يتقن

السريانية، وترجم العديد من الاسفار التوراتية والاصحاحات الانجيلية الى اللغة العربية، وذكرت ايضاً وجود ما سُمي بصحيفة لقمان وكذلك رؤيا دانيال، كما أن وفود العرب على الأكاسرة والتجارة بين فارس والعراق والشام ومصر والحبشة، وذهاب امرؤ القيس إلى القسطنطينية تدل على وجود نقل شفوي على الأقل ومعرفة بلغات هذه الامم.

وتلقى العديد من العرب علومهم الطبية في المدارس التي كانت معروف آنذاك منها مدرسة جند يسابور (فارس) والتي تلقى الحرث بن كلدة وابنه النضر تعليمهما فيها. وكانت هذه المدرسة تضم إضافة إلى العرب، الفرس والسريان والروم والهنود، وبطبيعة الحال لم تكن اللغة العربية لغة التعليم في هذه المدرسة.

تعددت الأسباب التي دعت العرب إلى الترجمة منها:

١- رعاية الخلفاء للترجمة والمترجمين، حيث كان الخلفاء يدفعون للمترجم ثقل الكتاب المترجم ذهباً.

٢- الامتثال لتعاليم القرآن الكريم في طلب العلم والمعرفة.

٣- توسع الدولة الإسلامية وبروز حاجتهم إلى علوم ليست عندهم مما كانوا يحتاجون إليه مثل الطب، وفي معرفة الحساب والتوقيت لضبط أوقات الصلوات، وتعيين بدء أشهر الصوم، والحج، وأول السنة، وغيرها.

٤- احتكاك العرب بغيرهم من الأمم مما مكنهم من الاطلاع على ثقافات جديدة فأحبوا توسيع آفاقهم الفكرية بهذه الثقافات.

٥- العلم من توابع الحضارة فحينما تزدهر البلاد سياسياً واقتصادياً ويكثر فيها الترف تتجه النفوس إلى الحياة الفكرية والتوسع في طلب العلم.

٦- رغبة الشعوب المغلوبة في اظهار علومها.

وتذكر المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية (ت٨٥هـ/ ٧٠٤م) لما يئس من الظفر بالخلافة عكف على دراسة علم الصنعة (الكيمياء) لاعتقاده بامكانية تحويل المعادن الرديئة الى معادن ثمينة، فنقل له راهب اسمه مريانوس بعض كتب المنطق والصنعة وغيرها، فكان ذلك أول ترجمة في الحضارة الإسلامية. إلاّ أن حركة الترجمة في العصر الأموي كانت ضئيلة ومحدودة، وتعتمد على الجهود الخاصة والرغبة الفردية. وذلك لانشغال الدولة بترسيخ سلطاتها على الأراضي التابعة لها وانشغالها بالفتوح الجديدة.

وقد شهد العصر العباسي انتعاشاً في حركة الترجمة، وتم أول نقل في الدولة العباسية على يد عبد اللّه بن المقفع -قتل سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م- حيث نقل عدداً من الكتب من الفارسية إلى اللغة العربية، ووضع كتاب كليلة ودمنة بالاستناد إلى قصص فارسية وهندية.

ومنذ أيام أبي جعفر المنصور أصبح النقل يتم تحت رعاية الدولة، وعلى ذلك سار هارون الرشيد وولده المأمون، الذي اتسع النقل في عهده كثيراً، وأنشأ مكتبة بيت الحكمة، ووقف عليها الأموال لمن يريد الانقطاع إلى نقل الكتب إلى اللغة العربية.

وكانت الترجمة تتم بطريقتين:

الأولى: الطريقة اللفظية: وهي الترجمة الحرفية للنص حيث يوضع مقابل كل كلمة ما يرادفها من اللغة العربية. وتنسب هذه الطريقة ليوحنا بن البطريق، وعبد المسيح ابن الناعمة الحمصي.

الثانية: الطريقة المعنوية: وهي التعبير عن الجملة بجملة تطابقها في المعنى سواء استوت الجملتان في عدد الكلمات أم اختلفتا وتنسب هذه الطريقة إلى حنين ابن اسحاق.

وتعد الطريقة الأولى رديئة جداً لأن عدداً كبيراً من الكلمات في كل لغة ليس لها مرادف في لغة أخرى، ثم إن المجاز والتشبيه والطرائق البلاغية لا يمكن نقلها من لغة إلى أخرى بالطريقة اللفظية.

ولعل من أهم الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية كتاب (سندهانتا) لمؤلفه براهما جوبتا، حيث قدم إلى بلاط الخليفة المنصور الفلكي الهندي كانكا ومعه هذا الكتاب فأمر الخليفة المنصور بترجمته إلى العربية، وعرف بالعربية بعد ترجمته بالسند هند وهذا الكتاب عبارة عن رسائل هندية في علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ ق.م. وكذلك ترجم العرب كتاب اقليدس في الهندسة. وكان كتاب (عرض مفتاح النجوم) المنسوب إلى هرمس الحكيم أول كتاب في الفلك ترجم من اليونانية إلى العربية والموضوع على تحاويل سني العالم وما فيها من الأحكام النجومية، وكان ذلك قبل انقراض الدولة الأموية في دمشق بسبع سنين.

ولعل من أبرز المترجمين:

أ- آل بختيشوع: وهم بختيشوع بن جورجيس، وجبرائيل بن بختيشوع، وبختيشوع بن جبرائيل، وبرع هؤلاء في ترجمة كتب الطب.

ب- يوحنا بن ماسويه.

جـ- يوحنا بن البطريق: وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب.

د- قسطا بن لوقا: وقد برع في الطب والفلسفة والهندسة، وكان فصيحاً باللغة اليونانية، وجيد العبارة بالعربية.

هـ- آل حنين: وهم حنين بن اسحاق، وابنه اسحاق، وابن اخته حبيش بن الأعسم.

وبدأت حركة الترجمة عند العرب بكتب العلم العملية لا بكتب الفلسفة النظرية، حيث بداؤا بنقل كتب الرياضيات والفلك والطب. وذلك لحاجتهم الماسة اليها في حياتهم اليومية.

أما المراكز الثقافية التي أثرت في الحضارة العربية فهي:

أ- الحيرة: واشتهرت بالطب والفلسفة.

ب- حران: واشتهرت بالفلك والرياضيات والفلسفة، ومرجع اهتمام أهلها بالفلك والرياضيات لأنهم صابئة يعبدون النجوم والكواكب السيارة ويهتمون بمواقعها وحركاتها وضبط أزمانها.

جـ- الرها ونصيبين: واشتهرتا بالعلوم اللاهوتية الدينية والفلسفة والموسيقى.

د- جند يسابور: واشتهرت بالطب والتشريع.

وبالرغم مما اعترض حركة الترجمة من عوائق مثل عجز بعض المترجمين عن الإلمام بموضوع الترجمة، فإن هذه الحركة خلفت العديد من

النتائج الحسنة، من أهمها ما يلي:

١- اتساع الثقافة العربية بما دخل عليها من ثقافات الأمم الأخرى ومناحي تفكيرها.

٢- اطلاع العرب على علوم كانوا بأمس الحاجة إليها كالطب والرياضيات.

٣- اثراء اللغة العربية بالمصطلحات العلمية والتعابير الفلسفية مما يدل على قدرتها في مجاراة الحركة العلمية، كما جارت الحركات الأدبية والدينية والاجتماعية.

٤- ازدهار مهنة الوراقة والوراقين في بغداد، حيث كان يتم نسخ الكتب المترجمة لمن يرغب في اقتنائها أو بيعها.

٥- تطور الأدب العربي بما دخل عليه من تعابير وأفكار وخصائص ومعاني جديدة، بالإضافة إلى تسرب عدد من المجازات الشعرية والأدبية والاستفادة من المقايسس والمدارك الأجنبية في معالجة عدد من العلوم الشرعية واللغوية.

٦- وفرت حركة الترجمة مادة حضارية اتاحت لعلماء العصرين الوسيط والحديث استكمال وابداع ما قدموا للعالم من اختراعات وتطويرات علمية في شتى الميادين.

علم الهيئة (الفلك)

هو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة، ويستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع الأفلاك التي لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية، وهي لا تعطى صورة السماوات

وترتيب الافلاك والكواكب بالحقيقة، بل تبيّن أن هذه الصور والهيئات للأفلاك لزمت عن هذه الحركات.

بدأ اهتمام العرب المسلمون بعلم الفلك منذ فترة مبكرة جداً لأهميته الكبيرة فيما يتعلق بعبادات المسلمين من حيث سمت القبلة، وبداية الشهور وغيرها والصيام والحج والاعياد بالاضافة للاهتداء بالنجوم في تحديد الاتجاهات والطرق. وكانت كتب الفلك من أوائل ما ترجم من كتب الأمم السابقة الى العربية، فقد ترجم في عصر بني أمية كتاب عرض مفتاح النجوم المنسوب للحكيم اليوناني هرمس، والذي يحتوي على تحاويل سني العالم وما فيها من الأحكام النجومية، وتوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الأمبروزيانا بميلانو.

وكذلك احتوت مكتبة القاهرة في عهد الفاطميين على كرة سماوية نحاسية من عمل الفيلسوف اليوناني بطليموس مكتوب عليها «عملت هذه الكرة من الأمير خالد ين يزيد بن معاوية».

وازداد الاهتمام بالفلك في عصر بني العباس بسبب شغف وولع خلفائهم وخاصة أبي جعفر المنصور به، فقد نقل أبو يحيى البطريق كتاب الأربع مقالات لبطليموس في صناعة النجوم.

وطور العرب المسلمون علم الفلك، وزادوا على ما جاءت به الأمم السابقة في هذا العلم، وصححوا الأخطاء العلمية التي وقع بها علماء تلك الأمم، ولم يقتصر المسلمون على الدراسة النظرية فقط، بل قاموا بالأرصاد والأعمال ذات العلاقة بالناحية العملية. وهذه كانت ابرز ميزات الحضارةالعربية من حيث ادخال التجربة والتطبيق العملي لجميع العلوم.

ومن انجازات العرب في الفلك رصدهم للكواكب السيارة والنجوم الثابتة، وتعيينهم مواقعها وأفلاكها في القبة الزرقاء، ورسمهم لها الخرائط الخاصة بها، ومنحوها أسمائها التي ما زالت تعرف به حتى اليوم.

وعرف العرب أن للنجوم أبعاداً واحجاماً مختلفة، وقد درس العالم ابن الهيثم البعد بين كوكبين، وذلك بتأثير الانعطاف في طبقة نجار أو ما يجري مجرى النجار ويذكر أن العالم المسلم ابن يونس الصدفي (ت٣٩٩هـ) تمكن من قياس دائرة البروج في دمشق، فوجدها ٣٥-٢٣° فأخطأ في دقيقة واحدة فقط.

واكتشف العرب ما حير بطليموس، وهو أن الشمس هي مركز النظام الشمسي وأن الأرصاد تدور حول الأرض، التي تدور بدورها حول نفسها، وظهرت هذه النظرية في تصميم أبي سعيد أحمد بن محمد السجزي لاسطرلاب سماه الزورقي والذي بني على أساس أن الأرض متحركة وأن الفلك بجميع ما فيه سوى الكواكب السبعة ثابت.

واهتم العرب ببناء المراصد الفلكية، فأنشأ المأمون داراً للرصد في الشماسية ببغداد واتخذ منها معهداً علمياً فلكياً، ووهب لها الأموال الوفيرة، ووفر لها مجموعة من العلماء ليقوموا على البحث العلمي بهما، وكذلك أنشأ مرصداً آخر في دمشق، ثم بدأ العلماء الفلكيين أنفسهم في انشاء مراصد خاصة بهم، فأنشأ أبناء موسى بن شاكر مرصداً في بغداد على طرف الجسر المتصل بباب الطاق، واستطاعوا من خلاله استخراج حساب العرض الأكبر من عروض القمر، وكذلك أنشأ أبن الأعلم مرصداً خاصاً به.

وأنشأ أبناء موسى بن شاكر مرصداً جديداً في سامراء، وأقاموا فيه آلة ذات شكل كروي دائري تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات في وسطها، وتديرها قوة مائية، وكان كلما غاب نجم في قبة السماء، اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة. واذا ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأفقي من الآلة.

أما فيما يتعلق بالآت الرصد، فقد تعددت وتنوعت إلاّ أن اهمها:

١- **الإسطرلاب:** أهم الآت الرصد على الاطلاق، وتطلق على ثلاثة أنواع، ويتركب الإسطرلاب من قرص معدني مقسم إلى درجات، ويدور على هذا القرص عداد ذو ثقبين في طرفه، ويعلق الإسطرلاب تعليقاً عمودياً ثم يوجه العداد نحو الشمس فمتى مرت أشعة الشمس من الثقبين قرىء ارتفاع الكواكب من الحد الذي وقف العداد عليه.

وللإسطرلاب إستعمالات متعددة، لعل أهمها: استخراج البرج الذي تكون الشمس فيه، وعدد الدرجات التي قطعتها منه، وقياس ارتفاع الشمس والكواكب، ومعرفة أوقات الصلوات، ومغيب الشفق، ومعرفة الطول والعرض، والمشارق والمغارب.

٢- **المزاول الشمسية:** الآت تعطي الوقت اثناء النهار بواسطة ظل الشمس.

٣- **طَبَق المناطق:** وهي الآت تعين مواقع الكواكب في القبة السماوية، وهي اختراع أندلسي خالص، ظهرت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وادخلت إلى أوروبا في فترة مبكرة وكان لها تأثيراً كبيراً، فصنفت حولها العديد من الرسائل تنتمي إلى القرن الثالث عشر الميلادي.

هذا، وقد أثر العرب في علم الفلك على أوروبا كثيراً، فإن أول كتاب عن الإسطرلاب ظهر في أوروبا في آواخر القرن العاشر للميلاد لمصنفه المنسوب إليه جربرت الذي أصبح فيما بعد البابا سيلوستر الثاني، وقد أكد جربرت على الأصول العربية لكتابه، ففي رسالة ارسلها إلى المترجم ليبتوس يقول فيها: «إنني سمعت أنك ترجمت كتاباً عربياً في الإسطرلاب، أرجوك أن ترسل الترجمة إلي، وانني مستعد أن أكافئك بأي شكل كان» وعربية الكتاب واضحة من خلال المصطلحات الفلكية التي بقيت فيه بنصها العربي لفشله في ترجمتها إلى اللاتينية لعدم وجود بدائل لغوية في اللغة اللاتينية لتلك المصطلحات.

وبدأت العلوم الفلكية العربية تدخل إلى أوروبا بشكل ضخم في القرن الثاني عشر للميلاد حيث ترجم فيه كتاب البتاني الضخم في الفلك (الزيج) وهو الذي عُرف في أروربا باسم البتاغنيوس، ووصفه العالم الفرنسي المشهور "لالاند" بأنه واحد من عشرين رياضياً ظهروا في العالمين القديم والحديث، وقال عنه العالم الانكليزي "هالي": «إنه علامة عصره، عجيب التدقيق، ومجرب في الرصد».

ويبقى أهم انجازات العرب في علم الفلك أنهم حولوه إلى علم رياضي مستند على أعمال الرصد، وعلى الأصول الحسابية والهندسية لتعليل الظواهر الفلكية والكونية، وقاموا بامتحان الأرصاد السابقة لهم مما أدى إلى توصلهم إلى نتائج جديدة تختلف عن نتائج من سبقوهم من الأمم، وطهروا علم الفلك من السحر والتنجيم والخرافات.

الطب:

لم يختلف الطب في صدر الإسلام عما كان عليه في الجاهلية. وقد عاش الحرث بن كلدة الطبيب، وابنه النضر، ورفيدة وأم عطية إلى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم. وكذلك ظهر في عهده صلى الله عليه وسلم الطبيب رفاعة بن يثرى أبو رمثة التميمي.

وظهر في صدر الإسلام إضافة إلى علوم الطب العربية القديمة، نوع جديد وهو الطب النبوي، وهو عبارة عن مجموعة من الأحاديث النبوية التي بلغ عددها ثلاثمائة حديث، جمعها أكثر من مصنف من مثل أبي نعيم الأصبهاني، وابن قيم الجوزية، وهي تضم قواعد عامة للصحة وطرق معالجة ووقاية الانسان من بعض الأمراض.

ورغم طغيان الإهتمام بالعلوم الشرعية في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، ونبذهم لجميع العلوم في سبيل ضبط العلوم الشرعية إلاّ أنهم اهتموا بالطب ومارسوه، فقد قال صاعد الأندلسي «إن العرب في صدر الإسلام لم تعن بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها، ولما كان عندهم من الأثر النبوي».

ومنذ مطلع العصر الأموي بدأ التطبيب يتأثر بالإتجاه اليوناني وقد كان لمعاوية بن أبي سفيان طبيبان نصرانيان من أهل دمشق ابن أثال وكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، ومعرفة السموم والترياقات. وأبي الحكم الدمشقي وكان بارعاً في التطبيب.

ومن الأطباء في العصر الأموي أيضاً ثياذوق الذي صنف الكناش

الذي أهداه لابنه ويحتوي على تعريف العقاقير، وكيفية جمع الأدوية المفردة وتحضيرها، وكذلك الطبيب عيسى بن حكم المعروف باسم مسيح الدمشقي وصنف كتاباً في مفردات الأدوية والأعشاب، ومقالة في فوائد أعضاء الحيوان.

أما العصر العباسي فانقسم فيه تطور الطب إلى قسمين أو مرحلتين الأولى: مرحلة الترجمة. والثانية: مرحلة التأليف والنضج والإبداع.

وتتسم المرحلة الأولى بأنها كانت تسير بصورة عادية بين الناس في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي، لأن الطب كان من الحاجات الإنسانية المباشرة والعامة، ولكن اهتمام الخلفاء العباسيين بالطب شجع عملية الترجمة، وممن اشتهر بالترجمة في هذه المرحلة: آل بختيشوع ومنهم جبرائيل بن بختيشوع (ت ٢١٤هـ) وابنه بختيشوع (٢٥٦هـ).

وكذلك تميز في هذه الفترة يحيى بن ماسويه الذي ترأس بيت الحكمة، وأسس كلية خاصة بالطب في بغداد، وصنف العديد من المصنفات الطبية منها: كتاب الكمال والتمام في الأغذية ودفع مضارها في الأدوية المسهلة واصلاحها وجواهر الطيب (طبع ١٩٣٧م).

أما المرحلة الثانية وهي مرحلة التأليف التي بلورت نظرية طبية عربية تعنى بتفسير أسباب المرض وعوامل الشفاء وهي النظرية التي اعتمدتها أوروبا حتى القرن السابع عشر وقوام هذه النظرية أن صحة جسم الإنسان إنما هي موقوفة على طبيعة الأخلاط وتجانسها مع الأرواح، وأن سبب الأمراض هو عدم التجانس بين هذه الأخلاط أو فسادها، فتصير الأمور خارجه عن الطبيعة وتحدث الأمراض.

وأخذ العرب في هذه المرحلة يهتمون بالملاحظات السريرية للمرضى (دراسة سير المرض وتطوره) وبالمجربات (اختبار الطبيب في معالجة المرضى بالأدوية المختلفة).

ونشأت مدارس للطب في العالم الإسلامي كان التدريس فيه على منهجين: نظري في المدارس الطبية، وعملي يجتمع خلاله الطلاب حول رئيس الأطباء فيراقبون عملية فحص وما يحتاجه من علاج، وإذا اجتاز الطلاب مدة الدراسة تقدموا للامتحان الذي يتم خلاله فحص كفاءتهم ثم يقسمون اليمين وينالوا إجازة لممارسة الطب. وكان ينظم الامتحانات الطبية رئيس الأطباء في بغداد.

وخضع الطب الى مايشبه نظام الاختصاص في ايامنا هذه ورغم أننا لا نستطيع التأكيد على إتخاذ التخصص في الطب نهجاً عاماً عند الأطباء العرب إلاً أننا نستطيع تأكيد ذلك في مجال الصناعة الطبية، فقد ميز العرب بين المتطبب الذي يصف الأدوية والجرائحي الذي يجري العمليات الجراحية، والكحال (طبيب العيون)، والقداح (المختص بازالة الماء الأزرق من العين) والجبائري، والفصاد (الذي يعمل على إخراج الدم من العروق)، والحجام (المختص بسحب الدم عن طريق شرط الجلد في مواضع محددة)، والكاوي.

وتطرق العرب إلى الطب النفسي، فتدبروا أمور المجانين والفالج المؤقت، وتناولوا العدوى بالبحث والإجراءات الوقائية منه، وهي التي نقلت إلى أوروبا فيم بعد بوسائل متعددة.

أما عن المستشفيات فقد بدأت في الإسلام منذ عهد الوليد بن عبدالملك

الذي بنى أول مستشفى سنة ٨٨هـ، وجعل فيه الأطباء، وكثرت المستشفيات في العصر العباسي سواء في العاصمة بغداد أو في الأقاليم وعرف العرب نوعين منها، المستشفى المحمول (المتنقل)، والمستشفى الثابت.

أما فيما يتعلق بأشهر الأطباء في العصر العباسي، فلعل أهمهم على الإطلاق أبو بكر الرازي (ت ٣١٣هـ) الذي صنف خزانة كاملة في الطب العربي الإسلامي من خلال التلخيص للمفاهيم الطبية اليونانية والهندية والسريانية المتداولة في أواخر القرن الثالث الهجري وما بعده، ثم أضاف إليها خلاصة تجاربه ومشاهداته واختباراته واكتشافاته في الموضوع بعينه، وكان في كل هذا اهتمامه شديد بتاريخ المرض والأساليب المنهجية والمشاهدات السريرية والاصطلاحات العلمية وحالة المريض مع دراسة مقارنة تمثل أمثلة عدة وحالات مرضية مشروحة مسترشداً بالتشخيص ومعرفة الأسباب والعلامات، وما يجب على الطبيب من مراعاة لمريضه لإبقاء قوته وجهده بالغذاء والدواء والراحة والعناية المناسبة.

ولعل أشهر مصنفاته: المنصوري في الطب، كتاب التشريح وعلم وظائف الأعضاء، واهم مؤلفاته وأكبرها: «الحاوي الكبير في الطب».

ومن منجزات الرازي: (١) ابتكاره لخيوط الجراحة المسماه «بالقصاب» (٢) وهو أول من عمل مراهم الزئبق، (٣) وكذلك أول من صنف كتباً خاصة في أمراض الأطفال، (٤) وأول من عرف الأصابة بالعرق المديني، (٥) واستخدم الأفيون في حالات السعال الشديدة والجافة، والإسهال الشديد، (٦) وعالج مرض السل بالحليب والسكر، (٧) وأدخل طريقة التبخير في العلاج.

ومن مشاهير الأطباء في العصر العباسي أيضاً خلف بن عباس الزهراوي (ت ٤٢٧هـ) وهو من كبار الأطباء المختصين بالجراحة، وصنف في الطب كتابه المشهور «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وهو دائرة معارف طبية كبيرة وهو ثلاثة أقسام: قسم في الطب وقسم في الصيدلة، وقسم في الجراحة.

ويمتاز كتابه التصريف بكثرة الرسوم التوضيحية للآلات الجراحية التي كان يستعملها، واستمر هذا الكتاب مدة خمسة قرون الأساس في الأمور الجراحية في أوروبا، وقد ترجم إلى اللاتينية سنة ١٤٩٧م.

أما عن منجزات الزهراوي: (١) أول من ربط الشرايين، (٢) وأول من أجرى عملية استئصال حصى المثانة في النساء عن طريق المهبل، (٣) وأول من وصف النزيف، (٤) ونجح في شق القصبة الهوائية، (٥) وعملية تفتيت الحصى في المثانة، (٦) وبحث في التهاب المفاصل، (٧) وهو أول من عقم الآت الجراحة في مادة الصفراء وقد ثبت أن هذه المادة توقف تكاثر البكتيريا.

العلوم الرياضية

الحساب

هو صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق، فالضم يكون في الأعداد بالإفراد وهو الجمع، وبالتضعيف وهو الضرب، والتفريق يكون في الأعداد إما بالأفراد مثل إزالة عدد فيه عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح، أو تفصيل عدد باجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة.

كان العرب منذ الجاهلية حتى صدر العصر العباسي يستخدمون العَدّ في أمورهم العملية من البيع والشراء وتقسيم الغنائم والإرث وقياس الأراضي والكيل والوزن وغيرها، فكانوا إذا احتاجوا تدوين عدد دونوه بالكلمات (خمسمائة وثلاثة دنانير) أو بحساب الجمل أي بالأحرف (ثج. ث: ٥٠٠، جـ: ٣)، فكان كل حرف يقابل عدداً معروفاً عند العرب، وكان مجيء الحرف الأصغر قبل الأكبر يعني أنه مضروب به مثل: ذغ: ٧٠٠٠٠٠، ذ: ٧٠٠×غ: ١٠٠٠ وهكذا.

وأخذ العرب في العصر العباسي الأرقام والصفر عن الهنود فوحدوها وهذبوها واستخدموها في تدوين الأعداد وفي المسائل الحسابية، وجعلوا الصفر دالاً على الجزء الخالي في العدد، فابتكروا بذلك المراتب (الخانات) ٤٩ ٤٠٩ ٤٠٩٠ ٤٠٠٠٩ الخ.

وانتقى العرب من الإرقام الهندية نظامين هذبوهما عرفت إحدهما بالأرقام الهندية وهي التي يستعملها أكثر البلاد العربية والإسلامية، والثانية باسم الأرقام الغبارية وسبب تسميتها بذلك لأن الهنود كانوا يأخذون غباراً ويبسطونه على لوح من الخشب أو أي سطح مستوٍ ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجونها في عملياتهم الحسابية، وقد شاع استخدام هذه الأرقام في بلاد المغرب والأندلس، وكذلك في أوروبا التي ما زالت تستخدمها حتى اليوم باسم الأرقام العربية.

ولعل أهم مزايا نظام الترقيم العربي بساطته وسهولة أرقامه وإدخاله نظام الصفر في الترقيم، وباستخدام الصفر والأرقام هان حلُّ المسائل الحسابية والتدوين للكسور العادية والعشرية وأمكن بناء المعادلات، وقد

ظهرت الأرقام والصفر مرسوماً نقطة كما نرسمه اليوم في كتب عربية صنفت منذ سنة ٢٧٤هـ قبل أن تظهر في الكتب الهندية.

وفيما يتعلق بعلماء الحساب العرب المسلمين، فاشتهر منهم عدد كبير جداً، إلاّ أننا سنقتصر على أشهرهم، وهم:

- أبو كامل شجاع الحاسب ابن أسلم من علماء القرن الثالث الهجري من أهل مصر، كان عالماً حاسباً فاضلاً، صنف العديد من المصنفات في الحساب منها: «كتاب الجمع والتفريق» «كتاب الخطأين».

- سنان بن الفتح الحراني من علماء القرن الثالث الهجري، اشتغل في العلوم الرياضية ولاسيما في الحساب والأعداد وبرع فيها، وصنف في ذلك العديد من المصنفات، منها «التخت في الحساب» وكتاب «الجمع والتفريق» وكتاب «حساب الوصايا».

- الكندي، يعقوب بن اسحاق (ت ٢٥٢هـ) وهو من كبار فلاسفة العرب له العديد من المصنفات في علوم شتى، إلاّ أن الذي يهمنا مصنفاته في الحساب ومنها: «كتاب في استعمال الحساب الهندي».

- ابن البناء المراكشي، أحمد بن محمد العدوي (ت ٧٢١هـ) ومن اعلام الحساب في القرن الثامن الهجري، وصنف فيها الكثير من المصنفات، ومنها: «تلخيص أعمال الحساب» وفيه بحوث واسعة عن الكسور، وقواعد لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها.

- ابن الهائم، احمد بن محمد (ت ٨١٥هـ) واحد من أشهر علماء الحساب في الحضارة العربية الإسلامية، من أشهر مصنفاته في

الحساب: "اللمع في الحساب" وهو في ثلاثة أبواب مسبوق بمقدمة في الأعداد والضرب والقسمة والكسور والملح الرياضية، ويتيمز الكتاب بسهولة عبارته وجودة اسلوبه وقد شرحه محمد بن أحمد سبط المارديني.

الجبر

الجبر صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك، فاصطلحوا فيما بينهم على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب أولها العدد وثانيها الشيء، وثالثها المال.

وهذا العلم من العلوم الرياضية هو علم عربي خالص مهروه بلفظ لغتهم في جميع اللغات الأخرى فهو في الانكليزية والالمانية والايطالية Algebra وبالفرنسية Algere، وارتقى العرب بهذا العلم الذي ساعد على حل الكثير من المعضلات الرياضية واستطاعوا تحويله تحويلاً تاماً حتى اعتبروا بجداره واضعية واستطاعوا ابتكار العديد من الجوانب الجبرية التي أثارت إعجاب علماء العالم، فاعتبروا حل المعادلات التكعيبية بوساطة قطوع المخروط من أعظم الأعمال التي قام بها العرب.

ومن مكتشفات العرب في الجبر ايجادهم عمليتين هندسيتين محلولتين بطريقة جبرية في كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي مما يؤيد أيضاً بأن العرب كانوا أول من استعان بالجبر على الهندسة، وباستناد هاتين المسألتين الهندسيتين في حلهما على الجبر يؤكد أن الفكرة الجبرية الأساسية موجودة لدى الخوارزمي، فأدت جهوده في هذا المجال إلى بدء مرحلة جديدة في

تاريخ الرياضيات حيث ظهرت الطريقة التحليلية.

وكذلك سبق العرب جميع دول العالم لاسيما أوروبا في استعمال الرموز في العلوم الرياضية ويتضح ذلك جلياً في مصنفات العلامة الرياضي القلصاوي الذي استخدم الحرف الأول من كلمة جذر (جـ) لعلامة الجذر √ غيرها.

واهتم العرب أيضاً بالجذور الصماء اهتماماً كبيراً، وقطعوا بها شوطاً واسعاً، فكان الخوارزمي أول من استخدم كلمة أصم للدلالة على العدد الذي ليس له جذر، وانتقل معنى هذه الكلمة إلى الغرب فاستعملوا لفظة (surd) وتعني أصم، كما أوجد العرب طرقاً جبرية جديدة لايجاد القيم التقريبية للأعداد والكميات التي من المتعذر ايجاد جذورها.

ولعل أشهر علماء الجبر عند العرب هو محمد بن موسى الخوارزمي (ت٢٣٢هـ) وهو رياضي وفلكي ومؤرخ من أهل خوارزم، ومن كبار المترجمين ولاه المأمون بيت الحكمة، له العديد من المصنفات أهمها كتاب الجبر والمقابلة وهو المصدر الذي اعتمد عليه كل من جاء بعده من علماء الرياضيات من عرب وأوروبيين، ولأهميته في شرح غير واحد من علماء الرياضيات قسم الخوارزمي الأعداد التي يحتاجها في الجبر والمقابلة إلى ثلاثة أنواع:

١- الجذر: يكون في المعادلة حداً مجهولاً (س).

٢- مال: يكون في المعادلة حداً مجهولاً (س٢).

٣- عدد مفرد: الحد المعلوم ولا ينسب إلى جذر ولا إلى مال.

ويورد الخوارزمي الطرق المستعملة لحل المعادلات، من ضرب ويبين كيفية ضرب الأشياء، والجمع والنقصان، والقسم ثم ينتقل إلى الجانب العملي وهو باب المعاملات وهو يتضمن المعاملات التي يجريها الناس فيما بينهم من بيع وشراء وصرف وإجارة ثم يتناول وحدات المساحة.

ومن أهم المؤلفات العربية كتاب "الكامل في الجبر والمقابلة" لأبي كامل شجاع بن أسلم الحاسب، وكتاب "الفخري في الجبر والمقابلة" للكرجي (ت ٤٠٧هـ) ومن المصنفات الواسعة في الجبر، "كتاب الجبر والمقابلة" لعمر الخيام وقد خطا الخيام خطوات كبيرة إلى الأمام إذ طور الطرق المتبعة في حساب المثلثات والمعادلات من الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط وهو أرقى ما وصل إليه العرب في علم الجبر.

المؤسسات التعليمية

لم تقم عملية التعليم لدى العرب المسلمين بشكل عشوائي، بل ارتبطت بأماكن محددة تتم فيها عملية تعليم الطلاب والتلاميذ، حيث يلتقي طلاب العلم باساتذتهم الشيوخ في هذه الاماكن يتلقون منهم علوم الدين والدنيا.

وان كان المسجد مكاناً ضم في جنباته جل النشاطات الاسلامية فلقد كان التعليم ابرزها إضافة الى مؤسسات اخرى ظهرت تباعاً مثل الكتاتيب والربط والمدارس ودور العلم، ولكن هذا لا ينفي وجود أماكن اخرى عديدة كانت تعج بالحركة الثقافية مثل قصور الخلفاء ومجالس الأمراء ودكاكين الوراقين ولكننا في هذه العجالة سنلقي الضوء على أبرز الأماكن.

١- المسجد:

مثل المسجد أول مؤسسة تعليمية في تاريخ الدولة العربية الإسلامية، وارتبط به التعليم ارتباطاً وثيقاً. وكما هو معروف فإن ثاني مسجد أُسس في الإسلام هو المسجد النبوي في المدينة المنورة، فهو يُعد المدرسة الأولى في الدولة العربية الإسلامية. ولعب المسجد دوراً هاماً في حياة الناس بشكل عام وفي نشر العلم والمعرفة بشكل خاص، حيث كان المتدى الوحيد والملتقى المتفق عليه في أي مصر من الأمصار الإسلامية.

ويعتبر المسجد من مظاهر الحضارة الإسلامية لاحتلاله المكانة الكبرى والأهمية الخاصة في الحياة الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية. ففيه تؤدى الصلاة، وتقدم فرائض الدين ومنه تؤخذ البيعة من ابناء الأمة للخليفة وتناقش فيه مختلف القضايا التي تواجه الدولة العربية الإسلامية في جميع الأوقات في السلم والحرب. وفي المسجد أيضاً كان الرسول ﷺ وخلفاءه الراشدين يستقبل الوفود وتعقد الأحلاف السياسية والاتفاقات وغيرها من القضايا التي تواجه الأمة.

وبقي المسجد -على وجه التقريب- إلى أواخر القرن الرابع الهجري على الأقل المدرسة التي يتلقى فيها الناس العلم والمعرفة ويلتقي فيه العلماء والأدباء فيتناقشون ويتدارسون العلم في حلقاتهم، كما يقوم الوعاظ والخطباء بوعظ الناس وارشادهم بمبادىء الدين الإسلامي.

وهكذا فالمسجد لم يكن مكاناً للدين والصلاة فحسب، وانما كان مركزاً لطلب العلم والمعرفة أيضاً. ولم يقتصر دور المسجد على حلقات العلم والمعرفة والتعلم بل أصبح مكاناً للتأليف فهناك الكثير من العلماء

والفقهاء الذين اتخذوا من المساجد أمكنة يتزودون فيها بالعلوم والمعارف. وذلك لأن معظم المساجد كان بها مكتبات عامة خصوصاً في فترات لاحقة من عمر الدولة الإسلامية.

ويمكننا القول بأن المسجد بشكل عام قام بدور كبير في تعليم الأفراد ونشر الثقافة وتنمية العلوم والمعارف المختلفة. حتى اصبحت المساجد تمثل اكاديميات ثقافية ومراكز اشعاع للعلم ساهمت في بلورة الحضارة الإسلامية.

ومن أشهر المساجد التي لعبت دوراً مهماً وحيوياً في العملية التعليمية المسجد النبوي والمسجد الحرام، والجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع المنصورفي بغداد، ومسجد البصرة، والمسجد الجامع في الكوفة، وجامع الزيتونة بالقيروان.

٢- **الكتّاب "الكتاتيب":**

يُعد الكتّاب من أقدم مؤسسات التعليم عند المسلمين وأسبقها وجوداً في العالم الإسلامي منذ العهد النبوي، وهدفها تعليم الصبيان المبادىء الاساسية للعلوم الدينية وعلوم اللغة والشعر والحساب، وكان له دوره في الحركة التعليمية والثقافية في الدولة العربية الإسلامية، ولكن انتشاره والتوسع فيه تم عندما قطع المسلمون في حركة الفتوحات والتحرير شوطاً كبيراً وبعد عملية الالتقاء والاتصال بغيرهم من الشعوب والأمم حيث نشأت الحاجة إلى وجود أعداد كبيرة ممن يعرف القراءة والكتابة للقيام بمهام الدولة والمساهمة في انشطتها المختلفة.

وفي الكتّاب كان المعلم يهتم بصفة خاصة بتحفيظ الأطفال القرآن الكريم، ويُذكر أن المعلمون بالكتاتيب لا يتقاضون أجراً ولكنهم كانوا يبتغون

من وراء ذلك مرضاة الله ولكن بعد التطور الزمني أخذ المعلمون يتلقون اجوراً عن عملهم. ولقد استمرت هذه الكتاتيب قائمة تؤدي دورها التعليمي حتى العصر الحديث عندما الغيت في الكثير من بلدان العالم الإسلامي.

٣- الربط:

الربط جمع رباط، والرباط هو المكان الذي تربط فيه الخيل للدفاع والمجاهدة، والمرابط هو المجاهد الذي يدافع عما وراءه، وتطور معنى المرابط ليصبح المجاهد لنفسه وميوله (الزاهد) وأصبح المكان الذي يقيم فيه هو الرباط.

وهذه الربط فتحت أبوابها للعلماء وطلاب العلم الذين يتنقلون في أرجاء الدولة العربية الإسلامية طلباً للعلم والمعرفة، وكان لهذه الربط اوقاف محددة يتم من خلالها الانفاق على المقيمين فيها خاصة طلبة العلم فلم يكونوا يتكلفون مؤونة الطعام والشراب.

ومن أشهر الربط:

- رباط الزوزوني (ت ٤٥١هـ).
- رباط شيخ الشيوخ.
- رباط الدركاة.
- رباط المغاربة (في مكة).
- رباط الحضارمة (في مكة).

- رباط الشرابي. وغيرها الكثير في مختلف المراكز والمدن الإسلامية.

٤- **المدارس:**

قبل البدء في الحديث عن المدارس كمؤسسة تعليمية متقدمة شهدت قيامها المراكز والمدن الإسلامية المختلفة، لا بد من القول إن المدارس بالمعنى المعروف اليوم لم تكن موجودة لا قبل الإسلام ولا بعده بقليل، ولكن يمثل عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م بداية مرحلة جديدة في الحياة العلمية وذلك عندما انشئت أول مدرسة نظامية في بغداد وسميت بالمدرسة النظامية وبذلك فقد انتقلت العملية التعليمية من الكتاتيب والمساجد إلى المدارس المنظمة. ويذكر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) في كتابه وفيات الأعيان إن الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي كان أول من أحدث المدارس في الدولة العربية الإسلاميةوهو يقصد بذلك المدارس الرسمية التي ترعاها الدولة. وقد انشئت هذه المدرسة لتدريس الفقه الشافعي وشرط الوقف فيها أن يكون المدرس فيها والواعظ ومتولي الكتب من الشافعية أصلا وفرعاً.

وقد تعددت المدارس النظامية وانتشر بناؤها فبلغت تسعاً في بغداد، والموصل والبصرة، وآمل، وطبرستان، وهراة، وبلخ، ومرو، ونيسابور، وانتقلت هذه المدارس إلى بلاد الشام على أيدي الزنكيين حيث اقام نور الدين محمود المدارس، ثم انشأ الأيوبيون المدارس في مصر وقد ذكر المقريزي ستة وعشرين مدرسة كانت قائمة في عصره أهمها المدرسة الناصرية التي بناها صلاح الدين، والمدرسة القمحية، والمدرسة الأزكشية، والمدرسة الفخرية، المدرسة السيفية، والمدرسة العاشورية وغيرها.

كما انشئت المدارس في العهد المملوكي وأهمها المدرسة الصاحبية

البهائية ويصفها المقريزي في الخطط، ج٢ بقوله: "أنها كانت من اجل مدارس الدنيا، بل انها كانت اعظم المدارس بمصر، يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها ويتباحثون في سكن بيوتها حيث كان البيت الواحد من بيوتها يسكنه اثنان أو ثلاثة من طلبة العلم". والمدرسة الصيرمية، والمدرسة المسرورية، والمدرسة القومية، والمدرسة الظاهرية، والقبة المنصورية، والمدرسة الحجازية.

وهكذا فقد تعددت المدارس وتنوعت وأصبحت نظاماً من الأنظمة الإسلامية في الدولة العربية الإسلامية على مختلف عهودها ومرحلها.

٥- دور العلم:

أصبحت دور العلم وبيوت الحكمة مراكز للأشعاع الثقافي والعلمي والنشاط والابداع الفكري في الدولة العربية الإسلامية سواء كانت في بغداد أو في القاهرة. ومما لا شك فيه إن هذه الدور والمركز قد كانت محط عناية واهتمام ورعاية الخلفاء مباشرة حيث رصدوا لها الأموال الطائلة وانفقوا عليها من مخصصاتهم وأموالهم الخاصة وتولوا الإشراف على إدارتها وتنظيمها وحرصوا على توفير المصادر والمراجع المهمة فيها.

فالخليفة العباسي هارون الرشيد انشأ دار الحكمة في بغداد وتعهدها بالمترجمين والرعاية وأصبحت سياسة الرشيد هذه بمثابة سنة للخلفاء العباسيين الذين جاءوا من بعده، فهذا المأمون يُنفق بسخاء منقطع النظير على بيت الحكمة حتى أصبح المركز الثقافي والعلمي الرئيس في الدولة العربية الإسلامية في تلك الفترة.

ويقول الدكتور عبد الحليم منتصر في كتابه "تاريخ العلم ودور العلماء

العرب" في مقدمته عن بيت الحكمة: "يعتبر بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي، بل يمكن القول أنها أول جمعية علمية أو جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس، ويلجأ إليها الطلاب فكانت بذلك مركزاً علمياً شمل العلوم المختلفة كالطب والفلسفة وغيرها".

المصادر والمراجع

١- ابن زنجلة، حجة القراءات.

٢- المقريزي، الخطط.

٣- بشار عواد معروف وآخرون، تحرير تقريب التهذيب.

٤- الاسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي.

٥- عالية شعبان، العلوم الإسلامية.

٦- خضر أحمد عطا الله، بيت الحكمة في عصر العباسيين.

٧- محمد عبد الرحمن، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب.

٨- عمر أبو النصر، الحضارة الأموية العربية في دمشق.

٩- طرفة العبيكان، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة.

١٠- منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين.

١١- اسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام،

١٢- محمد الحسيني، الحياة العلمية في الدولة الإسلامية.

١٣- فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية.

١٤- ناجي معروف، المدارس الشرابية.

١٥- عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه.

١٦- أحمد فكري، المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها.

١٧- علي الخربوطي، الحضارة العربية الإسلامية.

١٨- عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ.

١٩- السباعي، السنة ومكانتها في التشريع.

الوحدة السابعة

الحياة العمرانية والفنية

الحياة العمرانية والفنية[1]

تميزت العمارة الإسلامية بطابع خاص بها كما تميزت جميع نواحي الحياة في الحضارة العربية الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى، وان استفادت الحضارة العربية الإسلامية من سابقاتها من الحضارات غير أنها صبغتها بصبغتها بحيث أصبحت نتاج عربي إسلامي خالص، وتعددت مظاهر الحياة العمرانية والفنية الإسلامية، ولعل من أهم مظاهرها:

أولاً: المدينة الإسلامية:

المدينة في اللغة من الفعل الثلاثي مَدَنَ، فيقال: مَدَنَ بالمكان أقام به فعلٌ مُمات ومنه المدينة، وهي فَعيلة وتجمع على مدائن ومُدْن ومُدُن" وقيل أنها من دنْتُ أي مُلِّكْتُ وأن ميمها أصيلة والاّ لم يجز جمعها على مُدُن.

وذهب الفيروز أبادي وابن منظور إلى أن المدينة هي الحصن يبنى في اصطمة (وسط الشيء) الأرض وكل أرض يبنى في اصطمتها فهي المدينة والنسبة اليها مديني وجمعها مدائن ومدن".

ويرى الفقهاء -كما أورد المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم- أن المدينة هي كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله الأمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه".

هذا، وقد عرف العرب قبل الإسلام المدن في شبه جزيرتهم إلاّ أنها بقيت محدودة، وصغيرة لدرجة أنهم كانوا يطلقون عليها في كثير من الأحيان لفظة "القرية"، وجاءت شواهد كثيرة على ذلك في معرض ردهم

---

(١) اعد هذه الوحدة د. محمد محافظة.

على الرسول ﷺ أثناء البعثة معتبرين أكبر تجمعين حضريين لديهم في الحجاز (مكة، الطائف) قرى لا أكثر، وهذا كان ينطبق على المدينة المنورة (يثرب) قبل أن ينزلها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة.

وبعد الهجرة حول الرسول ﷺ يثرب إلى مدينة ودار هجرة بل أصبح لفظ المدينة اسم علم لها خاصة فإذا قيل ا لمدينة مجردة كان المقصود بها يثرب ولتحقيق هذا الأمر كان المطلوب تحشيد المسلمين فيها ولذلك دفع الرسول ﷺ الأعراب إلى نزول دار الهجرة بل اعتبر أن الهجرة اساسية لإتمام اعلان الإسلام ودخول الفرد في جماعة المسلمين.

وإذا كانت فترة الرسالة أقامت مستقراً للجماعة، ومركزاً حضرياً لها فإن فترة الراشدين أوجدت ما سُمي بالأمصار أو دور الهجرة، وهي أول المدن الإسلامية الخالصة التي بنيت في الإسلام بشكل كامل، فمثلت اهتمامات المسلمين وحاجاتهم الأساسية في بناء المدن، وقد أسس الراشدون مجموعة من المدن في المناطق المفتوحة الجديدة، وهي: البصرة، الكوفة، الفسطاط.

هذا، وقد لعبت مجموعة من الإعتبارات دوراً في اختيار مواقع الأمصار الجديدة لعل من أهمها:

أولاً: الاعتبارات العسكرية:

اتخذ العرب المشاركون في عمليات الفتح الإسلامي على جبهتي الفرس والروم مجموعة من المعسكرات كانت وظيفتها بداية مخيمات عسكرية غير ثابتة بهدف توفير محلات لإقامة المقاتلين العرب ولامداد الجيوش اثناء المعارك.

والمدقق في أماكن بناء الأمصار يجد أنها بنيت لأهداف عسكرية، وذلك ظاهر من خلال مواقعها، فمدينة البصرة والكوفة بنيتا لتقسيم الجبهة العسكرية الفارسية بينهما، حيث تولت الكوفة قيادة القسم الشمالي من بلاد فارس المتمثل بالمدائن وما جاورها وامتدادها على نفس الإتجاه. في حين تولت البصرة قيادة الجبهة العسكرية الفارسية الممثلة بالابلة والأحواز والجزء الجنوبي من فارس وسجستان، وهكذا بقيت الأمصار. ولعل هذا الأمر واضح جداً من خلال رسالة مؤسس البصرة عتبة بن غزوان إلى الخليفة عمر ابن الخطاب حيث يقول: "لابد للمسلمين من منزلٍ يشتون به إذا شتوا، ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزوهم".

ثانياً: المناخ المناسب.

لعب المناخ دوراً هاماً في اختيار مواقع المدن الإسلامية، إذ أن صحية المناخ ومماثلته لمناخ الجزيرة العربية كان واحداً من أهم المدن شروط اختيار مواقع المدن الإسلامية لهذا كانت المراكز الأساسية الأولى تبنى في مواقع على سيف البادية حيث المناخ المناسب للمقاتلة لأنهم لن يصبروا على تغير المناخ، إضافة إلى أن تعرضهم للتغييرات المناخية الحادة في أماكن سكناهم سيضعفهم من الناحية الجسدية، ويؤدي إلى انتشار الأمراض بينهم، فيصبحوا غنيمة باردة لأعدائهم، وخير مثال على ذلك ما أصاب المسلمين المهاجرين إلى المدينة المنورة من حمى أقعدت العديد منهم، وجعلتهم في حالة أقرب إلى تمني الرجوع إلى مكة بسبب ما أصابهم الأمر الذي دفع الرسول ﷺ الدعوة لهم ليصبح جو المدينة ملائماً لهم.

ولعل خير دليل تاريخي على أهمية هذا العامل في اختيار مواقع

الأمصار الإسلامية الجديدة هو ماحدث للمقاتلة العرب حين انزلهم سعد بن أبي وقاص سوق حكمة ليسكنهم فيها فأصابهم البعوض وتأذوا منه، فكتب عمر بن الخطاب إليه مرشداً أن العرب بمنزلة الإبل لايصلحها إلا مايصلح الإبل، فارتدلهم موضعاً عدناً" فقام سعد باختيار موقع مدينة الكوفة الحالي لأنها أرض انحدرت عن العلاة وارتفعت عن المباق".

ولعب المناخ دوره أيضاً من حيث توفر المراعي المناسبة لخيول المقاتلة وإبلهم بشكل رئيس، حيث أن المراعي ضرورية لقوة الخيول والإبل، ولايستطيع المقاتلة الإقامة في مواقع عسكرية (دور هجرة) ليست قريبة من المراعي لإحتياجهم لها شبه الدائم لرعي خيولهم وإبلهم، وهذا مهم جداً بالنسبة للنفير العسكري، فإن الكثير من المعارك في تلك الفترة في ضوء صعوبة الإتصالات، ووسائل الإنذار، تقوم فجأة وتفرض على الجيوش خلال ساعات أو بضعة أيام على أبعد الحدود، فإذا كانت الخيول والإبل، وهي أبرز وسائل النقل والقتال في تلك الفترة بعيدة عن المقاتلة، فكيف سيقاتلون لهذا كان يفترض في مواقع المعسكرات (المدن الجديدة) قربها من مراعي مناسبة لدواب العرب المستخدمة انذاك وكذلك توافر المحتطبات التي يقوم العرب بجمع الأخشاب منها لغايات ايقاد النيران.

ثالثاً- الماء:

كان لابد لموقع المدينة أن يتوفر فيه مجموعة من مصادر المياه سواء العيون أو الآبار أو الانهار الجارية، وذلك لغايات الاستخدام الانساني من شرب وغسل وطبخ وغيرها، والإستخدام الحيواني كمشارب للحيوانات المرافقة للمقاتلة خاصة إذا علمنا أن معظم حروب الجاهلية في الجزيرة العربية

(أيام العرب قبل الإسلام) كانت تندلع بين القبائل العربية بسبب التنافس على مصادر المياه والرغبة في احتكارها وكذلك السيطرة على المراعي المحيطة بتلك المصادر، وخير مثال عليها حرب البسوس التي اندلعت بسبب سيطرة كليب التغلبي على المراعي الأمر الذي أدى إلى حروب طاحنة تجاوزت الأربعين عاماً بين بكر وتغلب.

وتظهر أهمية وجود المراعي في مواقع الأمصار من خلال اختيار موقع مدينة الكوفة حيث وجد المقاتلة العرب فيها منطقة واسعة تدعى الظهر او خدً العذراء ينبت فيها الخُزامى والاقحوان، والشيح، والقيصوم، والشقائق فاختطوها لذلك.

وكذلك ظهرت أهميتها في اختيار موقع البصرة حيث كتب عتبة بن غزوان إلى عمر بن الخطاب محبذاً اختيار موقعها لأسباب ذكرها هي: "إني وجدت ارضاً كثيرة القصبة في طرف البر إلى الريف، ودونها مناقع ماء فيها قصباء، فرد عليه عمر موافقاً على اقتراحه "هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب".

ولهذا كان وجود مصادر مياه مهمة جداً في بناء المدينة الإسلامية وتحديد موقعها لإستخدامها في الغايات البشرية والحيوانية، وأن تكون تلك المصادر مصادر ثابتة مستمرة لامتقطعة حتى تستوعب الزيادة السكانية والإستقرار السكاني.

رابعاً- سهولة الإتصال بمركز الخلافة:

كان من شروط اختيار مواقع المدن الإسلامية في هذه الفترة سهولة اتصالها مع مركز الخلافة الإسلامية في المدينة المنورة، وأن تكون على طرق

المواصلات التي ترتبط بشبه الجزيرة العربية .

ولذلك كان عمر بن الخطاب يشترط على قادته عند تأسيس دور الهجرة أن لايكون بينها وبينه حاجزاً طبيعياً يحول دون اتصالها به وخاصة الحواجز المائية حتى يستطيع نقل الامدادات القتالية (المعدات أو الجنود) دون أي عوائق، وكذلك ليحافظ على اتصال سهل ودائم معها، وهذا ظاهر من شرط عمر على سعد بن أبي وقاص عندما أراد بناء مدينته الكوفة " ولاتجعل بيني وبينهم بحراً" .

وهذا الأمر واضح جلي من رسالة عمر إلى عمرو بن العاص لما أراد اختطاط مدينة الفسطاط ليجعلها معسكراً للمسلمين وداراً للهجرة بها، فقال له: " ولاتجعلوا بيني وبينهم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت" .

وكانوا يأخذون بعين الاعتبار أن تكون تلك المدن على أطراف البلاد المفتوحة حتى تكون مراكز للانطلاق التوسعي المقبل لاعتبارات عملية من ناحية الامكانات حيث تكون قريبة من مناطق القبائل العربية التي تشكل الاحتياط العام للجيوش الإسلامية، وكذلك حتى يسهل الإنسحابات الإستراتيجية في حالات الإنهزام، فتكون المعسكرات قريبة من الجزيرة العربية وبالتالي يسهل عليها الإنسحاب دون خوف من متابعتها من قبل قوات الاعداء التي لاتتجراء على اللحاق بهم في الصحراء العربية .

إذاً كانت الأعتبارات العسكرية وماينبثق عنها من عوامل مساعدة لها العوامل الأساسية في اختيار مواقع بناء المدن الإسلامية في عصر الراشدين والعصر الأموي، وخاصة في المدن الاساسية مثل القيروان .

وكـانت هناك أسـبـاب عـديدة لبناء تلك المدن بالإضـافـة لجـعلهـا معسكرات دائمة للجيوش الإسلامية في جبهات القتال، إضافة إلى ترسيخ الفتوحـات في مناطق العـراق وبلاد الشـام ومـصـر من خـلال ايجاد قـوى اسـلامـيـة كـافـيـة في تلك المناطق لتفـرض الوضـع الجـديد، ولتـغـيـر البنيـة الاجتماعية والديمغرافية فيها بإدخال القبائل العربية اليها.

وكـان من الأهداف أيضاً منع اختـلاط المقاتلة العربيـة ممثلة بالقبـائل العربية مع سكان البلاد المفتوحة، لهذا أقيم للمقاتلة في الأماكن التي لم يقم بها معسكرات على شكل مدن مثل بلاد الشام معسكرات خارج المدن حتى لايختلط المقاتلة بالأهلين.

أما فيما يتعلق بتخطيط المدن في هذه الفترة، فقد جاءت لتعبر عن حاجات المسلمين المطلوبة منها، فكانت بداية عبارة عن معسكرات مبنية من القـصب تفكك بمجـرد انتـهـاء الشـتـاء وبدء الغـزو والجـهـاد ثم أصـبـحت معسكرات دائمة وتحولت إلى مدن ثابتة، لهذا كان تخطيطها يبدأ من الوسط حيث يُبنى في وسط المدينة المسجد الجامع الذي يعتبر أول وحدة عمرانية تبنى فيهـا، فـمثلاً أول مـا اختطه عتبة بن غزوان في مـدينة البـصـرة - أول المدن الإسلامية المؤسسة- سنة ١٤ هـ بناء مسجدها الجامع حيث بناه بالقصب ثم أُعيد بناءه في عهد أبي موسى الاشعري باللبن والطين في سنة ١٧ هـ وسقفه بالعشب.

وأقيم بعد بناء المسجد الجامع، دار الإمـارة واقيمت أيضاً في وسط المدينة لتكون مـركـز الحكم، وهكذا تقام أهـم مؤسـسـتين في وسط المدينة، المسجد الجامع حيث يتجمع المسلمون ويقيمون شعائر صلاة الجمعة التي لم

تكن تقام إلاّ في مسجد واحد في المدينة في تلك الفترة، ودار الإمارة مركز الحكم، وقيادة العملياتً العسكَرية الجهادية التي كانت أهم أعمال المقاتلة في تلك الفترة.

وكان يترك في وسط المدينة أيضاً ساحة واسعة الهدف منها أن تكون مركزاً لتجمع الجند في حالة الدعوة للنفير العام حيث تنطلق منها العساكر أو تعسكر على أطراف المدينة.

ويبنى بعد ذلك السوق في وسط المدينة أيضاً، والذي كان بسيطاً في تلك الفترة، مكوناً من حوانيت بسيطة وصغرية، سرعان ما توسع بتوسع المدينة الإسلامية وتوجه المسلمين نحو الحياة الحضرية أكثر فأكثر.

أما خطط المدينة، فكانت تقام على أساس النظام القبلي، فقُسمت الكوفة إلى أسباع والبصرة إلى أخماس يمثل كل واحد منها قبيلة أو مجموعة من القبائل حسب مخطط أنساب القبائل العربية، فمثلاً قسمت أخماس البصرة إلى مايلي:

أ- خمس بني تميم: ويضم بدوره مجموعة من الخطط والسكك والمحلات التابعة للقبيلة.

ب- خمس أهل العالية.

جـ- خمس بكر بن وائل.

د- خمس عبد القيس.

هـ- خمس الأزد.

وكانت تمتد بين الخطط سكك تقود إلى وسط المدينة لتسهيل عمليات التنقل داخلها، ولتسهيل عمليات التعبئة والنفير حيث تمتد السكك الرئيسة وتمر عبرها شوارع صغيرة داخل خطط القبائل.

وإلى جانب كل خطة من خطط القبائل كانت توجد الجبانات (المقابر) الخاصة بكل قبيلة لغايات دفن الموتى حيث كانت كل قبيلة تدفن موتاها في مقبرة خاصة بها غير مختلطة مع غيرها من القبائل الأخرى.

هذا، وبعد انتهاء فترة الفتوحات الكبرى في العراق ومصر وبلاد الشام، بدأت الأمصار الجديدة تتوجه نحو الإستقرار الكامل والتخلي التدريجي عن السمات الحربية لها لصالح سمات سلمية جديدة، وخاصة الاقتصادية منها والإدارية.

أصبح تأسيس المدن في الفترات اللاحقة تقام بالإضافة للأهداف العسكرية لتصبح مراكز للإدارة (مدن ملوكية أو عواصم ادارية) مثل مدينة بغداد أو مدينة الزهراء في الاندلس، والزاهرة كذلك وغيرها الكثير.

وأقيمت العديد من المدن لتكون مدناً تجارية تقوم بمهام تجارية ولعل من العوامل الرئيسة لبناء مدينة بغداد حتى تشغل وظائف اقتصادية تجارية بوقوعها على نهري دجلة والفرات، وكذلك تحولت مدينة البصرة إلى مدينة تجارية كميناء تجاري للعراق والخليج العربي كله.

هذا، ونستطيع تقسيم المدن الإسلامية إلى مجموعة من الطبقات من الناحية الإدارية وفقاً لما كانت عليه في العصور الإسلامية المختلفة، وأهم هذه الطبقات، هي:

١- الأمصار:

الامصار مفردها مصر، وهو الحاجز بين الشيئين، وهي في المفهوم الإداري الإسلامي: البلاد التي يقيم بها السلطان، وتتجمع فيها الدووابن وتقلد منها الأعمال، وتضاف اليها مدن الأقاليم.

٢- القصبات:

هي جمع قَصَبَة وهي جوف القعر، وقيل: القعر نفسه، وهي اصطلاحاً: البناء الذي يكون في جوف الحصن، وهي تطلق على عواصم الأقاليم الجهوية.

٣- المدن:

سبق الإشارة إليها.

ثانياً- العمارة الإسلامية:

تُعد العمارة بمفهومها الحضاري من أكثر النشاطات الإنسانية صلة بتجسيد الواقع الحضاري للأمة، لأنها ذات علاقة جدلية معمقة بتحديد النمط الحياتي، والسلوك الإنساني من خلال تأثيرها الواضح على البيئة البشرية، وعكسها للمفاهيم المادية والمعنوية وللقيم في أي مجتمع من المجتمعات.

هذا، ولابد من الإقرار بخصوصية كل أمة من الأمم في عمارتها لابل خصوصية كل مرحلة من مراحل تاريخ الأمة نفسها عمرانياً، وذلك لإنعكاس المعتقدات الدينية والعادات والتقاليد، والمخترعات الإنسانية على

العمارة في أي مجتمع من المجتمعات المختلفة.

وقد كانت الأمم جميعها تتميز في كل شيء حتى العمارة، وحاولوا أن يجعلوا طابعها خاصاً بهم، بحيث تستطيع تمييز تأثير مجتمع بمجتمع آخر من خلال طرز العمارة وأساليبها وفنياتها، وهذا عكس الموجود اليوم في المجتمعات الإسلامية التي أصبحت تقلد العمارة الغربية في اساليب عمارتها، وفي ابتكاراتها بحيث لانستطيع تبين وجود نمط معماري إسلامي حديث بشكل واضح وصريح، بل إن أعظم مباني الأمة الإسلامية في جميع أقطارها صممت بيد غربيين، ونفذت بيد شركات معمارية غربية نقلت فنون العمارة الأوروبية وطرزها اليها، دون أن تنقل المنظومات الفكرية الأساسية التي انبثقت عنها تلك الأعمال.

هذا، وقد تعرضت العديد من المدن الإسلامية، والمعالم الأثرية الإسلامية إلى التدمير والاندثار عبر العصور المتعاقبة سواء بفعل الهجمات العسكرية للقوى الخارجية على الأمة الإسلامية كما حدث مع هجمة هولاكو ومنْ تلاه من المغول على بلاد الإسلام، او بفعل الإقتتال الإسلامي الداخلي بين القوى الإسلامية المختلفة التي لم تكن تميز بين ممتلكات الأفراد وممتلكات الأمة، فدمرت الجميع في سعيها لطمس آثار أعدائها.

ولعبت عوامل أخرى في تدمير العديد من نماذج العمارة الإسلامية، منها العوامل الطبيعية وخاصة الزلازل التي كانت تضرب بقوة وعنف شديد في العديد من المناطق الإسلامية مخلفة دماراً شديداً بآثار العمرانية.

وساهم الإهمال المتعمد أوغير المتعمد في زوال العديد من الآثار الإسلامية وخاصة في العصور السابقة، فعندما تبنى مدن جديدة كان يتم هجر القديمة على الأغلب مما يؤدي إلى إندثار معالمها مع طول المدة وقلة العناية بتلك الآثار وهو عين ما يحصل اليوم من قلة اكتراث في العديد من

الدول الإسلامية بكنوز التراث العربي الإسلامي.

وبدأت العمارة الإسلامية منذ الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة ببناء مسجد النبي ﷺ فيها، وامتازت منذ بدايتها بالبساطة وبتكيفها مع حاجات المجتمع الإسلامي دون أن تتأثر بأي من النماذج العمرانية للأمم المحيطة بها، فبدأت عربية خالصة تستخدم مواد بسيطة تعكس بساطة الإسلام، وتعكس تجارب العرب قبل الإسلام.

فهناك معلومات وافرة عن وجود عمارة عربية قبل الإسلام في المناطق الحضرية من شبه الجزيرة العربية، فقد عثر في قرية الفاو- على الطريق الموصل إلى نجران- على آثار أبنية ضخمة، وكهوف منحوتة من الصخر مزدان بالكتابات وأحدث العرب أنظمة معمارية بهم أهمها: الحيري نسبة لمدينة الحيرة العربية المشهورة بالعراق، والكمين، والأروقة.

وتذكر المصادر العربية أسماء العديد من الأبنية العمرانية لعرب قبل الإسلام أبرزها قصور المناذرة في الحيرة (الخورنق، والسدير)، ومباني الغساسنة في بلاد الشام التي مازالت أشعار حسان بن ثابت شاهدة عليها، ومؤرخة لها ما دام العرب يقرأون الشعر، وكذا مباني العرب في اليمن بمختلف أشكالها، وما بناء الكعبة عنا ببعيد.

وبدأت العمارة الإسلامية بسيطة وبمواد عادية من القصب والطين فلم يحاول الرسول ﷺ وخلفاءوه الأوائل أن يعبروا عن الإسلام تعبيراً معمارياً ذا فخامة، ولم يحددوا شعلاً معمارية خاصة للأبنية بدليل أن الكعبة المشرفة لم تقلد كنموذة من نماذج البناء عند المسلمين.

وبدأت العناية بالتأنق بالعمارة، والتوسع بالمنشآت العمارية مع وصول بني أمية إلى الحكم، فقد توافرت بشكل ضخم الأموال جراء الفتوحات والضرائب التي جبيت من البلاد المفتوحة، إضافة إلى التأثر

الشديد بالعمارة المسيحية في بلاد الشام مما دفع بالأمويين إلى تشييد مباني (خصوصاً المساجد) توازي في روعتها المباني النصرانية في بلاد الشام، واعتمد الأمويون بداية على صناع من غير لمسلمين في البناء خاصة في مجال الزخرفة، ولعل أعظم المعالم العمرانية في عصرهم بناء مجموعة من المدن أهمها: القيروان، واسط، الرملة، وبناء المساجد، وأبرزها: المسجد الأموي بدمشق، وتوسعة المسجد النبوي وبناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة، أما القصور، فكانت كثيرة متعددة أبرزها خضراء معاوية، والقصور الأموية في الصحراء الأردنية، وقصر زياد بالبصرة وغيرها الكثير.

وطوال العصور الإسلامية برزت مجموعة من المعالم العمرانية نموذجاً للعمارة الإسلامية، وأبرزها:

أ- المساجد:

بدأت المساجد الإسلامية بسيطة للغاية، ليس لها شكل محدد، ولم تكن منتشرة إذ أن جميع الأرض مساجد للمسلمين، وساعد على بساطتها نبذ الإسلام للكهنوت أو رجال الدين لهذا لم يكن هناك من داعٍ لوجود مباني خاصة لهم.

ولعل أشهر المساجد القديمة الباقية إلى الآن هو المسجد الأموي بدمشق وهو من طراز معمار يسمى "طراز البناء القائم على الأعمدة" وميزته الرئيسة تكمن في الإستخدام الجيد للفراغ من خلال استخدام نمط معماري واحد هو البلاطة، والمقصود بها: المساحة الواقعة بين دعامتين، وأُدخل عليها بعض التعديلات من مثل الصحون المزروعة بالأشجار والمآذن والمحاريب والقباب، والمقاصير الخاصة بالخلفاء والأمراء والنوافير والبوابات.

أما عن تزيين المساجد من الداخل، فتتباين بين بسيطة لازخرفة فيها وبين زخارف غنية بالفسيفساء البيزنطية، ورسُمت فيها العديد من الآيات التي تصف الجنة وكانت الرسومات عبارة عن وصف تقريبي تخيلي للجنة من قصور وأنهار وأشجار أو تكون تابعة للخطوط المعمارية مثل جامع قرطبة، وهذه الزخارف لا تؤدي وظائف محددة أو تحقق أغراضاً تخدم شؤون العقيدة إلاّ في حالات محددة، وغلبت الآيات في زخرفة المساجد.

وكان المسجد يتكون من ساحة واسعة تحيط بها أروقة أمامية وخلفية وعلى الجوانب ثم قاعة الصلاة، وكان في وسطه قبة تساعد على نقل الصوت إلى أبعد مسافة ممكنة، وتوجد فيها مجموعة من البوابات (الاموي ثلاثة بوابات رئيسة تصل إلى الساحة) وكانت دار الإمارة تلاصق المسجد يفتح بابها عند جهة المحراب.

ووجد في المساجد مجموعة من المآذن (الأموي - أربعة مآذن) وتحيط الأروقة بالساحة، وتوجد غرف على جانبي المسجد لخدم المسجد من ائمة ومؤذنين وممن يعملون بالخدمات المساعدة في المسجد.

ولتعدد عناصر العمارة في المسجد، سأفرد لكل واحد منها مكاناً خاصاً للكلام عنها بالتفصيل:

١- الفناء (الصحن):

هو الفراغ المكشوف المحدد بواسطة حوائط، وظهرت هذه الفراغات في أبنية وادي الرافدين ومصر، وظهر لأول مرة في الإسلام في مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة، وشاع استعماله في المساجد التي بنيت في جميع العصور الإسلامية ويتراوح شكل الفناء بين المربع والمستطيل، وزاد اتساعه في عصور بني أمية وبني العباس ليتسع لعدد كبير من المصلين، وليخفف من درجات حرارة الجو ودخول التيارات الهوائية الباردة.

والفناء هو قلب المبنى وهو يعبر عن القلب في الجسم الإنساني، وهو جوهر المبنى حيث تطل عليه الحجرات من جميع جهاته بالوانها وزخارفها حول الفتحات والأبواب.

٢- الأروقة:

تقام عادة في مقدمة الحجر في الطابق الأرضي والهدف من بنائها توفير مساحات مضللة تحيط بالصحن وتخفيف حرارة الشمس، وتسهيل السير والتنقل فيها، وتوفير الحماية من الأمطار شتاءاً.

٣- العقود:

عرفت العمارة الإسلامية انوعاً متعددة من العقود، وكانت العقود تحمل من قبل أعمدة من الحجر أو الرخام، وأهم أنواع العقود:

١. العقد الدائري ذو المركز الواحد.

٢. العقد المدبب وهو عبارة عن مستقيمين مائلين بزاوية معينة يتقابلان فيها ليكونات العقد، ورجلي العقد عبارة عن خطوط رأسية مستقيمة.

٤- الأعمدة:

عبارة عن بدن مربع ثم أصبح دائرياً بتأثير من جذوع النخيل إذ كان المسلون الأوائل يدعمون أعمدة المساجد بجذوع النخل ثم استخدموا الأعمدة الحجرية على شاكلتها، وهي مازالت موجودة في معظم المساجد الإسلامية.

٥- القباب:

يعد بناء أول قبة في الإسلام إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي بنى قبة الصخرة في القدس سنة ٦٩٢م، ومن أقدم القباب أيضاً قبة

الأخيضر في العصر العباسي، والقبة الخضراء في قصر المنصور وهي نصف كروية المضعلة من الداخل وهناك العديد من القباب المضلعة والكروية ونصف الكروية، والبيضوية والمخروطية والمقرنصة من الداخل والبصلية.

٦- **المآذن:**

جمع مئذنه وهي بناء يصعد فيه المؤذن ليدعوا المسلمين إلى الصلاة من خلال الآذان، وتقع داخل المسجد، وكانت المساجد في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين من دون مآذن، وظهرت بشكل واضح في عهد بني أمية ولعل أقدم المآذن هي التي شيدت في عهد معاوية في جامع البصرة، ومآذن جامع الفسطاط، ومئذنة قصر الحير الشرقي.

واختلفت المآذن في أشكالها فمنها على شكل إسطوانة تقع على قاعدة مرتفعة، ومنها مابنى على شكل مربع واليها ينتمي مآذن مساجد الشام، وبعضها على شكل حلزوني، ولعل مئذنة سامراء الملوية فريدة من نوعها في العمارة الإسلامية فهي تبعد عن الجدار الشمالي للمسجد حوالي (٢٥) متراً، وهي تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها (٣٢) متراً، وفوقها بناء حلزوني الشكل له سلم من الخارج ملتوي ويؤدي إلى قمة المئذنة التي ترتفع مقدار (٥٠) متر.

وبنيت في إيران نماذج جديدة من المآذن لعل أشهرها المثمنة والإسطوانية المزخرفة بالأشكال الهندسية المكسورة بالبلاط المزجج، وتميزت المآذن الفاطمية بأنها إسطوانية الشكل.

٧- **المحاريب:**

ابتكار معماري عربي إسلامي، ورد ذكره في القرآن الكريم، ولكن دون تحديد شكل معماري، وقد استخدم في جدار القبلة لتعيين إتجاهها،

ويبدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه سلم الذي عين مكان محراب مسجد قباء ووضعه بنفسه في مكانه، وكان بسيطاً عبارة عن تجويف، وأخذ هذا التجويف بالتطور فأخذ يزداد عمقاً.

والتجويف عبارة عن حنية ذات مسقط دائري كمحاريب الشام، والمغرب العربي، أو ذات مسقط من أضلاع متعاقدة مستطيلة حفر عليها شكل محراب، ويحاط هذا المحراب بإطار زخرفي، وآيات قرآنية.

ولعل أقدم المحاريب المسطحة، الموجودة الآن، هو الموجود في المغارة تحت الصخرة في المسجد الأقصى، أما أقدم المحاريب المجوفة، فهو المحراب الموجود في قبة الصخرة في الضلع الجنوبي من المثمن الخارجي للقبة.

ب- القصور:

إن القصور الإسلامية تعد ثاني عناصر العمارة الإسلامية البارزة ظهوراً، وكانت بداية بسيطة لاتتجاوز أن تكون دوراً للإمارة في المركز والولايات، ولم تعرف في عهد الرسول ﷺ، ولم تعرف في المدينة في عهد خلفائه الراشدين، بل ظهرت في الأمصار الجديدة التي بُني فيها إلى جانب المسجد داراً للإمارة لتدار منها شؤون المصر إلاّ أن العصر الأموي بدأ يشهد التوسع والتأنق في إنشاء القصور، وظهر مايسمى بالقصور الملكية، وانتشرت القصور في مختلف أرجاء الدولة الإسلامية سواء قصور عبد العزيز بن مروان في الفسطاط أو قصور الأمويين في بلاد الشام ولعل أشهرها خضراء معاوية والقصور الصحراوية في بادية والشام قصور العراق وخراسان.

وقد أتاحت هذه القصور لفن العمارة بالتطور الفخم خاصة فيما يتعلق بالزخرفة فإن القصور تُوسع في زخرفتها بشكل كبير من فسيفساء وتصاوير

ملونة ومنحوتات حجرية أو جصية. ومن أجل تحقيق أهداف زخرفية أو تصويرية بلغت من التنوع المذهل حداً جعل العديد من الباحثين ينكر نسبتها لأصول إسلامية.

وسنحاول هنا تقديم نموذجاً للقصو الأموية من خلال القصر الأموي الموجود في جبل القلعة في عمان وهو يصلح أن يكون إنموذجاً لعمارة القصور في العصر الأموي، خاصة أن العديد من معالمه العمرانية ما زال ماثلاً للعيان[1].

يقع القصر فوق الاساسات المتبقية من الساحة المقدسة للمعبد الوثني الروماني، وهيئته قريبة من شكل منحرف قاعدته الكبرى نحو الجنوب، وتبلغ مساحته نحواً من (٢١,٠٠٠م).

والقصر يتكون من ثلاث أقسام تقسم بواسطة جدارين يمتدان من الشرق إلى الغرب، وسمك كل منها (١,٣٠م) ولتسهيل عملية دراسة القصر وملحقاته سيقسم إلى مجموعة من الوحدات.

١. الإيوان الجنوبي (قاعة الإنتظار):

يقع في الطرف الجنوبي من القصر إلى الشمال من معبد هرقل والمتحف الحالي، وهو يشكل المدخل الرئيسي الذي نستطيع من خلاله الوصول إلى كافة الأقسام الأخرى في القصر.

ويوجد على جانبي المدخل مقعدان حجريان لكل منهما متكأ على شكل ربع دائرة يقع في طرفها الجنوبي، ويبعد المقعدان عن جانبي المدخل حوالي (٤٠سم)، وتبلغ المسافة الممتدة بينهما حوالي (٢,٨٥م). وله ثلاثة

---

(١) اعتمدنا في وصف القصر على رسالة الماجستير للباحث ناظم هزايمة، القصر الأموي جبل القلعة، جامعة اليرموك، معهد الآثار، ١٩٩٤م.

مداخل.

وإلى الداخل من الإيوان توجد مجموعة من الغرف تتخذ شكلاً مستطيلاً، سقفت بقبو برميلي يتم الدخول اليها من خلال مداخل عرضها (١,٥م) وارتفاعها (٤,٨٠م) فتح في جدار واجهتها، وكانت هذه الغرف مخصصة للحرس.

وبعد الغرف يوجد درج لولبي يلتف بعكس عقارب الساعة، ويؤدي إلى سطح المبنى، وهو يشتمل على ست مجموعات من الدرجات تضم كل منها أربع درجات وبسطة.

ويعمل هذا المبنى بشكل عام وظيفة قاعة إنتظار لعامة الناس القادمين من لمقابلة الأمير، ولهذا اهتم بزخرفة هذه الوحدة البنائية للتخفيف من الشعور بالملل نتيجة الانتظار الطويل من قبل الزائرين، ولاضفاء الفخامة على صاحب القصر، والتأكيد على مكانته ومركزه المميز.

٢- المنطقة الوسطى:

تنقسم إلى مجموعة من الوحدات السكنية يقسمها فناء وشارع أعمدة إلى قسمين شرقي وغربي، ويوجد ثلاث وحدات تقع على الجانب الشرقي، ويوجد أربعة وحدات في الجانب الغربي من القصر جميعها مخصصة لسكن الأمير وعائلته.

٣- المبنى الشمالي (دار الإمارة):

يشتمل المبنى على قاعتين: قائمة استقبال، وقاعة عرش، وتقع قاعة الاستقبال أمام قاعة العرش مباشرة ويؤدي مدخلها الشمالي إلى قاعة العرش، وكانت أرضيتها من الفسيفساء المثبتة على أرضية من الحصى، وكذلك قاعة العرش.

وهذا ملخص لمكونات قصر عمان الأموي الموجود في جبل القلعة، وهو نموذج لعمارة القصور في العصر الأموي من كل النواحي سواء العمرانية أو الزخرفية أو مواد البناء.

وهناك العديد من المباني من العمارة الإسلامية غير ماذكرت أهمها:

المدارس: وهي عبارة عن صحن مكشوف تحيط به أربعة إيوانات في شكل متعامد أحد الإيوانات هو المدخل ويشتمل على سلم يؤدي إلى الدور العلوي وهذا الدور يخصص للطلبة والأساتذة كمساكن.

جـ- الدور:

انعكس البناء الاجتماعي للمجتمع الإسلامي في نمط المساكن في المراكز الحضارية حيث توجد أحياء غنية مثل الزاهر و الشماسية في بغداد، وأحياء فقيرة مثل نهر الدجاج في بغداد أيضاً.

وفي الوقت الذي كان يعيش فيه الأغنياء وكبار موظفي الدولة في قصور، كان الفقراء يعيشون في أكواخ واخصاص، وكانت دور الأغنياء تحتوي في العادة على فناء الحريم، وقطاع الخدام، وغرف الاستقبال وجميعها محاطة بسور إضافة إلى حمام خاص.

وبنيت الدور الفخمة على شكل طابقين حيث يوجد بداية طريق مبلدط يؤدية إلى الشارع ومنه ساحة مستطيلة الشكل بمعدل ٢ : ٣ محاطة بغرف الاستقبال ومكاتب، وعلى شكل حرف (T) غرفة رئيسة ويوجد على جانبيها غرف في الزوايا مكرر في جناح آخر من المنزل، ويتكون باقي الفناء من غرف مستطيلة ومخازن، وكان هناك سرادب في بعض البيوت لها وسائل تهوية، وللبيت عادة وسائل صرف صحي (مجاري) وآبار مياه، وحمامات.

وكان لمعظم البيوت الكبيرة وخاصة البغدادية والدمشقية حدائق خاصة بها، وتبنى الأسطح وهي على الأغلب مبسوطة من الخشب وتستخدم للنوم في ليالي الصيف وكانت الأبواب ذوات فتحات افقية. والشبابيك زجاجية مزخرفة بالألوان.

ومن أبرز أقسام البيت الإسلامي الدهليز وهو يمتد من باب الدار وحتى داخل الفناء وكان يُعتنى به عناية خاصة لأسباب كثيرة فها أنه يعتبر وجه البيت هذا كانت زخرفته كثيرة وعالية الجودة.

ويفضي الدهليز إلى صحن الدار الذي يزرع عادة بشجر أو مجموع من الأشجار، وقد تتوسطه أحياناً حديقة صغيرة، ويوجد به أحياناً نافورة ماء ويحيط به الأيوان وهو قاعدة كبيرة ومرتفعة لها ثلاثة جدران تطل على الصحن.

وفيما يتعلق برخرفة البيوت التي أُهتم بها اهتماماً كبيراً في العصر العباسي، فأول موادها الجص الذي استعمل بكثرة في زخرفة المداخل في القصور والبيوت وكذلك كانت الافاريز تزخرف، وكذلك برواز الباب رملية، الشبابيك التي كانت مزخرفة بشكل دقيق، وكانت الأعمدة تحلى بالجص ممزوج بقليل من الطين.

وتعددت مواد البناء المستعملة في البيوت (العباسية نموذجاً) من التراب إلى التراب المجفف والآجر المشوي والخشب والحصى والحجارة، واعتمد استعمالها على توفرها، أو على تقاليد العمارة. وكان وزن الآجر المستعمل ٢٠٠ رطل، واستخدم الآجر المخلوط بالسروج في الأساسات لمقاومته للماء وقيامه بالعزل، واستعمل القصب فيه كرابط بين اجزاء البناء، ويغطى الآجر بالقصارة الملونة عادة.

واستخدم الخشب بشكل واسع، وخاصة الساج في بناء الأسقف

والشبابيك والأبواب، وإن بنيت البيوت جميعها في بعض الحالات من الخشب، وكانت جذوع الخشب الطويلة تدخل في الحائط كأعمدة لدعم البناء بينما الجذوع القصيرة تشكل الأسقف.

وكان الطين والجص مواد محببة جداً للأستعمال في بيوت المشارقة مثل أصفهان، والري، ونيسابور، ومرو، وقصر استعمال الفسيفساء والمرمر على بيوت الأغنياء واستخدم الحجر الجيري في تبييض البيوت من الداخل.

واستعمل القرميد كمادة بناء في بعض الأحيان، وكانت دمشق أشهر مناطق صناعة القرميد المشهور بالقاشاني وان صنع في دمشق، وهو إما أن يكون مربع الشكل أو على شاكلة الزهور، ويستخدم في الزخرف الداخلي والخارجي للمباني، وكان متعدد الألوان من الأزرق، والأحمر والأصفر، والأزرق المخضر.

واستخدم المسلمون في العصر العباسي وسائل متعددة لتبريد بيوتهم في الصيف، ومن أوائل تلك الوسائل الخيش الذي استعمل على نطاق واسع، وكان وسيلة لتلطيف الهواء حيث كانت على شكل مروجة، وكان مبللة دائماً، فيؤدى تبخر الماء منها إلى إعادة النسيم بارداً، وكان الخيش يصنع من القنب ويعلق في سقف الغرفة على شكل شراع السفينة متصل بها حبل لكي يسمح لها بالتحرك، ويعود استخدام الخيش إلى الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان من اوائل من استخدمه. واستخدمت السراديب أيضاً للتبريد في بغداد، حيث يجلس الناس فيها طوال النهار اتقاءً لحر الصيف، واستعملوا الثلج أيضاً للتخفيف من الحرارة.

د- القلاع:

لم يهتم العرب في بداية دولتهم ببناء القلاع والحصون لاعتصامهم بسيوفهم لا بالجدران لهذا كانت قواتهم العسكرية كافية لحماية مناطقهم، إلاَّ

أنهم ورثوا العديد من القلاع في المناطق المفتوحة، وبدأت الحصون بالظهور تدريجياً في المناطق الثغرية التي ظهرت بسبب اضطرار الدولة لحماية حدودها ثم لما تمزقت الدولة الإسلامية إلى دويلات متصارعة، وظهور الأقطار الخارجية التي سيطرت على مجموعة من الأقاليم الإسلامية وخاصة مع الغزوة الصليبية مما دفع المسلمين للاهتمام بتحصين المدن والمناطق الاستراتيجية، فظهرت العديد من القلاع في المدن، وكذلك الحصون في المناطق الاستراتيجية الخالية من الأبنية.

ولهذا تداخلت العناصر المعمارية لأكثر من حضارة في القلاع الموجودة في العالم العربي، وضم بلاد الشام، حيث امتزج الأثر المعماري البيزنطي مع الإسلامي، ثم الصليبي فالإسلامي لتكون القلاع أقرب ما تكون إلى متحف يمثل أكثر حضارة وتبين مدى استفادة كل حضارة من الأخرى ومدى التأثر والتأثير.

ولعل خير مثال على ذلك القلاع التاريخية الموجودة في الأردن مثل قلعة الشوبك والطفيلة والكرك وعجلون التي كانت إسلامية خالصة.

* **قلعة عجلون:**

تقع قلعة عجلون في شمال غرب الأردن على بعد ٣٠كم تقريباً من العاصمة عمان في الشعاب البعيدة للكتلة الجبلية المتاخمة لوادي نهر الأردن من جهة الشرق وشيدت على قمة جبل عوف الذي يرتفع ٣٠٠٠ قدم عن سطح البحر ويعود بناء القلعة إلى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي كلف عز الدين اسامة بن عبد الله التركي الجبلي ببناء القلعة بهدف رصد ومراقبة تحركات الصليبيين في منطقة الأغوار وفلسطين ولتكون محطة انذار مبكر للجيش العربي الإسلامي، ولتحمي الجناح الجنوبي الغربي لدمشق وطريق المواصلات الحيوي بين دمشق والقاهرة (درب الحج) ولتكون

مواجهة لقلعة كوكب الهوى الصليبية في فلسطين[1] وبسبب موقعها المميز على قمة جبل عوف في موقع استراتيجي بقيت قلعة عجلون مهمة في جميع العصور الإسلامية التالية حتى بعد طرد الصليبيين من المنطقة لهذا اهتم بها المماليك والعثمانيين من بعدهم بشكل جزئي.

وتتكون القلعة من خندق خارجي يملىء بالماء لغايات دفاعية وليس له إلاّ باب واحد يرفع في حالات وجود أعداء ويحيط بالخندق على التل واجهات مبلطة بحجر أملس لتصعيب مهمة المهاجمين في التسلق إلى أسوار القلعة. ثم يأتي السور المبني من الحجارة الكبيرة بعرض واسع، أما الداخل فهو مبني بأسلوب العقود والبناء مكون من مدخل رئيسي وطابقين أرضي وعلوي ومجموعة من الأبراج لتسهيل مهمة الدفاع عن القلعة.

* **قلعة الكرك "مونتريال":**

تقع في جنوب الأردن على بعد ١٠ أميال إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت، وتقع فوق رأس جبل صخري تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك وشيدت القلعة فوق مصطبتين تفصلهما عن المدينة قناة عميقة.

لا يُعرف تاريخ بناء القلعة بالتحديد فهناك أدلة على وجودها في بدايات العصر الإسلامي إلاّ أنها اشتهرت وازدهرت اثناء فترة الأحتلال الصليبي للمنطقة فقد بدأ الملك بولدوين الأول بإقامة تحصيناتها وأدخل الحاكم الإقطاعي بايان لويوتييه عام ١١٤٢م تحسينات كبيرة إلى القلعة بهدف تعزيز مواقع الفرنجة في المنطقة وقطع طرق التجارة بين مصر والشام وبين

---

(١) هناك خلاف شديد بين المؤرخين حول تاريخ بناء القلعة من حيث أنه تم في عهد صلاح الدين أم في عهد أخيه السلطان العادل، ولم يقطع في هذه المسألة حتى الآن.

الشام والحجاز وأحد خطوط الدفاع عن بيت المقدس.

وقد سقطت في عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ بيد المسلمين ومنحت للعادل الأيوبي شقيق صلاح الدين الذي قام باعادة ترميم القلعة وتقوية دفاعاتها واستخدمت قصراً لحفظ خزائن صلاح الدين وأمواله واستمرت كذلك في عهد حكام المماليك والعثمانيين وما زالت دفاعاتها بحالة جيدة حتى اليوم.

ثالثاً- الفنون الزخرفية:

سيقتصر حديثنا هنا على نموذج واحد للزخرفة الإسلامية ممثلاً بالمقرنصات، فما أصل المقرنصات وتاريخ نشوئها.

المقرنصات:

"هي أبرز أنواع الزخرفة الإسلامية تتكون من حنايا صغيرة مقوسة تشبه المحاريب يتدلى بعضها فوق بعض في طبقات وصفوف بشكل فني تنحصر بينها أشكال منشورية مقعرة".

استخدمت المقرنصات في المباني والعمارة الإسلامية بشكل واسع وأصبحت من أبرز خصائص الفن الإسلامي.

أما فيما يتعلق بأصل المقرنص فقد تضاربت اراء الباحثين وعلماء الآثار حول ذلك فاعتقدوا أن أصله الحنية الموجودة في أحد أركان المربع الذي ترتكز عليه منطقة الانتقال في القبة ومنها تطورت المقرنصات في العمارة العربية الإسلامية وقد قسمت إلى مقرنصات مثلثة ومقرنصات مقوسة.

وقيل أن المقرنص لم يكن معروف قبل الإسلام -الحضارة الإسلامية- وأنه نشأ وتطور فيها على نطاق واسع بحيث وجد في كثير من القصور الإسلامية منها في العراق قصر الأخيضر وقصر المعتصم وسامرّاء وفي عمائر إسلامية مثل مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، وجامع ابن طولون.

أنواع المقرنصات:

أ- المقرنص المعقود البسيط:

اتفق الباحثون على أن الحنايا الركنية والمثلثات الكروية القائمة تحت القبة هي مقرنصات بسيطة وقالوا بأن المقرنص المركب هو تكرار عن المقرنص البسيط ويتكون من أكثر من صف والغالب أنه يتكون من ثلاث حنايا ذات تدريج بحيث تكون مرتبة فوق بعضها البعض مثل هذا المقرنص قائم في قصر الأخيضر وانصاف قباب مغطية لنهايتي المحراب في المسجد.

ب- المقرنصات المركبة من الحنايا المقوسة:

هي عبارة عن حليات معمارية مزخرفة تتكون من حنايا فوق بعضها تشبه في ترتيبها خلايا النحل وهي تكرار -كما اشرنا- عن المقرنصات البسيطة وتستخدم في مختلف الأماكن من الأبنية العربية الإسلامية كالقباب والمآذن والمحاريب والأرومة والمداخل والنوافذ والسقوف.

ومثال قائم عليها قبة الإمام محمد الدوري التي يعود تاريخها إلى عام ٤٧٨هـ.

وفي مصر يوجد ضريح محمد الجعفري والسيدة عاتكة (٥١٤-٥١٩هـ).

وفي سوريا قبة الإمام عون الدين ومقرنصات المباني التي شيدها نور الدين زنكي في دمشق.

ويوجد هناك أنواع أخرى للمقرنصات منها ذات الدلايات، والمقرنصات المنشورية، والمقرنصات الكروية، والمقرنصات المطوّلة، والمقرنص الحلبي، والمقرنص المزنبر، والمقرنص البلدي.

وهكذا كانت العمارة الإسلامية والزخرفة الإسلامية رائدتان في مجال بروز الحضارة العربية الإسلامية على مر العصور بدءاً بعصر سيد الأمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم وعهد الخلفاء الراشدين وبني أميّة وبني العباس إلى الآن.

فكانت شاهداً على نبع التحضر والرقي وأن الإسلام مهد الحضارات التي أخذت عنّا أوروبا كل ما تريد ونسبته إلى نفسها وانكرت صلته بالمسلمين.

وها هي الآن تمتد جذور الحضارة العربية الإسلامية لتنتج عقولاً تبني تصاميم إسلامية وزخرفة عريقة.

وتدرس كتبها ومؤلفاتها التي مثلت الأساس لنشوء علم الهندسة المعمارية والديكور أو تخصصات الفنون المعمارية.

الخط:

يعد الخط العربي من أهم موضوعات الحضارة العربية الاسلامية، لكونه واحداً من أبرز مظاهرها وعنصراً من أكثر عناصرها البنيوية حيوية وأوسعها وظيفة فيها، إذ كان تطور هذا الفن والمعرفة به يواكبان التطورات الحضارية المختلفة التي كانت تحدث في المجتمع العربي الاسلامي على عهود مختلف الدول والكيانات السياسية التي مرت عليه.

وكانت امكانيات هذا التطور توسع باستمرار من دوائر الاهتمام اللغوية والجمالية والاجتماعية بالخط من دائرة كونه كتابة: مجرد مظهر لغوي عادي حامل للنص الى دائرة كونه فناً: تشكيلاً بصرياً وجمالياً الى دائرة كونه ثقافة ظاهرة اجتماعية مؤثرة في تكوين الشخصية القوميةوالدينية وتفاعلات هذا التكوين وظلاله الحضارية والتاريخية ولكل لغة من لغات

العالم خطها وإن احترام تلك اللغة وخطها من شأن اصحابها فنحن العرب نحترم لغتنا لانها لغة القرآن الكريم وهي الرابطة الوثيقة التي توحد الأمّة لذا فقد تفننا بكتابة حروفها.

وقد اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي فقال هشام الكلبي أن أول من وضع ذلك قوم من العرب العاربة، وهناك رأي آخر اورده صاحب كتاب الفهرست ما نصه أن أول من وضع الكتابة العربية والفارسية آدم عليه السلام، ويقول ابن عباس أول من كتبت بالعربية ثلة رجال من بولان، ويقال أن الله سبحانه وتعالى انطق اسماعيل بالعربية المبينة وهو ابن اربع وعشرين سنة[1].

ومهما قيل من أمر فإن الخط العربي قد تطور ونما مع نمو وتطور الحضارة العربية وظهور الاسلام فظهر فيه اتجاهان:

١. الخط الجاف المولود من العبرانية ومن الأم الآرامية وقد استعمل لتدوين الاخبار الرسمية ولكتابة المصاحف.

٢. الخط اللين وهو سلس مطواع واستخدم في الحياة اليومية.

واصبح للخط العربي فنانون وخطاطون ومريدوه ومشجعوه لما فيه من القابليات على التطور وما يحوي من الجمال والمتعة ولتعقد الحياة الحضارية وبروز الحاجة لتعميقه واستخدامه فظهرت له اشكال فنية جديدة منها:

١. التزييني وأولها الخط الكوفي ومنه المضلع الهندسي والمشجر والمظفر وخطوط اخرى كالطغرائي والديواني والتعليق.

٢. القاعدي وهو قلم الطومار والثلث والرقعي والنسخي.

---

(١) للمزيد انظر: الزهاوي، تشكيلات الخط العربي، ص: ١١-١٢.

ومما يجدر ذكره أن الكتابة عموماً قد مرت بأطوار رئيسة حتى صارت إلى ما هي عليه الآن ومن هذه الأطوار:

١. الطور الصوري وهو الذي يعتمد على رسم الاشياء للتعبير عن ما يريده. كما هو الحال في الكتابة المصرية القديمة.

٢. الطور الرمزي وهو الذي توصل فيه الانسان الى استنباط شكل يرمز لمعنى معين كالشمس للنهار والقمر والنجوم لليل.

٣. الطور المقطعي وهو كتابة كلمات تبدأ بالمقطع (يد) فإنه يرسم صورة يد ويعتبرها مقطع هجائي يراد بها صوت الياء.

٤. الطور الصوتي وهو الكتابة التي لجأ إليها الكاتب للفظ كلمة معينة في حرفها الأول مثل (غـ) غزال . . . الخ.

٥. الطور الهجائي وهي ابتدع علامات لتمثل الحروف كالكتابة المسمارية المكتشفة في راس شمرا.

ويمتاز الخط العربي عن غيره بهذه الميزات:

١. يقبل أن يتشكل بأي شكل هندسي ويتمشى بأي صورة من الصور ولا يطرأ على جوهره أي تغيير.

٢. أنه يشابه الأشياء ويقاربها نسبياً قد لا نجدها بغيره من الخطوط.

٣. لا يوجد فيه خلل ولا يطرأ عليه تغيير لأنه خدم من قبل علماء المسلمين الأجلاء خدمة جليلة حفاظاً على صورة العربية وتحرزاً من خطأ اللسان بوضع علوم اللغة العربية.

٤. للحروف العربية أسرار عجيبة وتصرفات غريبة ذلك مما أودعه الله تعالى فيها خاصة في الأمور الروحانية.

٥ . تدل الحروف العربية على الأرقام الحسابية وتقوم مقامها على أكمل وجه لوجود تسعة أحرف فيها للآحاد وتسعة للعشرات وتسعة للمئات وحرف واحد للألف .

أبجد هَوَّز حُطْ وَاحداتْ يَكْلَمْ نَسَع فص عَشراتْ

قَرْشَتْ تَشخَذْ خَظْ للمِئاتْ غَ ألفِهمِْع الواجِباتْ[1]

---

(١) يحيى سلوم، الخط العربي، ص ٤٢-٤٤ .

أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في انجاز الوحدة السابعة

١- كامل حيدر، العمارة العربية الإسلامية.

٢- ناظم هزايمة، القصر الأموي في جبل القلعة.

٣- الموسوعة الأردنية، ٣ مج.

٤- محمد حسين جودي، العمارة العربية الإسلامية.

٥- عبد السلام أحمد نظيف، دراسات في العمارة الإسلامية.

٦- عبد الجبار ناجي، دراسات في المدن الإسلامية.

٧- مسألة المدينة والمدنية العربية، مجلة الفكر العربي، الاعداد ٢٩/ ٣٠.

٨- فولفانغ مولرڤيز، القلاع أيام الحروب الصليبية.

٩- مصطفى الحياري، صلاح الدين الأيوبي.

١٠- سعد عبد الحميد، العمارة والفنون في دولة الإسلام.

١١- خالد عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية.

١٢- أكرم قانصو، التصوير الشعبي العربي.

١٣- احمد عيسى، الفنون الإسلامية.

١٤- بشر فارس، سر الزخرفة الإسلامية.

١٥- حسن زكي، الفنون الإسلامية.

١٦- عدنان بن درديل، الفنون الإسلامية.

١٧- جمال محرز، التصوير الإسلامي.

١٨- ادهام محمد، الخط الرب واشكالية النقد الفني.

١٩- وليد الأعظمي، جمهرة الخطاطين البغداديين.

٢٠- كامل البابا، روح الخط العربي.

٢١- تركي الجبوري، الخط العربي الاسلامي.

٢٢- ابراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية.

٢٣- احمد رضا، رسالة الخط.

٢٤- سمير الصائغ، الفن الاسلامي.

٢٥- ابراهيم حمزة، الخط العربي.

٢٦- صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي.

٢٧- خليل الزهاوي، تشكيلات الخط العربي.

٢٨- ادهام محمد، الخط العربي في الوثائق العثمانية.

٢٩- يحيى سلوم، الخط العربي.

٣٠- هاشم محمد، قواعد الخط العربي.

الخاتمة

خصائص الحضارة العربية الإسلامية[1]:

أما عن سبب تميز الحضارة العربية الإسلامية واختصاصها بالتفضيل على غيرها ووسمها بأنها الأرقى بين الحضارات، فيعود إلى مجموعة من الخصائص والمميزات التي اتسمت بها عن غيرها من الحضارات الأخرى، وهي:

١- العالمية:

لم تُحصر الحضارة العربية الإسلامية ودعوة الإسلام بعنصر من العناصر -وإن كان للعرب فيها خصوصية- أو مجموعة عرقية، بل كانت لجميع البشر من دون تمييز.

ويدل على ذلك دلالة واضحة أن جميع البيئات والشعوب التي عاشت هذه الحضارة قد استطاعت أن تطور حياتها معنوياً ومادياً تطويراً واضحاً في ظلها وترتقي بجميع مكونات هذه الحياة رقياً كبيراً في حين أنها كانت تعاني من تخلف كبير في حياتها الروحية والعقلية قبل الإسلام. وإن مناطق ازدهار الحضارة الإسلامية في العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر، وبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس تدل دلالة لا تقبل النقض أن أبناء تلك البلاد كانوا حملة لواء هذه الحضارة، فلم تكن مفروضة عليهم دون أن يمثلوها في نفوسهم ويؤمنوا بها ويكونوا جزءاً من نسيجها.

والحضارة الإسلامية لم تميز بين إنسان وإنسان بل كانت عامة لجميع البشر بلا استثناء، "وما أرسلناك إلَّا كافة للناس بشيراً ونذيراً". وبالتالي فقد وسعت الحضارة الإسلامية الدنيا كلها رغم اختلاف عقائد سكانها وانماط حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتعدد اجناسهم ولغاتهم.

٢- الإنسانية:

وتتمثل إنسانية الحضارة العربية الإسلامية بلائمتها لفطرة الإنسان وسماته التي

---

(١) أعد الخاتمة د. سلامة النعيمات.

يتميز بها عن باقي المخلوقات ومنسجمة مع تطلعاته ونشاطاته السوية وقادرة على تلبية حاجاته لانها قدمت أكمل تصور للإنسان باعتباره كائناً بشرياً خلقه الله تعالى واستخلفه في هذه الأرض من أجل غايات سامية وأهداف نبيلة. لأن لدى الإنسان الطاقة العقلية، والنفسية والحسية التي تجعله قادراً على الإفادة مما خلقه الله في السموات والأرض. فالإنسان مؤهل بأصل خلقه لتحمل أمانة التكليف الإلهي. فالتكليف والمسؤولية أمران موافقان لفطرة الإنسان ومسايران لما خصه الله به من قدرات لازمان لاستقامة سيرته في الحياة الدنيا وتحقيق سعادته فيها. وعن طريق استجابة الإنسان السوية لهما يكون جزاؤه في الحياة الآخرة نعيماً مقيماً. كما أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل الذين يحملون وحي الله وهديه وتشريعاته ليساعد الإنسان ويرشده. قال تعالى: "رُسُلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً" النساء/١٦٥.

وبذلك تتضح وحدة المصدر في الخلق وفي الهداية الذي يفرز التوافق الكبير بي الإنسان باعتباره مخلوقاً مفطوراً على نحو خالص وبين الوحي الإلهي الذي يشكل لب الحضارة الإسلامية وهذا دليل على إنسانية الحضارة العربية الإسلامية.

٣- المزج بين عالم المادة وعالم الروح:

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من مادة وروح، وأمده بكل أسباب الحياة في جانبيها المادي والروحي. فهيأ له الجو المناسب للحياة على وجه الأرض وهذا الجانب المادي وبالمقابل هيأ للجانب الروحي غذاءه من وحي السماء الذي نزل إلى الإنسان على يد رسل الله تعالى. فالإنسان في مفهوم الحضارة الإسلامية هو ذلك الكائن المادي والروحي. ويظهر ذلك في تعاليم الإسلام وتشريعاته فإلى جانب الدعوة إلى الإيمان والحرص على القيادة نجد الدعوة إلى الأخذ بالأسباب المادية للحياة. وتمثل ذلك في جملة من الآيات القرآنية التي مثلت الأساس الذي أقام عليه المسلمون صرح الحضارة الإسلامية بمعطياتها الروحية والمادية. فكل نشاط مادي في ظل الحضارة الإسلامية له غاية اخلاقية وفيه جانب روحي. والدليل الواضح على المزج والجمع بين الروحية المعتدلة والمادية المقتصرة في الآية القرانية الكريمة: "وابتغ في ما آتاك الله الدار

الاخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا..." القصص/٧٧.

٤- ايمان الحضارة الإسلامية بالفكر والعلم:

إن المتتبع للآيات القرآنية يجد أن هناك الكثير منها فأولى آيات القرآن تحض على التعليم: "اقرأ باسم ربك الذي خلق..." العلق/١. و "الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان" الرحمن/١-٤. و "وقل رب زدني علماً" طه/١١٤.

ويميز الإسلام بين العلماء والعامة في المجتمع وصدق ذلك الآية القرآنية "هل هي يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" الزمر/٩. ونتيجة لإيمان الحضارة العربية الإسلامية بالعلم فقد اعتبرت تقدم الإنسان وازدياد معرفته الفكرية والعلمية مؤشراً لقربه إلى الله تعالى ويسجل ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: "انما يخشى الله من عباده العلماء" فاطر/٢٨. فالعلماء أكثر الناس فهماً لنعم الله وادراكاً لآياته.

ويخاطب القرآن الكريم العقل والقلب ويدفع بهما إلى التأمل في كل ما خلق الله فان العقل الراجح والقلب المتفتح إذا أمعن النظر في آيات الله كان أقرب إلى الإيمان وأدنى إلى التقوى.

ويخاطب الإسلام العقل ويدعوه للتفكر في خلق الكون فيقول الله تعالى: "ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" آل عمران١٩٠/١٩١. وغير ذلك من الشواهد والأدلة التي تبين مدى إيمان الحضارة العربية الإسلامية بالعلم والفكر والإبداع والتدبير.

٥- صلاح الحضارة العربية الإسلامية لكل زمان ومكان:

استناداً إلى المميزات والخصائص السابقة سواء الإنسانية أو العالمية فان مقتضى ذلك أن تكون صالحة للتطبيق في كل البيئات الإنسانية وفي أي بقعة من الأرض وأن تكون كذلك

صالحة على مر الأزمان وتطاولها باعتبارها رسالة السماء الخاتمة لكل الرسالات. ويمكننا ان نبين مدى هذه الصلاحية إذا نظرنا في الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية التي جاء بها الإسلام والتي قامت عليها الحضارة الإسلامية وبهذا تتوافر لدينا براهين موضوعية واضحة الدلالة على صلاحية هذه الحضارة لكل زمان ومكان بالإضافة إلى اهمية ما كتبه الباحثون حول دور هذه الحضارة وقدرتها على العطاء الإنساني المتجدد إضافة إلى الدليل التاريخي الذي لا يمكن اغفاله في مثل هذا المجال.

ففي مجال الأعتقاد والتشريع والأخلاق نجد الحقائق التالية:

أ- إن الله وحده لا شريك له.

ب- إن الله خالق هذا الكون ومبدعه.

جـ- إن الله سخر هذا الكون بما فيه لإنسان وزوده بالطاقات التي تؤهله لاستغلال ما فيه من خيرات.

د- إن الإسلام قد سن من التشريعات والقوانين ما يناسب فطرة الإنسان.

هـ- إن الحضارة الإسلامية حضارة اخلاقية.

و- إن الإسلام قد ترك للعقل الإنساني حرية الإبداع والابتكار في مجال استغلال خيرات هذا الكون.

٦- تتميز الحضارة العربية الإسلامية بانها حضارة متطورة:

اعتماداً على أن رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات السماوية فان الحضارة المعتمدة على هذه الرسالة حضارة متطورة. تستطيع أن تسع كل تطورات الحياة الإنسانية بحيث تواجه ما يجد في حياة الإنسان من تطورات ولا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي ولا تقف عاجزة عن الفصل في القضايا المتجددة لهذا المجتمع البشري في بيئاته المختلفة المتنوعة في نشاطها الإنساني واعرافها وأنظمة حياتها. ولذلك أقامت أساس تشريعاتها وقوانينها وآدابها على أصلين ثابتين واضحين هما: الكتاب والسنة فنرى المبادىء

والأصول الكلية جمعيها تعود إليهما. وعلى هذا فإننا نستطيع القول بأنها حضارة ربانية لان مصدرها الرئيس الوحي الكتاب والسنة وهذا يبعدها عن التناقض والضلال والانحراف.

كما جاءت تعاليم الإسلام على عنصرين يتعلقان بالهدف والتنفيذ:

الأول: تعاليم ثابتة الهدف والتنفيذ، وهذه تنطبق على العبادات والحدود.

الثاني: تعاليم ثابتة الهدف متطورة التنفيذ، وهذه تنطبق على الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي...الخ.

٧- إنها حضارة شاملة ومتوازنة:

فالحضارة العربية الإسلامية حضارة شاملة لم تتناول جانباً في حياة الإنسان دون الآخر، بل عالجت جميع شؤونه. ولبّت جميع حاجاته الفطرية، ونظمت جميع غرائزه، وميوله فكانت مسؤولية الإنسان مسؤولية شاملة لأعماله كلها. قال تعالى: "فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون" الحجر/٩٢-٩٣.

وإلى جانب ذلك فإنها حضارة متوازنة فلم يكن لجانب أن يطغى على آخر، فلم تهتم بالقيم الروحية على حساب المادية، بل وازنت بينهما فلا تلهي الإنسان تجارته عن ذكر الله ولا يمنعه ذكر الله عن ممارسة التجارة وغيرها من أعمال الحياة فقد جمعت بين أمور الدين والدنيا.

٨- إنها حضارة متكاملة ومتناسقة:

والحضارة الإسلامية حضارة متكاملة لم تترك امراً من أمور الدنيا والآخرة ولا فعلاً من أفعال الإنسان ولا تصرفاً من تصرفاته ولا اتجاهاً من اتجاهاته إلاَّ اعطته حكمه الشرعي ووضعته في ميزانه الحقيقي وجعلت كل ذلك مرتبطاً بالعقيدة الإسلامية برباط وثيق محكم. قال تعالى: "ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء" النحل/٨٩. فهذا التكامل كان من خصائص هذه الحضارة وميزاتها البارزة.

والتكامل أمر أساسي في هذه الحضارة لأن الإنسان بغرائزه وحاجاته العضوية كل لا

يتجزأ فمن الضرر البالغ معالجة جانب من شؤون حياته وترك الآخر. وإذا لم يكن النظام معالجاً لشؤون الحياة كافة فإنه يجر إلى شقا الإنسان ولذلك لا يجوز فصل جزء عن جزء من هذه الحضارة ولا يجوز أخذ بعضها وترك بعضها الآخر. والحضارة الإسلامية متناسقة فلا يوجد جانب في الشريعة يهدم جانب، ولا قيمة تعارض قيمة، ولا حكم يعطل حكماً آخر أو يتناقض معه، ويقف دون تنفيذه أو القيام به بل نجد كل حكم يؤيد الحكم الآخر ويدعمه. فهي حضارة منسجمة كل الإنسجام في كل جوانبها وقيمها وأحكامها ومظاهرها فلا تناقض فيها ولا تعارض.

٩- تفاعل الحضارة العربية الإسلامية مع الحضارات الأخرى:

لم تظهر الحضارة العربية الإسلامية في فراغ، بل ظهرت في منطقة خضعت لتأثيرات حضارية كانت قد سبقت الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة مما أدى بالحضارة العربية الإسلامية إلى أن تتفاعل مع الحضارات التي سبقتها وتقدم شيء جديد بصبغة عربية إسلامية وأهم هذه الحضارات التي تفاعلت معها الحضارة العربية الإسلامية:

١- الحضارة الفارسية الهندية:

الفرس أمة عريقة في الحضارة، وقد ازدهرت حضارتها في زمن الدولة الساسانية وبرزت في السياسة والإدارة والحروب ومظاهر العمارة والفنون والآداب والعلوم ومظاهر الترف والرفاهية وكان لها دين رسمي هو الزرادشتي ولغة ذات آداب وحكمة هي اللغة الفهلوية.

فلما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الدولة الساسانية دخل الفرس في الدين الإسلامي افواجاً وصاروا موالي للفاتحين وبدخولهم في الإسلام طرحوا دياناتهم ولغتهم السابقة واقبلوا على الإسلام يدرسونه وعلى اللغة العربية يحصلونها فهي لغة دينهم الذي احبوه واعتنقوه حتى تعينهم على فهمه وتدبره.

ولم يمض زمن طويل حتى اسهموا في الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم وأفادت الحضارة الإسلامية من ذلك فوائد جمة، منها:

١- إنه كانت هناك بعض الألفاظ التي تعبر عن مظاهر الحضارة وليس لها مقابل في اللغة العربية فنقلت بذاتها إلى اللغة العربية ودخلت في بنيتها.

٢- نبوغ كثير من موالي الفرس في مختلف العلوم العربية والإسلامية. فقد برز في الحديث الحسن البصري ومحمد بن سيرين وأبو عبد الله البخاري ونبغ في الفقه الإمامان ابو حنيفة والليث بن سعد. وظهر في الكتابة عبد الحميد الكاتب وابن المقفع. وفي الشعر بشار وأبو نواس. وقد ادخل هولاء وأولئك على النثر والشعر أساليب وتعبيرات وأخيلة كثيرة. وهكذا حتى استفاضت في العصر العباسي حركة العلم والتأليف في مختلف العلوم الإسلامية كما ترجم كثير من الكتب إلى العربية.

وانتقلت إلى الحضارة الإسلامية عن طريق هذه النهضة العلمية بعض معارف وعلوم الهنود خاصة في الرياضيات كالحساب وغيرهم من الشعوب الشرقية المتحضرة كالشعب الصيني.

وهكذا كانت هذه الحضارة المؤثر الأجنبي الأول الذي استمدت فيه الحضارة العربية الإسلامية جانباً من مقومها حيث كان لهؤلاء الموالي أثر واضح في الحضارة الإسلامية.

٢- الحضارة اليونانية والرومانية:

وتمثل هذه المؤثر الأجنبي الثاني الهام الذي تفاعلت معه الحضارة العربية الإسلامية. فاليونان أمة ذات حضارة عريقة في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب. ظهر فيها أساطين الفكر في العالم القديم كسقراط. وافلاطون وارسطو في الفلسفة. وأبو قراط وجالينوس في الطب. واقليدس في الطب. فانتشر علمهم وفكرهم في الشرق على أثر فتوح الاسكندر الأكبر وقيام أسر يونانية حاكمة في الشام ومصر.

وفي القرون السابقة على مجيء الإسلام نقل السريان في الشام والعراق إلى لغتهم السريانية كثيراً من تأليف هؤلاء العلماء وغيرهم ممن نبغوا في الرياضيات والكيمياء والفلك والجغرافيا وعلقوا عليها وشرحوها. كما انشأت مدارس في المدن الكبرى كانطاكية وقيصرية

ونصيبين والرها لتعليم تلك العلوم وكان لمدرسة الاسكندرية دور بارز في هذا الميدان فانتشرت الحضارة اليونانية في اقطار الشرق التي تأثرت بحضارة الرومان ولا سيما في تشريع القوانين وهندسة الطرق.

وجاءت حركة الترجمة التي بدأت في العصر الأموي وبلغت أوجها في العصر العباسي الأول حيث أمر هارون الرشيد بترجمة كثير من كتب اليونان كما عهد ابنه الخليفة المأمون إلى طائفة من السريان أن ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة في علومهم إلى اللغة العربية ونظم ذلك في مؤسسة بيت الحكمة المشهورة وبذلك انتقل فكر اليونان القديم وعلومهم إلى المسلمين. وأصحبت من أهم الأسس في الفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات والفلك والجغرافيا عند العرب.

وهكذا ففي الوقت الذي تفاعلت فيه الحضارة العربية الإسلامية مع الحضارات التي سبقتها واستفادت من انجازاتها ووظفت ما انسجم مع تاريخها ودينها خدمة لمواطنيها نجدها تقدم المزيد للحضارة العربية والعالمية التي ظهرت منذ القرن السابع عشر وما زالت قائمة إلى الآن فالمتتبع لذلك يجد بوضوح المساهمة الحقيقية للحضارة العربية الإسلامية في انجازات الحضارة العالمية.

ومن أبرز المفكرين الذين تحدثوا عن أثر الحضارة العربية في حضارة أوروبا "جوستاف لوبون" الذي وضع كتاباً قيماً بعنوان (حضارة العرب) أنصف فيه العرب وسلط الأضواء على الأسس العربية للحضارة الأوروبية الحديثة ومن آراء لوبون في هذا الصدد قوله: كان تأثير العرب على الغرب عظيماً، وإليهم يرجع الفضل في حضارة أوروبا، ولم يكن نفوذهم في الغرب أقل مما كان في الشرق، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب إلاّ إذا تصور حالة أوروبا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة العربية، وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد، يوم كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً نرى أن المراكز العلمية الوحيدة في الغرب عبارة عن ابراج يسكنها سادة نصف متوحشين يُفاخرون بانهم أميّون وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين".

ويرى (لوبون) أيضاً أن الحضارة العربية لم تدخل إلى أوروبا نتيجة الحروب الصليبية كما

هو الرأي الشائع بل دخلت بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا. واعترف المؤرخ (رينو) في كتابه (تاريخ غزوات العرب) بفضل العرب على حضارات أوروبا فقال: "إن النهضة الحقيقية في أوروبا لم تبدأ إلاَّ منذ القرن الثاني عشر حيث أفاق الفرنسيون والانجليز والألمان من رقدتهم. ونفضوا عنهم الخمول. ووجدوا ضرورة الاشتراك في الحضارة العربية. فأخذ المسيحيون في فرنسا وما جاورها يؤمون اسبانيا لترجمة الكتب العربية وأصبح العرب الامثلة العليا للشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق.

وقال (ساريتو) في كتابه (الحضارة): "إن ما أتت به الحضارة العربية في باب العلم، ولا سيما العلوم وتطبيقها أعظم بكثير مما أتت به في هذا السبيل الدولة البيزنطية إذ أن الحضارة البيزنطية لم تأت بفكر جديد.

وأشار المفكران (لاميس) و (راميو) في كتابهما (التاريخ العام) بالحضارة العربية وآثارها فقالا: إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل. لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم. فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب المتأخرة في إفريقيا وآسيا وأوروبا اللاتينية ومعارف الشرق الأدنى والأقصى وصناعاته واختراعاته بل احسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان. ومن مجموع هذه المواد المختلفة التي صبَّت فتمازجت نموذجاً متجانساً. أبدعوا حضارة حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم وهي ذات وحدة خاصة وصفات قائمة".

وقال (جوليفه كتلو) في كتابه (قانون التاريخ) "كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول ﷺ عظيماً جرى على أسرع ما يكون. وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة. وقامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم. وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون على مشعل النور العقلي وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين... وإن أوروبا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من إرتقاء في القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي... وقد إنقضت أربعة قرون لا حضارة فيها غير الحضارة العربية وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق.

وهكذا كانت الحضارة العربية الإسلامية صاحبة الفضل الأول والأكبر على الحضارة الغربية الأوروبية التي انفردت في المرحلة الأخيرة بزمام التقدم الإنساني واحتكرت ظواهر المدنية والأزدهار العلمي الاقتصادي.

المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في انجاز الخاتمة

١- أحمد ابراهيم الشريف، دراسات في الحضارة الإسلامية.

٢- جاك ريسلر، الحضارة العربية.

٣- محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية.

٤- أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي.

٥- محمد مصطفى زيادة، تاريخ العالم العربي وحضارته.

٦- ابراهيم سلمان الكروي، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية.

٧- عز الدين الخطيب التميمي وآخرون، نظرات في الثقافة الإسلامية.

٨- جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي.

٩- توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية.

١٠- علي عبد الله الدفاع، لمحات من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

١١- هيام الملقي، ثقافتنا في مواجهة الانفتاح الحضاري.

١٢- محمد علي الضناوي، مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية.

١٣- محمد محمد حسن شراب، في أصول تاريخ العرب الإسلامي.

١٤- محمد سعيد البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن.

١٥- محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية.

١٦- أحمد شلبي، الحضارة الإسلامية.

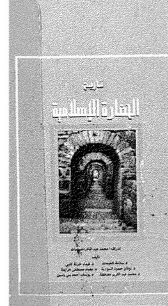
١٧- عمر الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية.

١٨- نادية العمري، اضواء على الثقافة الإسلامية.

١٩- سميح الزين، الإسلام وثقافة الإنسان.

٢٠- عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية.

٢١- محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام.
٢٢- علي الشامي، الحضارة والنظام العالمي.
٢٣- محمد الخطيب، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية


تاريخ
الحضارة الإسلامية


حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع
إربد - الأردن تلفاكس ٠٠٩٦٢٢٧٢٢٠١٠٠ ص. ب ١٣٨٤
حمادة للنشر والتوزيع
Cover Design: Ali Hammouri
GSM: 077 330313